المجلس الأعلى للثقافة

التوبة

رواية

للأديب الهندى: نذير أحمد الدهلوى

المشروع القومى للترجمة



485

ترجمة و دراسة:

سمير عبد الحميد ابراهيم

المشروع القومى للترجمة

التــوبة

(روايــة)

تـأليف : نذير أحمد الدهلوى

ترجمـة : سمير عبد الحميد إبراهيم



المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٨٥
- التــوبة (رواية)
- نذير أحمد الدهلوى
- سمير عبد الحميد إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة للرواية الأردية :

توبة النصوح

از

شمس العلماء دبى نذير أحمد



شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.



تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تصدير المترجم

تعد رواية " التوبة " للأديب الهندى نذير أحمد الدهلوى نموذجًا للأدب الهندى الكلاسيكى ، وهى تقدم مادة علمية وأدبية تخدم الباحثين المتخصصين فى الدراسات الأدبية المقارنة .

ورواية " التوبة " هى فى الأصل بعنوان " توبة النصوح " صدرت طبعتها الأولى فى الهند سنة ١٨٧٧ ، وقد نالت منذ صدورها وحتى اليوم شهرة لم تنلها رواية أخرى فى الأدب الأردى ، والدليل على ذلك أنها لا تزال تطبع بكثرة حتى يومنا هذا . وتجدر الإشارة إلى أنها ترجمت إلى اللغة الإنجليزية ، وصدرت فى لندن عام ١٨٨٤ ، ثم صدرت لها طبعة ثانية عام ١٨٨٦م مع حواش ومعجم .

وهذه الترجمة العربية التى تصدر اليوم عن المجلس الأعلى للثقافة – ضمن خطة المشروع القومى للترجمة – تعتمد على طبعة صدرت فى لاهور عام ١٩٨٤م ، وأخرى صدرت فى لاهور أيضًا عام ١٩٩٤م والطبعة الأولى كتبت بخط النستعليق ، بينما كتبت الثانية بخط النسخ ، وقد حرص كاتب هذه السطور على أن تكون الترجمة من الأردية إلى العربية ترجمة أدبية مطابقة للأصل تمامًا ، مع تقديم دراسة تمهيدية عن الرواية ومؤلفها ، والجدل الذى دار حول منحها الجائزة الأولى لفن

الرواية آنذاك ، والسبب الذى دفع كاتب السطور لترجمتها إلى اللغة العربية ، مع رؤية نقدية مختصرة .

ولا يسعنى هنا إلا أن أقدم الشكر للقائمين على المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة على اهتمامهم بترجمة الأعمال الإبداعية من اللغات الشرقية مثل : الفارسية ، والأردية ، والتركية وغيرها ؛ فهم بذلك يؤدون خدمة جليلة للدراسات الشرقية ، والدراسات الأدبية المقارنة ، ويعملون على إثراء المكتبة العربية بروائع الأدب الشرقى .

وفى الختام ، أقدم جزيل شكرى لجميع الأخوة الذين ساعدوا فى نشر هذه الترجمة ، وإلى أمين عام المجلس الأعلى للثقافة الأستاذ الدكتور جابر عصفور على ما لقيته من تشجيع لترجمة هذه الرواية وغيرها من أعمال تصدر عن المجلس الأعلى للثقافة بإذن الله .

وبالله التوفيق .



تقديم

ولد نذير أحمد مؤلف رواية " توبة النصوح " في بجنور بشمال الهند سنة ١٢٤٦ هجرية / ١٨٣٠م ، ودرس على يد والده ، كما درس مع أقرانه في الكتّاب على عادة أهل زمانه ، ودرس على يد بعض العلماء أيضا ، والتحق بكلية دهلي سنة ١٢٦٤ هـ = ١٨٤٦م ؛ حيث حصل على منحة قدرها أربع روبيات شهريًا ، زيدت فيما بعد إلى ٢٤ روبية، وظل يدرس بها مدة ثماني سنوات .

في سنة ١٢٧١ هـ =١٨٥٤م عمل مدرسًا في إحدى مدارس الكجرات ، وبعد سنتين عمل مفتشًا للتعليم ، لكنه ترك هذه الوظيفة ورحل إلى دهلي ، ولم يكد يصل هناك حتى اندلعت الثورة ضد الإنجليز في سنة ١٨٥٧م .

بعد أن أخمد الإنجليز الثورة ، تقلد نذير أحمد وظيفة في إله آباد بواسطة بعض المسئولين الإنجليز ، وهناك سنحت له الفرصة لدراسة الإنجليزية والعمل في مجال الترجمة ؛ فترجم قانون ضريبة الدخل ، وقانون العقوبات ، وكتابًا في علم الهيئة ، ثم انتقل إلى حيدر آباد سنة ١٨٧٧م ليسهم في وضع مناهج التعليم هناك ، وأثناء إقامته في حيدر آباد رغب في حفظ القرآن ، وكان يتمتع بقدرة عجيبة على الحفظ فتمكن من حفظ القرآن في ستة أشهر(١) .

بدأ نذير أحمد الدهلوى حياته الأدبية في حدود عام ١٢٨٦ هـ = ١٨٦٨م حين نال جائزة عن روايته "مرآة العروس" ، ثم جائزة أخرى عن روايته "توبة النصوح" ، كما نال لقب شمس العلماء ، ونال درجات علمية من جامعتي أدنبره ، وجامعة البنجاب . وفي سنة ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م ترك وظيفته مفضلاً الانتقال إلى دهلى ، قانعًا بمعاش شهرى قدره ٦٠٠ روبية ، ليبدأ حلقة ثانية من حياته الأدبية بكتابة عدد من الروايات وعدد من المؤلفات الدينية التى بدأها بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية[٢] .

كتب نذير أحمد عددًا من الروايات هي على التوالى : "مرآة العروس" التى طبعت سنة ١٨٦٩م ، و "بنات النعش" التى طبعت سنة ١٨٧٢م (وهى الجزء الثانى للرواية السابقة)، و "توبة النصوح" التى طبعت سنة ١٨٧٧م ، و "المحصنات" أو "فسانه مبتلا" التى طبعت سنة ١٨٨٥م ، و "ابن الوقت" وطبعت سنة ١٨٨٨م ، ورواية "رؤيا صادقة" ، وأخيرًا "رواية الأيامى" .

كما كتب عدة كتب في الأخلاق منها : منتخب الحكايات ، وعدة نصائح ، "والموعظة الحسنة" .

ومن مؤلفاته الدينية " ترجمة معاني القرآن الكريم" ، و "الحقوق والفرائض والاجتهاد" ، و "أمهات الأمة" ، و "أدعية القرآن" .

وفي المنطق كتب "مبادئ الحكمة" ، وفي علم الهيئة كتب "السماوات" وهو ترجمة لكتاب في علم الهيئة باللغة الإنجليزية ،

وفى القواعد كتب "ما يغنيك فى الصرف" ، و "الصرف الصغير" عن قواعد اللغة العربية ، ومن كتبه الأخرى : "رسم الخط" ، و "نصاب خسرو" ، و "حكاية الغدر" ، ومجموعة محاضرات ، ومجموعة شعرية بالإضافة إلى ترجمته لعدد من كتب القانون ، وكتاب ضخم كتبه فى آخر عمره بعنوان "مطالب القرآن"، لكنه لم يكمله[٣] .

رواية توبة النصوح

اهتم نذير أحمد بتعليم المرأة ، وجعلها هدفًا لكتاباته الروائية ، وفى رواية توبة النصوح تناول مسألة تربية الأولاد . فبعد ثورة التحرير التى قامت فى الهند ضد الإنجليز تغيرت تركيبة المجتمع وبدأ عصر الصناعة والتجارة ؛ فصوَّر نذير أحمد المساوئ الاجتماعية التى ظهرت فى أعقاب هذا التغير الاجتماعى انطلاقًا من فكرة الحفاظ على القيم الإسلامية[٤] .

ويعتبر نذير أحمد أول من كتب فى موضوع المرأة فى الأدب الأردى فهذا من أولوياته ، وظل هو الوحيد الذى يكتب عن المرأة فى شبه القارة لمدة نصف قرن تقريبًا ، حتى جاء الأديب راشد الخيرى فكتب عن المرأة فى مؤلفاته .

كما يعتبر نذير أحمد أيضًا أول من كتب رواية أردية بصرف النظر عن الأمور الفنية النقدية ، ويُذكر أن الروائى الثانى بعده هو بندت رتن ناته سرشار ، الذى طبع "افسانه آزاد" فى حلقات فى ديسمبر ١٨٧٨م فى جريدة " اوده " ، ثم طبعها كاملة فى كتاب سنة ١٨٨٠م ، إلا أن

"مرآة العروس" لنذير أحمد طبعت قبل "فسانه آزاد" بعشر سنوات ، كما أن روايته الثانية "بنات النعش" طبعت أيضًا قبل رواية سرشار المسماة "افسانه آزاد" .

أما رواية "توبة النصوح" التى ترجمناها هنا بعنوان " التوبة " فتعد من أحسن ما كتب نذير أحمد من روايات باعتراف جميع النقاد(٥) ، ومن العجيب أن أية رواية أردية بل أى كتاب بالأردية لم يلق مثل هذه الشهرة التى لقيتها هذه الرواية ، والدليل على ذلك أن الرواية لا تزال تطبع بكثرة حتي يومنا هذا .

كانت الطبعة الأولى - كما ذكرنا - فى سنة ١٨٧٧م ، ثم توالت الطبعات ، ومن أشهرها طبعة نول كشور سنة ١٨٢٢م ، وطبعة أنصارى ، دهلى سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٤ - ١٨٩٥م) ، وطبعة جيد برقى بريس دهلى ١٩٢٨م ، بالإضافة إلى عدد لا حصر له من الطبعات التى صدرت من مطابع ومراكز الأدب في دهلى ، ولاهور ، ولكهنو ، وحيدر آباد الدكن ، وكراتشي وغيرها ، ثم الطبعات الحديثة التى اعتمدنا عليها فى ترجمة الرواية إلى العربية وهى طبعة بابلر ببلشنك هاوس بلاهور باهتمام البروفسير رشيد أحمد كريجه وفقير أحمد فيصل (ط ١٩٩٠م عن طبعة ١٩٨٤م) وطبعة مجلس ترقى أدب اردو الثانية ،التى اهتم بتصحيحها والتعليق عليها البروفسر افتخار أحمد صديقى، وصدرت سنة ١٩٩٤م .

تُرجمت الرواية إلى لغات الهند المختلفة بعد صدورها بسنوات قلائل ، كما ترجمها المستر ميثيو كيمبسن إلى اللغة الإنجليزية ،

ونشـرت التـرجمـة في لندن سنة ١٨٨٤م ، وفي سنة ١٨٨٦م طبـعت الترجمة الإنجليزية مرة أخرى مع حواش ومعجم .

نالت الرواية اهتمـام أدباء كل عـصـر ، ونقـاد كل زمـان، بإبراز محاسنها ، وشبلي النعماني – المعروف بمكانته في النقد – أعجب بالرواية وضمـها للعدد القليل من الكتب الأردية التي نالت إعجابه ، وكتب الأدباء المعاصـرون عن الرواية ، كمـا درسـها البـاحـثون في رسائلهم الخـاصـة بالدكتوراه[٦] ، وأشار الشاعر الأديب فيض أحمد فيض إلى انفراد نذير أحمد بما كتبه في رواياته من واقعية – وإن كانت واقعية محدودة لأنه كتب عن قضايا عامة المسلمين ؛ ذلك لأن الصراع الاجتماعي الذي ظهر فيما بعد لم يكن موجودا في زمانه ، أما البروفسير عبد القادر سروري فذكر في كتابه «دنيائي افسـانه» (ج ٢) أي عـالم الرواية : أن أحداً من كتاب الرواية الأردية لم يصل إلى ما كان عليه نذير أحمد من حيث استقرائه للفطرة الإنسانية . وهكذا كان أهم عنصر في رواياته هو رسم الشخصيات ، وأوضح مثال على هذا يمكن مشاهدته في رسم صـورة ناطقة لكل من نصوح ، وكليم ، وفهميدة .

وأسماء شخصياته الروائية تمتاز أيضا بأنها أسماء رمزية ، تحمل معنى رمزيًا ، ونشير هنا إلى أن البروفسير افتخار أحمد صديقي في مقدمة الطبـعة الثانيـة التي صدرت في مايو ١٩٩٤م عن مجلس ترقي أدب بلاهور حلل شخصيات الرواية تحليلاً نقديًا مفصلاً[٧] .

تبقى قضية مهمة – يتعرض لها الأدباء في كل مكان – وهي قضية الاقتبـاس أو التـأثر ، فمثلمـا حـاول البـعـض في أدبنا العـربي مثـلاً

إرجاع أصول قصة زينب لمحمد حسين هيكل إلى الأدب الفرنسي ، قائلين بأن محمد حسين هيكل تأثر أثناء إقامته في فرنسا ببعض الروايات الفرنسية فصاغها بالعربية مع تغيير الخلفية إلى الريف المصرى ، ومن بين هؤلاء النقاد والباحثين ذكر الدكتور عبد الحميد إبراهيم فى كتابه "الرواية العربية والبحث عن جذور" ما يلى :

"رواية زينب ، التى يعتبرها النقاد رواية فى الأدب العربي الحديث .. توجهت نحو النموذج الغربى تستلهمه المضمون والشكل ، وكانت النتيجة أن قرية زينب تحولت إلى قرية من قرى سويسرا أو فرنسا ، وأن زينب نفسها أصبحت نسخة شبيهة ببطلات الروايات الغربية ... وتنتهى الرواية فى جو رومانسى حزين يقترب إلى جو الروايات الرومانتيكية التى كانت شائعة فى فرنسا فى ذلك الحين ، وخاصة رواية إسكندر ديماس غادة الكاميليا "(٨) .

وقد حدث الشيء نفسه فى الأدب الأردى ؛ ففى معرض البحث أو التساؤل : هل قلَّد نذير أحمد الروايات الإنجليزية الصادرة فى القرن التاسع عشر ؟ ذكر الدكتور محمد صادق – الذى ظل يبحث عن مصادر نذير أحمد الإنجليزية فى رواية توبة النصوح – أن الرواية ربما تكون مستوحاة من حكاية الرواية الإنجليزية The Family Instructor للمؤلفة دانييل دى فو ، وحجة الدكتور محمد صادق أن نذير أحمد كان على معرفة بأحد القساوسة الأوربيين الذى أهداه الرواية المذكورة إلا أن السير وليم ميور الحاكم السابق للمقاطعة الغربية فى الهند (حاليا يو بى) يذكر فى مقدمة الترجمة الإنجليزية لتوبة النصوح (يوليو ١٨٨٤م) بالحرف الواحد ما يلى :

"وهذه الرواية لابد أنها نتيجة ضرورية للتأثر بالأفكار الإنجليزية ، لكنها ليست أبداً مأخوذة من كتاب إنجليزى"(٩) .

توبة النصوح والجائزة الأولى :

تقدم نذير أحمد سنة ١٨٧٣م بهذا الكتاب - بناء على إعلان من الحكومة الإقليمية - للاشتراك في مسابقة عن التأليف ، وبناء على ترشيح المستر ميثيو كيمبسن مدير التعليم فى المقاطعات الغربية والشمالية فى الهند (تعرف اليوم باسم يو بى) اقترح منح الكتاب الجائزة الأولى وقدرها ألف روبية(١٠) ، وهذا ملخص ما ورد فى مذكرة التوصية بمنح الجائزة لرواية توبة النصوح :

"هذا كتاب لمؤلف رواية "مرآة العروس" نذير أحمد، وقد كتبه من أجل أن يهتم أهل هذه البلاد بتربية أطفالهم ، ويوضح المؤلف تأثير الوالدين على تربية أولادهما ، كما يوضح أن التربية الأسرية تدخل فى الواقع ضمن العبادات ، لكنه احتاط كثيرا حتى لا يسىء الناس فى هذا البلد فهم قصده ، فلكل أمة هنا - أى فى ربوع الهند - دينها وعقيدتها ، ومع هذا فالتربية الأسرية لا يمكن فصلها عن تعاليم الدين ، فما ذكره من الأمور الدينية هى أمور مستحبة لدى أهل الأديان الأخرى .. إن هذا الكتاب يستحق الثناء والشكر ، فقد أبدع نذير أحمد بتأليفه هذا الكتاب الذى تضمن نصائح صريحة أو ضمنية مفيدة جداً لأهل الهند .

والرواية مفيدة لأهل العلم ؛ لأنها تدور فى معظمها على الحوار ؛ وهو ما لا نراه كثيراً فى الكتابات الأردية ، كما أن اللغة تمتاز بالوضوح

وتسلسل العبارات ، كما أنها تضمنت مصطلحات لغوية وأمثالاً سائرة ، تجعل توبة النصوح أفضل من مرآة العروس وبنات النعش ..

وسوف يستفيد أهل الهند من هذه الرواية سواء كانوا من المسلمين أو من الهندوس أو من النصارى ، وإننى أرى أن المؤلف يستحق الجائزة الأولى ؛ أى ألف روبية .

نينى تال فى ١١ من سبتمبر ١٨٧٣م" .

اعتراضات على ترشيح توبة النصوح للجائزة

تلخصت الاعتراضات على ترشيح توبة النصوح للجائزة الأولى فى أن الكتاب لا تنطبق عليه شروط الجائزة ، وكان هناك شرط مفاده ألا يتناول الكتاب موضوعات دينية ، لكن المستر كيمبسن بعد مطالعته للكتاب مطالعة دقيقة ؛ اطمأن إلى أن المؤلف انتبه إلى هذا الشرط، فلم يدرج فى كتابه ما من شأنه إثارة العصبيات الدينية ، أو المساس بمشاعر من لا دين لهم ، وما ذكره من أمور تتعلق بالدين يمكن أن يستفيد منها أيضًا من لا علاقة لهم بالدين .

وقد أوضح السير وليم ميور فى مقدمته للترجمة الإنجليزية أنه يتفق مع رأى المستر كيمبسن فكتب الآتى :

"وأنا أتفق مع رأى المستر كيمبسن ، فهذا الكتاب لا يفيد المسلمين فقط ؛ بل سيستفيد منه القراء الهندوس والنصارى أيضًا ،

ويمكن للقارئ أن يلاحظ الحوار بين فهميدة زوج نصوح والابنة الصغيرة حميدة، فهو حوار فطرى طبيعى للغاية ومؤثر، وأى رجل - مهما كان دينه - لابد أن يتأثر إذا ما قرأ هذا الحوار .. وهذا الكتاب إضافة عظيمة للأدب الأردى ، وسوف يحقق شهرة وقبولاً ليس فقط بين الأمة المسلمة ، لكن أيضًا بين الأمم الأخرى فى الهند .. وهذا الكتاب مهم لأنه يعرِّفنا على القيم الطيبة فى الدين الإسلامى ، وعلى مبادئ الخير فيه ، وهو ينشر مثل هذه القيم ويدعو إلى نبذ الشر ..

وهذه الرواية لا مثيل لها فيما تناولته من أمور الدين ، فالكتاب فريد من نوعه ، ومختلف عن جميع مؤلفات المسلمين التى طالعتها ، فالكتب الدينية المنتشرة بين المسلمين هى - فى عمومها - من الكتب التقليدية ، تدور حول أمور الفرائض ، وموضوعاتها محدودة وقاصرة على العبادات ، أما موضوع الإفادة من تعاليم الدين كعنصر فعال ومؤثر فى الحياة الأسرية ، فهو موضوع لم يطرقه المؤلفون المسلمون من قبل ."

ومن الجدير بالذكر أن رواية نذير أحمد هذه - مثلها مثل جميع رواياته الأخرى - مرتبطة بالإصلاح الاجتماعى ، تتضمن فكرًا منطقيًا من نوع خاص ، وطبيعة تميل إلى الإصلاح ، فنذير أحمد - كما يذكر البروفسير وقار عظيم - استقرأ- بعمق - الحياة السياسة والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية للمجتمع ، وأظهر ارتباطًا عاطفيًا عميقًا بهذه الحياة ، ومن هنا رفع راية إصلاح هذا المجتمع ، مستعملاً التأليف الروائى ؛ ولهذا أوجد مكانة للرواية بين الناس ، ولعل هذا كان هو السبب الرئيسى فى صدور عدد كبير من الطبعات لهذه الرواية التى نقدِّم هنا ترجمتها العربية ؛ أى توبة "النصوح" أو "التوبة"(١١) .

الترجمة العربية .. لماذا ؟

يرجع اختيار هذه الرواية لتترجم إلى العربية إلى ما ذكر في السطور السابقة ، إضافة إلى أنها تقدِّم نموذجًا من الأدب الهندى الكلاسيكى ، وتقدم مادة علمية وأدبية للباحثين المتخصصين فى الدراسات الأدبية المقارنة ، فبالإضافة إلى أن الرواية تعد أول رواية أردية يلتزم فيها مؤلفها بالقواعد الفنية لكتابة الرواية باعتراف نقاد الأردية ، فإن أسلوبها يصلح لأن يكون مادة علمية تدرَّس لطلاب اللغة الأردية وأدبها ، سواء داخل الهند أو خارجها ، وقد انتبه المسئولون الإنجليز إلى هذه النقطة فى اختيارهم للكتب التى كانت تدرس للجنود الإنجليز القادمين إلى الهند، فنذير أحمد كتب روايته بأسلوب سهل ، كما أن عباراته بسيطة ، وهو يستعمل الألفاظ العربية والفارسية الرائجة دون تكلف ، كما يستعمل الألفاظ الهندية فى الحوار الداخلى ، وهي ألفاظ شائعة بين المسلمين والهندوس على حد سواء ؛ مما يجعل الرواية – كما ذكر مترجمها إلى الإنجليزية المستر كمبسن – مفيدة لطلاب العلم .

والحقيقة أن أهم خصائص أسلوب نذير أحمد البارزة هو اختياره للألفاظ الموزونة ، فهو حريص على التدقيق في اختيار الألفاظ ، بل يستفيد من التأثير الصوتى للألفاظ لإيضاح المعنى ، وقد يستخدم أحيانًا الألفاظ العامية المبتذلة للدلالة على مفهوم معين ، لكنه فى العموم يحرص على استخدام لغة أدبية شعرية .

ومن الناحية الفنية هناك - بلا شك - بعض المآخذ في رواية توبة النصوح ، إلا أنها - رغم ذلك - تمثل إبداعًا في المرحلة الأولى للرواية الأردية ، وتعد - حسب رأى معظم النقاد - أساس فن الرواية في الأدب الأردى .

وإذا وضعنا رواية توبة النصوح على محك النقد ؛ فيمكن أن نلاحظ أن المؤلف اتبع أسلوب السرد الروائى ، مستخدمًا في البداية ضمير المتكلم الذى يلغى المسافة بينه وبين القارئ ، لكن صوت الراوى يتجدد ابتداء من الفصل الثالث حين يدير الحوار على لسان الزوجة مع العودة مباشرة إلى ضمير المتكلم فالزوجة هنا هى التى تقوم بالسرد ، وهذا يدل على أن المؤلف يفضل أن يكون صوت الراوى هو ضمير المتكلم ، ونلاحظ أن الكاتب كان يلجأ أيضًا للوصف ، لكن هذا كان قليلاً ، وكان بهدف إظهار الأشياء ، ووضعها فى إطار معين لزيادة التأثير أو تبادله . والحقيقة أن الوصف كانت له أهمية خاصة في الرواية في القرن التاسع عشر الميلادى .

كان للحوار - كما أشرنا - دوره فى رواية توبة النصوح ، بل إنها تقوم أساسًا على الحوار ، ومن المعروف أن للمكوِّن الحوارى دوره الجوهرى فى إبداع الكلام ، وهو ملتئم ببناء الرواية العام ، وله قدرة متفردة على تشخيص الكلام المشحون بدلالات تنتهى إلى مجالات عديدة .

والرواية تحاول تصوير الحياة ، فنذير أحمد كان يعمل على تشغيل طاقته التخيلية ؛ ليجعل من روايته فنًا إبداعيًا يجذب القراء ؛ ومن هنا لجأ إلى تصوير الواقع من خلال البنية الحوارية متعددة الأصوات ، وإن أخذ عليه النقاد الإطالة أحيانا ؛ مما أثَّر على طبيعة الحوار من جهة ، وعلى تفكك الحبكة من جهة أخرى .

وعلى كل حال ، حاول نذير أحمد أن يبدع رواية مشابهة للواقع ، وكان هذا المفهوم نابعًا من طبيعة الوظيفة التى كانت تؤديها الرواية فى أى أدب عند نشأتها ، وبالنسبة لنذير أحمد فقد كان يركز على عناصر التشويق اللازم فى غياب وسائل التسلية ، وروايته توبة النصوح قامت على تطور منطقى أو إطرادى للأحداث المترتبة على بعضها البعض ، فحققت متعة متابعة القصة من نقطة إلى أخرى .

وتوبة النصوح رواية تسجل الواقع ، وموضوعها الذى قدمه نذير أحمد هو الذى يحتل المكان الأول من الاهتمام ، فالأحداث التى يصورها تشاهد كثيراً فى المجتمع الهندى إلى يومنا هذا .

حواش وتعليقات :

(١) داستان تاريخ اردو ، حامد حسن قادرى اردو اكيدمى سنده ط٢ (الأولى فى باكستان) ١٩٦٦م ص ٥٤١ .

(٢) الأدب الأردى الإسلامى ، سمير عبد الحميد إبراهيم ، جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ١٩٩١م ص ٤٢٦ وما بعدها .

(٣) داستان تاريخ اردو ، مصدر سابق ص ٥٤٩ - ٥٥٠ .

(٤) الأدب الأردى الإسلامى ، مصدر سابق ص ٤٢٠ .

(٥) داستان تاريخ اردو ، مصدر سابق ٥٦٨ .

(٦) انظر أدبى تخليق اور ناول (أى الإبداع الأدبى والرواية) أحسن فاروقى .... ١٠ وما بعدها ، وكتابه اردو ناول كى تنقيدى تاريخ (أى تاريخ نقد الرواية الأردية) الصفحات المتعلقة .

(٧) توبة النصوح ، مرتبه بروفس افتخار أحمد مجلس ترقى أدب لاهور ط ٢ مايو ١٩٩٤ ص ١٢ وما بعدها .

(٨) انظر : عبد الحميد إبراهيم «كتاب التأصيل ، الرواية العربية والبحث عن جذور» جماعة التأصيل ، ط أولى ١٩٩٨ م ص ٣٢ .

(٩) انظر : مقال الدكتور محمد صادق فى مجلة ماه نو الأردية ، عدد ديسمبر ١٩٥٤م .

(١٠) مذكرة رقم ٣٨ لعام ١٨٧٣م ، نشرت فى الجرنال الحكومى فيما بعد عام ١٨٧٤م .

(١١) وقار عظيم داستان سى افسانه تك ايجوكيشنل ملى هاوس عليكره ١٩٨٠ ص ٣٦ .

مقدمة المؤلف

وهب الله الإنسان نعمة الحواس ونعمة العقل والروح ، وأعطاه منصب الإيمان ليكون أشرف المخلوقات ، وهذا ينطبق على العبد الفقير، وميَّز الله أمة المصطفى حبيبه بالتقرب إليه بالعبادة ، وجعله جديراً بألطاف الشفاعة الكريمة والعواطف الرحيمة .

لو فكر الإنسان فى حالته تفكيرا صحيحا لما وجد فى الدنيا من هو أكثر منه عجزًا وأكثر منه ابتلاءً :

لو نظرت وأمعنت النظر لما وهبك الله

فلن تجد من هو أكثر منك عجزا وحاجة

فحياة الإنسان لا تزيد عن ستين أو سبعين سنة فى المتوسط ، فهذه مدة إقامته ووجوده على هذه الأرض ، وهو أيضا منذ البداية حتى النهاية معرَّض فى كل لحظة إلى الخطر ، وهو فى كل لحظة هدف للمصائب ، يضيع نصف عمره فى النوم والعجز والأعمال التافهة ؛ فيبقى له ثلاثون سنة أو خمسة وثلاثون ، منها مدة طفولته وشبابه وشيخوخته ، ومنها- على الأقل - عشر سنوات يقضيها فى مرحلة الطفولة وفى المرض ؛ والخلاصة أن مدة الحياة كلها تتراوح ما بين عشرين وخمسة وعشرين سنة .

لكن كم من الأعـمـال ، وكم من الضــروريات ، كم من القـضـايا والمسـائل أمـامـه : عبادة الله ، والبـحث في أمـور الدين ، وكسب المـال ، والتـفكير فـي الرزق ، وخدمـة الآباء ، وتربية الأبنـاء ، وعيـادة المرضى ، وزيارة الأحـبـاب ، والمشـاركة في الأفـراح ، والسـيـاحـة فـي البـلاد ، والمشاركة في إدارة شئون العباد ، والبكاء على المرضى ، وحضـور مآتم الموتى ، وأفـراح الموالد ، والسرور بلقـاء الأحبة ، ومـواجـهة المصـاعب ، وجلب المنافع ، ومـحـاسـبـة النفس على مـا فـات ، والتـخطـيط لما هو آت ، والفرح بلا سـبب ، وهوس الشـهرة ، والأسـف على الخسـارة ، والحسـرة على النقصـان ، وتلافي ما فات ، وتوقـع المستـقبل ومـا هـو آت ، والارتباط بالأصـدقـاء ، والاحـتـيـاط من الأعـداء ، وحفظ الكرامـة ، ومـجـاراة التقاليد والعادات ، والحفاظ على الأموال ، ونيل المكاسب :

"هل هذه حياة أو طوفان ؟

لقد يئسنا بين يدى هذه الحياة"

ففي هذا الوقت الضـيق ، حيث تكثر الأعمال ، فراغ القلب مفـقود ، واطمئنان الخاطر معدوم .

"التفكير في كسب العيش ، وذكر الله ، وتذكر من مضـوا

والحياة يومان ! فماذا عسـانا نفعل في هذه الحياة ؟ "

عقل واحد عليه مسئولية الدنيا كلها ، يا له من حمل ثقيل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ «سورة الأحزاب»

صدق الله العظيم

في هذا الكتاب بيان لواجب على الإنسان أن يقوم به ، وهو الواجب المعروف باسم " تربية الأولاد " ، وهدف الكتاب تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي انتشرت بين الناس ، والتأكيد على أن تربية الأولاد لا تعني إطعامهم حتى يكبروا ، فالإطعام والبحث عن الطعام ، ليس فنًا من الفنون يتعلمه الأولاد ؛ بل الواجب على الآباء تهذيب أخلاقهم ، وإصلاح طبائعهم ، وتصحيح عاداتهم وأفكارهم ومعتقداتهم ..

لكن كثيرًا من الناس غفلوا عن أداء هذا الواجب ، ونسوا القيام بهذا الفرض ، ولا يستطيع إنسان أن يؤدي واجب تربية الأولاد ما لم يجعل من نفسه نموذجًا طيبًا لهم ، وما لم يحاسب أولاده دائما ، فليس من المعقول أن يقدم الوالد لأبنائه مثالاً سيئًا من خلال شخصيته السيئة ، ثم يتوقع منهم بعد أن يكبروا أن يلتزموا بما جاء في كتب النصائح ، ويصبحوا بذلك أناسًا طيبين .

كما يلاحظ أن كثيرا من الناس يظهرون لأولادهم مشاعر الحب الشديد ، ومن ثم لا يقفون على عيوب أولادهم ، مصداقا للمثل القائل "حبك الشيء يعمي ويصم" ، وحتى لو وقفوا على عيوبهم فإنهم لا يعتبرونها عيوبًا ، بل يفسرونها على أنها من مقتضيات التدرج في عمر الأولاد أو نتيجة للذكاء أو يؤولونها تأويلات أخرى ؛ ومن ثم يتغاضون عن عيوب الأولاد ومساوئهم ، ويغضون الطرف عنها .

في هذا الكتاب اهتمام خاص بتنبيه الناس إلى الأخطاء التي ترتكب من هذا النوع ، ويؤكد الكتاب للناس بوضوح تام هذا الأمر ، وهو أن تربية الأولاد فرض مؤقت ، فالولد إذا كان صغيرا كان قابلا للتربية ، فإذا ما شب وكبر ؛ صار إصلاحه أمرا صعبا أو متعذرا بل محالاً .

وهدفي من وراء هذا الكتاب هو أن أثبت للناس أهمية الأخلاق ، وتعلم السلوك الحسن ، وحسن المعاشرة ، دون تخصيص ذلك على دين بعينه ، مع أن فصل الخير عن الدين أشبه بفصل الروح عن الجسد ، أو العبير عن الورد ، أو النور عن الشمس ، أو فصل الظفر عن اللحم ، فالالتزام بتعاليم الدين أمر ضروري .

وفي بلدنا هذا تتعدد الأديان وتكثر ، بحيث يمكن القول بأن كل إنسان له عقيدة خاصة ، وكل شخص يرى الأمور بعينه هو ، فبلاء التعصب قد حل بالناس ، لدرجة أنهم أحيانا قد لا ينظرون إلى ما قد يوجد في الأديان الأخرى من أمور طيبة ومن خير كثير ، وإذا ما طلب منهم ذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم .

والموضوع الذي كتبت عنه هذه القصة المفترضة " توبة النصوح " لا يخلو من روح الدين ، وكذا طريقة الحوار التي عرضتها لا تخلو من روح الدين ، ولا يمكن أن تخلو من روح الدين ، لكن لا يوجد داخل صفحات هذا الكتاب كله ما يسيء إلى أصحاب الديانات الأخرى ، فحيثما يأتي ذكر أمر ديني فهو يأتي بطريقة مقبولة لدى أهل الديانات الأخرى ، والفرق فقط يكون في المصطلح والعبادات ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، فالمسلمون يستعملون كلمة " نماز " للتعبير عن الصلاة ، بينما الهندوس يستخدمون كلمة "بوجا بات" ، والمسلمون يستخدمون كلمة "روزه" للتعبير عن الصوم ، والهندوس يستخدمون كلمة "برت" ، كما أن المسلمين يستخدمون كلمة " الزكاة " ، بينما يستخدم الهندوس كلمة "بن" وقس على هذا ، فإذا كانت هذه الرواية تحكي قصة أسرة مسلمة ، فبتغيير هذه الألفاظ يمكن للأسرة الهندوسية أن تستفيد منها أيضا .

إن الواجب الواقع على هذه الأسرة المذكورة فى هذه الرواية واجب يقع على الزوج وزوجته على حد سواء ، لهما ثلاثة أولاد ، وثلاث بنات ، بلغ سن الرشد من بينهم ولد وبنت، كلاهما تزوج وكوّن أسرة ، ولا شك أنهما اكتسبا عادات وخصالا رُسِّخت بداخلهما ؛ فصارت جزءا من طبيعتهما، والولد الأوسط رغم أنه لم يعد صغيرا فى العمر ، لكنه تعلم في المدرسة ، ويحتاج فقط إلى توجيه ، مثله مثل الحصان يمضى لا يحتاج لأن يتعلم المسير ، بل يحتاج إلى توجيه اللجام فقط ، ليمضى على الطريق الصحيح ، والابنة الوسطى صغيرة السن ، وهى فى عمر يكون فيه الطفل شديد الرغبة فى استكشاف الأمور ، ولديه حب استطلاع شديد ، وميل إلى التقليد ، فهى تسأل فى براءة أسئلة كثيرة ، كما تتحدث بسذاجة أحاديث تجعل أمها تضحك .

وأسلوب الحياة الذى فُرِض على هذه الأسرة كان نموذجًا صادقًا ونموذجًا طبيعيًا ، وهو نموذج فرض على كل أسرة فى ذلك الوقت، كانت تدعى أنها تعيش بأسلوب (أرستقراطى) شريف ، وبطريقة مهذبة . ورئيس البيت أو رب البيت واسمه نصوح ابتلى فى وباء الكوليرا ، وساءت حالته لدرجة أنه تأكد من أنه هالك لا محالة ، ولأن الوباء كان قد أخذ بتلابيبه منذ أيام ثلاثة من أهل البيت ، ولأن الموت حمى وطيسة فى المدينة فإن ما ظنه نصوح عن حالته كان أمرا عاديًا ، بل كان ضروريًا .

والطبيب الذى كان يعالج نصوحا أعطاه دواءً منوما ؛ فنام نصوح وبعدها تحولت أفكاره السابقة وأفكاره المستقبلية إلى حلم عجيب ،

والحلم الذى رآه نصوح هو "روح" هذه الرواية : الحشر وصحيفة الأعمال ، وعذاب حساب القبر ، وعذاب جهنم ، أى حالات يوم القيامة طبقا لما جاء فى تعاليم الإسلام .. وحين استيقظ تملكه الخوف والفزع ، ونهض ليجد نفسه يرتعد ويرتعش .

وسوف يظهر لقراء هذه الرواية الأثر الذى تركه الخوف والفزع على نصوح ، فقد اعتبر أن إصلاح نفسه بل إصلاح جميع أسرته فرض عليه وواجب ؛ وهكذا عقد نصوح عزمه مع زوجه على أن يصلح جميع أفراد أسرته ، وواجه مصاعب عديدة ومسائل كثيرة ، لكن لأن إرادته كانت قوية وعزيمته كانت صادقة ولأنه كان يمضى على طريق الحق ؛ لهذا انتصر ، لكن بصعوبة بالغة ، ونجح لكن بشق الأنفس ، فقد كان أولاده قد بلغوا عمرا يجعل قيادتهم بل توجيههم أمراً عسيراً .

إن تربية الأولاد - وهى الموضوع الذى تدور حوله هذه الرواية - هى أمر واجب بقدر استطاعة كل فرد من أفراد البشر ؛ لإيصال النفع للإنسانية عامة ، والتعاطف مع أفراد الجنس البشرى ، أما اللامبالاة والإهمال والغفلة وما شابه ذلك من أمور سيطرت على مواطنينا فى هذا البلد - الهند - فهى السبب الرئيسى فى انحطاط هذا البلد ، فالناس صاروا يجهلون مفهوم التعاطف ، لدرجة أنهم صاروا بحاجة إلى أن يتعلموه مثلهم مثل الأطفال ، وهذه الرواية بمثابة أوليات هذا التعليم ، وكما يقول المثل الإنجليزى " الخير يبدأ من البيت " ، لو أن إصلاح الأولاد والأسرة مسئولية واجبة للإنسان ، فمن الضرورى أن يكونوا مسئولين عن إصلاح هؤلاء الناس ذوى العلاقة والذين يخضعون لإشرافهم

وسلطتهم ، ثم الخدم والعمال ، وهكذا الأقرب فالأقرب أى الجار ثم أهل الحى ، ثم أهل المدينة ، ثم أهل الوطن والبلاد ، ثم أبناء الجنس البشرى .

"فبنوا آدم مثلهم مثل أعضاء الجسد الواحد

ذلك لأنهم خلقوا من جوهر واحد" .

والخلاصة أن التعاطف مضمون واسع ، لكن البداية الفعلية تكون بالجزء الأولى والضرورى فى هذا المضمون .

والله ولى التوفيق .

الفصل الأول

(فى إحدى السنوات تفشى وباء "الكوليرا" المهلك فى دهلى ، وأصيب نصوح بالكوليرا ، وظن أنه هالك لا محالة . وبينما هو فى حالة من اليأس الشديد ، تصور نفسه يحاسب بين يدى الله ، أعطاه الطبيب دواءً منومًا فغلبه النوم ، عندئذ بدت له أفكاره تلك رؤيا موحشة) .

* * *

مر عام على انتشار وباء الكوليرا المهلك فى مدينة دهلى ، وقد بلغ الوباء من الشدة بحيث كان يخرج من زقاق " الحكيم بقاء " الصغير ما يقرب من ثلاثين أو أربعين جنازة كل يوم . لم يكن بالمدينة من سوق عامرة إلا سوق الموت ، فحيثما ذهبت لا تجد سوى الخراب الرهيب ، والسكوت المهيب ، وحيثما نظرت لا تجد سوى الوحشة والخوف ، وتلك الأسواق التى كانت عامرة حتى منتصف الليل ، صارت خربة مهجورة ، لدرجة أن الناس كانوا يخافون الذهاب إليها فى وضح النهار . لم تعد نداءات السقا الذين يحملون الماء البارد ، أو أصوات "الصاجات" بين أصابعهم تسمع ، كما اختفت نداءات الباعة وأغنياتهم ، وتلاشت أصوات المشترين ونقاشهم مع الباعة ، ولم تعد هناك اجتماعات أو لقاءات بينما خلت الشوارع والطرقات ، وامتنع الناس عن عيادة المرضى وزيارة الأصدقاء ، بل تلاشت مظاهر الكرم وحسن الضيافة ، وما اشتهرت

به المدينة من قيافة ، فكل إنسان فيها كان مبليا بحالته ، وأسيرا لمصيبته، يائسا من الحياة ، فلم تكن حال الحي منهم بأفضل من الميت ، لم تكن في القلوب همة ، كما لم تكن في الأرجل قدرة على الحركة ، وهكذا كان البعض يبقى راقدا في بيته دون حراك ، بينما البعض الآخر يقوم على رعاية مريض له ، أو ينخرط في البكاء ، بعد أن يتذكر وفاة صديق أو قريب أو أحد معارفه .

والحقيقة كان الموت المفاجئ دون سواه هو سمة لموت هذه الأيام ، فالإنسان يمشي صحيح الجسم ، لا تظن أبدا أن به عارضا ما ، وفجأة تسوء حالته ، يصاب في البداية بالقيء ، ثم تختل بعد ذلك جميع حواسه الخمس إلا ما شاء الله فقد ينجو البعض، وإلا فالقلب يتوقف . ويحل القضاء المبرم ، بحيث لا توجد فرصة حتى لكتابة الوصية . فالأمر كله ما بين فحصه ، وإعطائه الدواء ، أو الدعاء له بالشفاء ، ثم خروج السر الإلهي ، لا يستغرق إلا ساعة زادت قليلا أو نقصت .

وخلاصة القول إن حالة الوباء هذه وصلت إلى درجة أن جميع البيوت دون استثناء كانت تشهد مآتم مستمرة على وفاة بعض من أفرادها ، واستمرت هذه المصيبة تضرب المدينة لأكثر من شهرين ، حتى انخفض تعداد سكان المدينة في هذه الأيام إلى النصف ، فترملت مئات النساء ، وتيتم آلاف الأطفال ، فإذا سألت أحداً عن حاله ؛ لم تسمع منه سوى الشكوى ، وإذا ما استمعت إلى أحد ؛ لم تسمع منه سوى البكاء ، لكن " نصوحا " الذي نحكي قصته هنا كان هو الإنسان الوحيد بين هؤلاء الناس الذي لا يشكو ، فقد كان شاكرا لله ، وبينما كانت الدنيا تبكي وتولول ، كان هو الوحيد الذي يحمد الله على كل شيء .

ولم يكن السبب فى ذلك لأنه نجا من هذه المصيبة ، ولم تصبه هذه الآفة ، فقد اختطف الوباء من بيته ثلاثة أشخاص فى وقت واحد ، كان كل من بالبيت فى حالة طيبة ، ناموا جميعا الليل بطوله ثم استيقظوا . استعد نصوح لصلاة الفجر ، بينما كان الأب والابن يتوضآن ، ويسوكان أسنانهما بالمسواك ، ولم يكد نصوح ينوى للصلاة ركعتي الفرض ، ويسلم منتهيا من صلاته حتي وجد أباه قد انتقل إلى الرفيق الأعلى .. ولم يكد يعود إلى البيت بعد أن وارى جثمانه الثرى ، حتى وجد إحدى خالاته قد ماتت ، وفى اليوم الثالث ماتت خادمة البيت ، لكن حالة الشكر التى سيطرت على "نصوح" كان لها سبب آخر . وطبقًا لمقولته : فالسبب يرجع إلى أن طبائع الناس قد عادت هذه الأيام إلى الصلاح ، وطرأت على قلوب الناس حالة من الرقة والانكسار يصعب أن تطرأ على القلوب حتي لو حاول أصحابها ذلك عن طريق الرياضة التعبدية طوال عمرهم ، وانقشعت سحب الغفلة التى رانت على القلوب ، فنشط كل إنسان فى أداء واجباته الدينية ، والناس الذين لم يكونوا حتى يقربون الصلاة فى شهر رمضان ، هم أيضا التزموا بأداء الصلوات الخمس بل كانوا أول من يحضر إلى المسجد لأدائها ، ومن لم ينسوا - ولو مرة واحدة - أن يسجدوا لله سجدة واحدة ، لم يفتهم حتى أداء صلاة الضحى وصلاة التهجد ، وشعروا من صميم قلوبهم بأن الدنيا دار فناء ، وأن متاعها زائل لا محالة ، وامتلأت أفئدتهم بنور المحبة والمودة والسلام . وخلاصة القول إن الحياة فى تلك الأيام كانت نموذجًا طيبًا لحياة الطهر ، تلك الحياة المقدسة ، التى لا تشوبها شائبة ، وهى الحياة التى يدعو إليها الدين الحنيف .

كان نصوح يحمل في صدره قلبا أخضر ، حين سمع في البداية عن ازدياد شدة الوباء الذي لا يُسمى ! اعتراه الوجل والخوف ، واصفر وجهه ، فاتخذ جميع التدابير والاحتياطات اللازمة لوقف انتقال عدوى الوباء ؛ فجدد مستلزمات بيته تمامًا ، وأكد على جيرانه وجيران جيرانه بضرورة الالتزام بالنظافة وأخذ الحيطة ، كما قام بإطلاق الأبخرة في كل ركن من أركان البيت ، كما وضع الكافور في طاقات جدران البيت ، وفي أماكن مختلفة من غرف البيت وضع قطع الفحم ، وطلب من الطباخ أن يزيد الملح في الطعام باستمرار ، وأن يحضر البصل والخل على طاولة الطعام دائما ، ثم أحضر ماء الورد ، والنارجيل ، والتمر هندي ، واليانسون وشراب الليمون وغيرها مما يستخدم في الأدوية التي تستخدم في الطب اليوناني لمواجهة هذا الوباء ، فلا يحتاج - لا قدر الله - أن يظل يبحث عن شيء منها إذا ما دعت الضرورة لذلك .

ووصل من حرص نصوح أن وفر في بيته الأدوية الإنجليزية أيضا ؛ فاشترى حبوب الكوليرا ، كما أرسل مبلغا من المال إلى المكتب الطبي في إله آباد للحصول على مصل الكوليرا Cholera Tincture ، كما اشترى زجاجتين من دواء الكلورودين Chlorodyne عن طريق أحد أصدقائه في مدينة آكرا ، وكان قد قرأ خبرا في إحدى الصحف مفاده أن حكيمًا بنغاليا في بنارس يقوم بعلاج هذا المرض ، وكانت الحكومة قد وعدته بمكافأة قدرها عشرة آلاف روبية كما يدعي ، فكتب إليه نصوح رسالة طالبًا منه هذا الدواء ، وكان من أسباب اطمئنانه أيضًا أن طبيبًا حاذقا يقيم بجوار بيته .

ورغم جميع الاحتياطات وجميع الاستعدادات التى بذلها نصوح لمواجهة مرض الكوليرا إلا أن بيته لم يكن بمنأى عن أنظار ملك الموت ، فلما جاء أجل الأب، ظل الدواء كما هو دون أن يمس ؛ إذ بدأ الوالد يعانى سكرات الموت قبل أن يبدءوا فى إعطائه الدواء ، أما الخالة فقد تماسكت قليلاً ، لكنها كانت قد تعبت من الحياة وانتقلت إلى العالم الآخر دون أن يكون لها نصيب من الدواء ، أما خادمة البيت فقد تناولت جميع أنواع الأدوية : الإنجليزية واليونانية ، لكن أجلها كان قد انتهى .

كان نصوح في البداية مطمئنا لما اتخذه من تدابير واحتياطات ، لكن حين اشتد الوباء ، وحصد الموت ثلث أسرته ، فاختطف ثلاثة مرة واحدة ، قبع المسكين فى بيته صابراً راضياً بما قسمه الله له .

والحاصل أن المدينة كلها تعرضت للمصائب والمحن ، فلم يعد يعرف كم من البيوت تعرضت للخراب ، وكم من الأسر أفناها الدمار ، ووصل الأمر إلى حد أن نواب عمدة الملك أصيب بالكوليرا ، وحين طلع النهار وخلال ساعتين أو ثلاث شاع هذا الخبر في المدينة . وهكذا شوهدت جنازته فى صحن المسجد الجامع فى دهلى بعد صلاة الجمعة ، ورغم أن آلاف الناس ماتوا فى المدينة ، لكن موت عمدة الملك كان له تأثير كبير فى قلوب الناس جميعًا ؛ ذلك لأنه لم يكن له مثيل فى المدينة بين الأشراف وأعيان القوم ، والسبب الثانى أن الفقراء كان يصيبهم منه نفع كثير ؛ وهكذا كان موته بالنسبة لهم موت عزيز قضى نحبه فى بيتهم . لكن الناس أيضًا كانوا يقولون بأن الله سوف يمنع عنهم الوباء ؛ لأن العامة يعتقدون بأن الوباء لن يخف أو ينتهي دون أن يحصد ضمن من يحصدهم أحد الرؤساء الكبار أو أحد الأعيان ..

وعلى كل حال ، فما يعتقده الناس من أن الوباء سوف ينتهى بموت أحد الكبار، جعل الأمور تهدأ ، وبدأ الأمن يستتب ، وشعر الناس بالأمان ، فأخذوا يفتحون محلاتهم ودكاكينهم ، وبدأت حركة البيع والشراء تعود إلى سيرتها الأولى من جديد .

فى تلك الأيام قال نصوح لزوجته :

– نحن لم نتذوق طعم الأرز منذ شهرين ، بالله عليك اطبخى لنا أرزا مفلفا بالزعفران ، لكن عليك أن تتأكدى من طهى الأرز جيداً .

وفى المساء طبخت الزوجة الأرز ، وتناوله جميع أهل البيت ، الصغير والكبير ، ثم ناموا كما جرت العادة . فتح نصوح عينيه فجأة فى الثلث الأخير من الليل ، واستيقظ وهو يشعر بحرقان شديد كأن ناراً اشتعلت فى معدته ، فظل ينهض من الفراش ، وهو يشعر بالغثيان مرة بعد الأخرى ، ثم خرج مسرعا من صحن البيت وهو يرتعد ، ثم ربط كلتا ساعديه بقوة ، ووضع فى حلقه قطعة من القماش الأسود ، كما وضع على أنفه قطنا مبللا بالعطر ، وحاول أن يفكر فى شىء آخر غير الوباء ، لكن يبدو أن حلقه كان ممتلئا بشىء ما ، فحاول أن يضغط على نفسه ، وحاول أن يضبط نفسه ، لكن فى النهاية ، انطلق القىء من حلقه بقوة شديدة ..

استيقظ أهل البيت جميعهم ، وأصيبوا بالذعر الشديد بعد أن شاهدوه على هذه الحال ؛ فأسرع بعضهم يأتى بالماء ، بينما الآخر يحضر الإناء، والثالث جاء بالحبهان مع بعض البهارات الأخرى ،

ووقف بجواره ، بينما كان هناك من يُهوّى عليه بالمروحة، وهكذا حملوه ، وأرقدوه على الفراش ، ثم بدأوا جميعا فى تقديم اقتراحاتهم ، فقال أحدهم : ما حدث خير، فقد خرج الطعام الفاسد من جوفه ، وقال آخر : إن الأرز المفلفل بالزعفران طبخ بسمن فاسد ، وبدأ ثالث يقول : إنه بسبب فساد حلوى المهلبية .

والخلاصة أنهم اتفقوا على أن ما به لا علاقة له بوباء الكوليرا ، فليعطوه إذن ماء الورد وعرق الشمر ، وَلا داعى للقلق ، فسوف يتحسن فى الصباح .

على كل حال ، كان هذا شأن المطببين المعالجين ، أما نصوح فرغم أنه كان منهك القوى بسبب التعب ، إلا أن ذهنه وحواسه كانت بفضل الله على ما يرام ، فكان يسمع اقتراحات الجميع وآراءهم ، ويشرب الدواء الذى يقدمونه إليه ، لكنه كان قد قال لهم وهو يتقيأ : آه .. استودعكم الله .. ها أنا أيضا أودع الحياة ! لقد شعرت بالاستفراغ أكثر من مرة لكنى حاولت التماسك ، لكنى شعرت بقلبى يضطرب ، وبأن يدىّ ترتعدان ..

بعد أن قال نصوح هذه العبارة انقلب إلى الناحية الأخرى ، وظنوا أنه ودع الحياة .

فى الصباح ظهرت جميع أعراض المرض : البرد أصاب جميع أطرافه ، ثم سيطرت عليه حالة من التشنج ، والضعف ، والهزال ، والغثيان ، والإسهال ، والعطش ، وكل هذه الأعراض والعلامات ظهرت عليه بشدة ؛ فانطلقوا إلى جارهم الحكيم ، وكان الحكيم بنفسه ذا طبيعة

حساسة ، يهرب من اسم الكوليرا لو سمع به من على بعد أميال ، لكن للجار حقًا ، بالإضافة إلى الروابط الوثيقة بينه وبين نصوح ، ولهذا جاء إليه طوعا وكرها ، لكنه بمجرد أن خلع نعليه ، عاد ووضعهما فى قدميه بعد أن تطلع إلى المريض ، الذى لم تكن لديه قدرة على الكلام أو التحدث ، لكنه - على كل حال - موجود ، راقد على الفراش ، بينما النساء من حوله ، يرتدين الحجاب ، وهن في حالة من الهلع والحيرة ، ووسط هذا الجو نطق الحكيم بعبارة مختصرة وعاد من حيث جاء :

- ضعوا النارجيل النيلى فى ماء بارد ، واسقوه الماء ..

وانطلق الحكيم عائدا ..

لكن كيف لمن التفوا حوله أن يطمئنوا لمثل هذا التشخيص السريع، ومثل هذا الاقتراح البسيط ، وعلى الفور هرع أحدهم إلى المستشفى ، وعاد بالطبيب فى سرعة البرق ، فقام الطبيب بإعطائه أربع جرعات من الدواء ، واحدة فوق ، وأخرى تحت !! وهكذا . وقبل أن يرجع أعطاهم "دواء شرب" حتى يسقوا منه المريض كل ربع ساعة ، ونصحهم بأن يحملوه إلى مكان منعزل ، وألا يقترب منه أحد البتة ، حتى يستغرق فى النوم ، فإن نام نجا بإذن الله من المرض ، وقال لهم : عليكم إطلاعى على الفور بالنتيجة .

وطبقًا لأوامر الطبيب حملوا نصوحا إلى ساحة البيت ، حيث أرقدوه وحيدا ، وابتعد الناس عنه ، تفرقوا هنا وهناك ، لكنهم كانوا يأتون عنده يمشون على أطراف أصابعهم ليشاهدوا حالته ، أما ما كان

عليه فؤاد نصوح فكان عبرة ، فرغم شدة المرض لكن شعوره وحواسه كانت على ما يرام ، وهكذا غرق فى التفكير ، بينما ظن الناس أنه مغشى عليه ، فاقد الوعى .

كان نصوح من البداية يتجنب تمامًا تصور فكرة أن يموت الآن ، ولم يكن يريد أن يعتبر جسده قد مات ، ولهذا كان – من قرارة قلبه – يستحسن رأى أولئك الناس الذين أرجعوا مرضه إلى سوء الهضم وامتلاء المعدة ، لكن هذا السرور لم يستمر معه طويلاً ، فقد ساءت حالته بالتدريج، لدرجة أنه فقد أضعف الاحتمالات فى البقاء على قيد الحياة ، وفى النهاية اضطر كرها وطوعا إلى أن يدرك بأنه ضيف لساعات قليلة فى هذا الدنيا . ومع الإذعان للموت ؛ أصيب بالقلق لأنه كان سيفارق هذه الدنيا ، لقد كان يعرف أن الموت سفر لا نهاية له ، وأنه انفصال لا وصال بعده ، وأنه ضياع لا لقاء فيه ، وأنه غش لا إفاقة منه ، وأنه غربة ليس وراءها شيء .. كان أحيانا ينظر إلى زوجته وأولاده فيبكى ، وأحيانا ينظر إلى متاع الدنيا فيهز رأسه ويردد قول الشاعر :

"يا للأسف فها هى صحبة الحبيب ستنتهى فى طرفة عين

لم نكد نتمتع برؤية الورد فى الحديقة حتى انتهى الربيع"

وكلما أمعن النظر من حوله؛ شعر بأن موته هذا جاء فى غير أوانه، كان كلما نظر إلى زوجته يفكر : لماذا تترمل امرأة فى مثل عمرها؟ فليس لها فى بيت حميها من يكفلها ، وليس من بين أبنائه من يستطيع أن يتولى شئون البيت ، وكل ما ادخره فى بيته لا يمثل شيئًا يذكر ،

فإلى متى يا ترى يكفيهم ، وعندهم بنتان على أبواب الزواج ، أبوهما فقير معدم ، ثم أمر تربية بقية الأولاد ، فلا أظن أنه سيكون لهم أى مورد يتعيشون منه ، ماذا سيحدث ، وكيف يمكن تحمل عبء الأيام الشديد؟ إنه عبء كالجبل ! الولد الأكبر كأنه قد خرج من طوعه قبلا ، أما الولد الأوسط فقد نجح فى امتحان الشهادة المتوسطة ، كان أملى أن يصير شيئًا ما ، لكن يبدو أن جميع خططى فى سبيلها إلى الفشل ، كيف سيتعلم ؟وأى امتحان سيدخل وعيناى مغلقتان ، كيف يمكننى أن أتحمل واجباتى تجاه ابنتىّ ؟ وأية مصيبة ستحل بالبنت الكبرى ؟ وإذا كانت هناك صعوبة فى أداء الواجبات الخاصة بها وأنا على قيد الحياة ، فماذا سيحدث للطفلتين ؟

كنت قد حصلت على قطعة أرض فى القرية بعد أن فكرت فى الاستفادة من ريعها ونفعها ، لكن ملاكها السابقين لا يسمحون لى حتى الآن باستغلالها كلية . وكنت قد قمت بزراعة بعض الحبوب فيها ، لكنى فقدت كل شيء ، وضاع المبلغ الذى صرفته على الأرض ، وأعيش فى بيت ضيق جدا ، يجعلنى أشعر بالخجل كلما زارنى ضيف . كنت قد عقدت العزم على بناء بيت أوسع ، وأرسلت مبلغا من المال لشراء الخشب اللازم للبناء من منطقة " ديره دون " الواقعة فى منطقة يوپى الجبلية بالقرب من " مسورى " ! فلم يصلنى أى شيء حتى الآن ، ودفعت مقدم شراء الطوب ، لكن شيئا من هذا لم يتم ، فللأسف لن يمهلنى الموت.

ثم ماذا عن معاملاتى مع الناس ، ما أخذته منهم ، وما عليهم لى ؟ لو حاولت أن أشرح كل هذه الأمور لاحتجت لشهور ، لكن الأجل قريب منى ،

ليتني أبقى على قيد الحياة عشر سنوات أو أكثر قليلاً حتى أضبط كل هذه الأمور طبقا لما كنت أرغب ، وحتى يشب عود الأولاد ، ويتمكنوا من كسب رزقهم ، وأتمكن من تزويج البنات ، وأسوى أمورى فى القرية ، وأعيد بناء بيتى بطريقة مناسبة ، وأسوى حساباتى مع الناس ، ثم أجمع مدخرات كافية لزوجتى ، بعدها أموت ..

هل كنت – معاذ الله – منكرا للموت ؟! أو متعللا بعذر للهروب منه ؟! أو أننى لا أفهم هذه الحقيقة الواضحة ، وهى أن الإنسان يولد فى هذه الدنيا ليموت .. لكن لكل شيء وقت مناسب ، فأى موت هذا الذى يخطفنى بينما كل عمل قمت به لم يكتمل بعد ، وكل أمر بدأته لم يتم ؟ إن هذا الموت المفاجئ لا يتسبب فى إيذائى وحدى ، لكنه يؤذى جميع أهلى وأقاربى وخلانى .

كان نصوح فى الظاهر يبدو كمن يعيش حياة متحررة طليقة تتصف باللامبالاة ، فلم يكن من طبعه البقاء فى البيت طول الوقت ، كما لم يكن من عادته أن يجلس مع أبنائه ويتحدث معهم ، ولم يكن يتدخل فى أمور البيت إلا إذا اضطرته زوجته لذلك ، وأصرت ، عندها فقط يشاركها المشورة على قدر طلبها ، فلم يكن يهتم بشىء ، وكان هذا هو السبب الذى يجعله كلما سمع – بالصدفة – أن فلانا فارق الحياة بعد مرض شديد ، يتعجب ويقول : هذا شأن الله فى خلقه ، أن يوجد مثل هؤلاء الناس الذين لا يرغبون فى الخروج من هذه الدنيا ، لا أدرى ماذا فى هذه الدنيا جعلهم يعشقونها إلى هذا الحد ؟ وإلا – فأستغفر الله – هل تليق "دار المحن" هذه ليعيش فيها الإنسان ، مئات من المشاجرات ،

وألوف المشاحنات والمشاكسات ، والنزاعات اليومية المتتالية ، والمصائب التى تحط بعد يوم وآخر ؟ حقا إن ما قدّره الله لا يخلو من الحكمة وصالح عباده، من الطبيعى أن يخاف الناس الموت ، تمامًا مثلما يخاف المجرم من تنفيذ العقوبة ، لكن لو فكروا بعمق ؛ لعرفوا أن الموت نعمة عظيمة .

إن طبيعة الإنسان تميل إلى الجدة ، فلو عاش على حال واحدة لسنوات عديدة ، مهما كانت هذه الحال تتسم بالترف والدعة ، فإنه يملها دونما سبب ، كما ملّ أصحاب موسى (عليه السلام) أكل حلوى المن والسلوى اللذيذة ، واشتاقوا لأكل الثوم والبصل .

فلو لم يوجد الموت فى هذه الدنيا ؛ لبحث عنه الناس فألقوا بأنفسهم في الآبار ، أو انتحروا من فوق الأشجار ، ولاعتبروا الحياة الطويلة عذابًا مقيمًا ، إن قلبى يجعلنى أشعر بعدم المبالاة من مغادرة هذه الدنيا ، كما أنه لا يوجد فيها ما يجعلنى أشعر بالقلق من فراقها .

لكن هناك فرقًا كبيراً بين الواقع والافتراض ، وكان هذا مكراً أو خبثًا بداخله ، فهو يعتبر نفسه منقطعًا عن أمور الدنيا ، وأنه لا يحتاج فى حياته لأحد ممن هم حوله ، لدرجة أنه كان حين يرى الموت يدق باب الآخرين فيظهر الشجاعة ، لكن حين دق الموت بابه ؛ كان أكثر الناس خوفا وهلعا . كان فى الواقع لا يدرى شيئًا عن صلاته وعلاقاته ، فحين واجه الموت ورآه رأى العين ، ظهرت أمامه الحقيقة ؛ فها هو ولع بزوجته وأولاده ، محب لمال الدنيا ومتاعها ، كان أمامه سفر طويل ، وعند أول محطة ، ثقلت قدماه ، كأنها تحمل آلاف الأطنان ، ودق جرس محطة القطار ،

بينما هو لا يزال خارج المحطة يلملم متاعه ، ويجمع حاجاته . ماذا - لا قدر الله - لو خرجت روحه إلى بارئها وهو فى هذه الحال ، وروحه مذبذبة مترددة بين علائق الدنيا ومتاعها ، لابد أنه سيكون من الذين خسروا الدنيا والآخرة ، فلم ينل حظا هنا ، ولم ينل حظا هناك .

لكن الله منّ عليه بفضله ، فقد أوجد اليأس بداخله همة ، ففكر فى نفسه وخطابها بقوله :

- لا مفر من الموت .. على أن أتقدم إلى الأمام لمواجهته ، فماذا يفيد القلق والاضطراب ، إن كنت سأموت فليكن موتى فى شجاعة دون خوف أو هلع .

ولم تكد هذه الفكرة ترد على ذهنه حتى هان عليه كل ما فى هذه الدنيا ، فلم تعد هناك قيمة لأى شيء يراه أمامه ، كان ذلك حين قدم له الطبيب الدواء ، وجعله يرقد وحيدا ، جعلته حالة الاستغناء عن كل ما فى الدنيا مطمئن الخاطر ، قرير العين ، بينما غلب عليه التعب والإعياء من شدة المرض ، وبدأ تأثير الدواء المنوم عليه ، وانصرف عنه الممرضون وهجوم الزائرين، وهكذا غلبه النعاس .

لم يكد نصوح يغلق عينيه حتى راح فى عالم آخر ، وبدأت الأفكار التى كانت بداخله منذ قليل تتراءى أمامه ، تملأ دماغه ، وأحالت مخيلته جميع تلك الأفكار السابقة إلى شكل جديد ، ماذا يرى ؟ إنه داخل مبنى ضخم عظيم ، ولما كان نصوح قد عمل من قبل مأمورا قضائيا ، فقد تصور هذا المبنى دار القضاء العالى أو محكمة ، لكن رغم كونه مأموراً

قضائيا له مكانته إلا أن آلاف الناس قد تجمهروا ، لكنهم جميعا صامتون لا ينبس أحدهم بحرف ، بل يجلس في عالم من السكوت والصمت ، كأن لسانه ليس في فيه ، وكان من يضطر منهم إلى الكلام ، يتكلم همسا ، لدرجة أن الأذن لا تسمع ما يهمس به ، في مثل هذه المحكمة الضخمة لم ير محاميًا أو وكيل نيابة في أى ركن منها ، أما موظفو المحكمة فكانوا يقفون، يلفهم الخوف من رؤسائهم ، بحيث لم يجرؤ أحد ممن لهم معاملة أو قضية من الاقتراب منهم . والخلاصة أن أحدا لم يكن يجرؤ أن يسلك مسلكا غير قانوني : بتقديم رشوة مالية أو وساطة شخصية ؛ فالعدل والإنصاف جعل هيبة الحاكم (القاضي) تسيطر على الجميع : الكبير والصغير ، الأدنى والأعلى ، لكن أي مجرم - مهما كان جرمه - لا يشعر باليأس من عطفه ، فسلطاته واسعة ، ولا يمكن لأحد أن يستأنف الحكم بعد صدوره ، كما أن العمل يمضي على أحسن وجه ، ويتم الانتهاء من كل قضية في اليوم نفسه رغم كثرة القضايا ، وهذا لا يعني أن الحكم يصدر دون دراسة القضية بإمعان ، لكنه يصدر بعد دراسة ظروف القضية وملابساتها ، ولا يصدر الحكم على المذنب إلا بعد إقراره بذنبه واعترافه بجرمه ، وباختصار فإن كل اقتراح يكون على وجهة صحيحة ، وكل قرار يكون قائما على الدليل ، وكل رأى يكون حتميا ، فيقال للأبيض أبيض وللأسود أسود ، كما يراعى في الشهود أن يكونوا شهود عدل وصدق وثقة، بل يكونوا على علم بظروف القضية، وأن يكونوا شهود عيان ، بل على معرفة بالمجرم وأحواله ، ليكونوا على علم بأسراره .

ثم مـاذا يرى ؟! يرى كـل مـجـرم قـد أعطى سـجله يطالعـه ، ويقـرأ التهمـة الموجهـة إليـه حتى يفكـر فى طـرق تـبرئة نفسه مما نسب إليـه .

وتحركت مخيلة نصوح من المحكمة إلى الحجز ، فرأى كل شخص محبوسًا حبسًا انفراديًا ، كما كان وضع كل منهم فى الحجز طبقًا لما ارتكب من جرم ، أما السجن فهو بجوار الحجز ، وهو أذى كبير ، فيه الأشغال الشاقة، وفيه البلاء الشديد الذى يجعل من بداخله يتمنى الشنق ؛ حتى يخلص من عذاب السجن . ولم يكد نصوح يرى هذا المكان الرهيب حتى عاد أدراجه، وحين خرج وجد نفسه بين المحجوزين وبين المحبوسين حبسًا احتياطيًا ، رأى من بينهم الآلاف ممن لا يعرفهم ، كانوا غرباء عليـه ، لكنه رأى أيضـا بعض أهل مـدينتـه ، بل بعض أهل الحى الذى يقطن فيه ، لكن ممن ماتوا !!

كان نصـوح يشاهد هذا الوضع فى منامه فتصيبه الحيرة ، ويتساءل :

– يا إلهى ، أية مدينة هذه؟!

– أية محكمة هذه ؟ أين تم القبض على هـؤلاء المجرمين ؟.. وأهل بلدى ، بأى ذنب أخـذوا هنا ؟ وكـيف مـاتوا وأنا أراهم هنا ينتظرون المحاكمة ؟!

وبينمـا يتطلع إلى هؤلاء الناس فى حيـرة وتعـجب ، إذا به يرى والده المحترم جالسًا بين المحجوزين ، ظن فى البداية أن ما يراه مجرد خداع

النظر ، لكنه حدق فيه ، وعرف أنه هو ، والده بلا شك ، فجرى نحوه وانحنى قائلاً :

– يا أبت ! لقد خسرنا كل شيء بعد فراقك .. أين أنت ؟

فقال الوالد :

– أنا مطلوب للرد على ما ارتكبت من ذنوب، إن ما تراه هنا هو دار الجزاء ، والله تعالى – جل وعلى شأنه – هو القاضى الذى يصدر الأحكام فى هذه المحكمة .

فقال الابن :

– يا أبت ! لقد كنت تقيًا ، بارًا ، عابدا لله ، حسن السيرة ، كيف تُتهم بارتكاب الذنوب أيضًا ؟!

فرد الوالد :

– ليس ذنبًا واحداً أو اثنين بل هى بالمئات والألوف ، انظر إلى صفحة أعمالى كم هى مخزية مخجلة !! يصيبنى القلق والفزع كلما تطلعت إليها ، أفكر كيف أجيب عليها ، وكيف أبرئ نفسى منها ؟

كانت بيده نفس الصحيفة التى رآها نصوح فى يد الآخرين ، وسوف يكون الحساب طبقا لما ورد فيها ، متضمنا ما ارتكبه حاملها من ذنوب فى دنياه، وحين نظر إلى صحيفة أبيه ارتعد وفزع .. الشرك ، والكفر ، والعصيان ، الجحود ونكران نعم الله ، والخيانة ، والكبر ، والتجبر، والكذب ، والغيبة ، والطمع ، والحسد ، وإيذاء الناس ، والنفاق ، والرياء ، وحب الدنيا ، لم يكن هناك جرم لم يكتب فى هذه الصحيفة .

ولما كان صدى الأفكار الدنيوية لا يزال يرن فى دماغ نصوح ، لهذا ظل يبحث فى صحيفة أعمال والده عن التهم الواردة فى " مجموعة قانون العقوبات الهندى"، ويقارن بينها وبين آيات القرآن الكريم وسوره ، ثم سأل أباه متعجبًا :

- يا أبت ! هل ارتكبت كل هذه الجرائم ؟

فرد الأب :

- كلها !

فقال الابن :

- هل اعترفت بذلك أمام الحاكم ؟

فرد الوالد :

- لا مجال للإنكار ، فهناك شهود كثيرون ، ولا ينفعنى الطعن فى التهم الموجهة لى .

فسأل الابن أباه :

- من هم أولئك الناس الذين كانوا على استعداد لمواجهتك ؟

فرد الوالد :

- فى مقدمتهم الاثنان " الكرام الكاتبين" اللذان لا يخفى عليهما خافية من أعمالى ، لقد سجلا فى صحيفة حياتى كل شىء بدقة وتفصيل ، وحين طالعتها ؛ وجدت كل حرف فيها صحيحا ، ثم يأتى بعد ذلك

أعضاء جسمي : يداى ، رجلاى ، عيناى ، أذناى ، كلها ضدي ، تخلت عني ، وكلها عارضتني ، واستعدت لإذلالي .

فسأل الابن أباه مرة أخرى :

– لكن .. ألا تفهم سببا لذلك ؟

– لقد فهمت خطأ أنها جميعها ستكون عونا لى ، ونصيرا ومحرما لأسرارى ، لكنها فى الواقع كانت عيونا لله تراقبنى ، لم أكن أظن أبدا أن يكون هذا موقفها منى .

– ثم .. ما بالك الآن ؟!

– ها أنا موجود في الحجز منذ فارقت الدنيا ، خائف مرتعد من الوحدة ، لا أدرى مصيرى ، وأنا على هذه الحال ليل نهار ، إن ما أصابني فى الحجز من إيذاء أمر أعجز عن بيانه ، ولكنى أمر كل يوم بجوار السجن جيئة وذهابا ، فهناك جهنم ، فحين أشاهد العذاب هناك أغيب عن الوعي ، وأتمنى لو يحكم علي بالبقاء هنا في الحجز .

– ألم تقدم للمحاكمة حتى الآن ؟

– أنا أدعو الله ألا أقدم للمحاكمة ، فكل يوم أقضيه فى الحجز نعمة ما بعدها نعمة ، حين جئت إلي الحجز فى البداية ، أعطيت صحيفة أعمالي ، وهكذا أخذت أتصفحها ، وأرتعد مما ستكون عليه خاتمتي، لا أفهم كيف السبيل إلي النجاة !!

– كيف يمكننا أن نقدم لك العون للخلاص من هذه المصيبة ؟

– لو دعـوتم الله بإخـلاص وتضـرع ، فـلا عـجب أن يرحـمنى الله بدعائكم، فقد تم الإفراج عن جار لى ، وجـهت له تهم كثيـرة ، لكن الله تبارك وتعالى عادل ، ورحيم أيضًا ، فقد قام بعض عباد الله الصـالحين وتضـرعوا إلى الله أن يغفر له ، فناداه رب العزة أول أمس أول قبل أول أمس ، وقال له : إن أفعالك وأعمالك لا تخفى عليك ، لكن بعض عبادى تضـرعوا لـى ، وهم زوجتك وعيالك ، وما وجدنا فيك من خـيـر هو أنك بذرت بذور الخـيـر والتـقوى والتـدين في أهلك ، اذهب قد عـفـوت عنك ذنوبك .. فقل لي يا بني ! هل دعوت لي مرة بالخير ؟

– يا أبت بعد موتك كثر البكاء والنحيب ، ولا نزال على هذه الحال حـتى يظن الناس أنك فـارقـتنا اليـوم فـقط ، وسنظل نبكى عليك طوال حـيـاتنا ذاكـرين عطفك علينا ، وكـرمك وعنايتك بنا ، وفي يوم الأربعين دعونا الأقارب والأصحاب ، وأطعمناهم ترحما على روحك ، طبقا لعرف أهل الدنيا وتقاليدهم ، وقال الناس بأننا رغم الغلاء جهزنا طعامًا طيبًا يوم الأربعين من وفاتك ، أما فيما يتعلق بالدعاء فلا أكذب عليك ، لم نهتم بهذا الأمر ، فـبـعـد وفـاتك بدأت المشاجرات من أجـل توزيـع الميراث ولا تزال حتى الآن لم تنته بعد ، ولكن أخبرنى ، لقد كنت مواظبا تمامًا على الصوم والصلاة ، ألا تشفع لك أيضا مع أعمال الخير والبر ؟!

– لم لا .. ؟ فـبـسـبب هذه الأعـمــال ترانى الآن فى هذه الحـالة !! وإلا لوجدتنى فى الدرك الأسفل ، هناك عقاب فى الحجز شبيه بعقاب السجن ، لكن الشرط لقبول الأعمال هنا هو خلوص النية ، لقد رأيت أعمالى بعد أن جئت هنا ، فوجدت أن صلاتى كانت فـى غير خشـوع كاللؤلؤ المزيف

أو النقود المزيفة ، أما الصوم فكان مثل العادة التي اعتاد عليها الناس ؛ فلم آخذ من ورائه سوى الجوع والعطش.

– إذن ألم تجد ما يشفع لك في حضرة الحاكم ؟

– أستغفر الله ، لا يفكر أحد هنا إلا في نفسه ، فالكل يقول : نفسي نفسي ، فكل إنسان مشغول ببلواه ، ومكروب بمصيبته ، فكيف يفكر في نجاة الآخرين ، إنه يفكر في أن يجد مخرجا لنفسه ، ولو بقدر سم الخياط .

– لماذا يا أبت أُتهمت بالكفر والشرك ، فنحن ، بل جميع أهل المدينة يعتقدون بأنك كنت تقيا ، أكنت – معاذ الله – غير مؤمن بالله ؟!

– لا يا بني ، لقد آمنت بلساني ، لكن قلبي لم يصدق ذلك الإيمان .

– يا أبت إن جميع أعمالك تدل على أنك مؤمن تماماً بالرب الكريم.

– إنه يعلم ما تخفي الصدور ، حين استجوبت في البداية وسئلت : من ربك ؟ أجبت بأنه الله وحده لا شريك له ، ذلك لأنني لقنت ذلك عند موتي ، ثم بدأت مرحلة التحقيق معي فقيل لي : أتذكر حين فصلت من وظيفتك الحكومية ، ورجعت إلى بيتك مهموما مغموما ، فبقيت دون عمل مدة طويلة ؛ حتى أنفقت ما كان لديك مدخرا أيام عملك ، ثم خرجت تبحث عن وظيفة تكسب منها عيشك ، وأخذت تدور هنا وهناك ، واضطرتك الحاجة إلى التضرع والدعاء ، لكننا أردنا أن نختبر صبرك وعزيمتك ، فأخرنا الاستجابة لدعائك ، وبإشارة منا إلى أحد رؤساء الولاية وهو عبد من عبادنا ، جعلناه يعدك برعايته ، ولم نشأ أن نطلعك

على تدبيرنا، فظننت أن ما حدث كان نتيجة لجهدك ، فاصدقنا القول : هل اعتمدت على وعد رئيس الولاية الإنجليزى فى توفير رزقك أو آمنت بما جاء فى كتابنا " وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها " ؟ إذا كنت تؤمن من صميم قلبك ، إننى موجود فى كل مكان، بصير ، سميع ، وقادر على كل شيء ، فكيف تجرأت على ارتكاب الذنوب ، كيف نسيت ؟ هل نسيت مرة فألقيت نفسك من فوق جبل ؟ هل نسيت مرة فوضعت يدك فى ماء يغلى ؟ هل نسيت مرة ووضعت يدك فى جنوة نار ؟ لكنك نسيت وارتكبت الذنوب فى جراة دون تدبر أو تأمل ، ألم تؤمن بقولنا إن جهنم هى مصير المذنبين ، وإن كنت تؤمن بذلك ، فربما اعتقدت أن نار جهنم أخف من نار الدنيا ، وما أسبغناه عليك من نعم الحياة التى لا تستحقها ، إنما هى تفضلا منا ورحمة ، أحسبت أنها من تدبيرك؟ وما أصابك من مصيبة ، سعيت إليها بقدميك وارتكبتها بيديك ، تنسبها إلينا .

أيها الجاحد ! لقد أنعمنا عليك بآلاف النعم ، فلم تكلف خاطرك بالاعتراف بذلك مرة واحدة ، أيها الجاحد ! لقد أحسنًا إليك كثيرًا، لكن هذا لم يترك أثره عليك ، ولم تشكر مرة واحدة ، وقابلت الإحسان بارتكاب الذنوب مرة بعد أخرى ، وزدت من بغيك وشقاوتك ، وزاد غرورك ، واتكلت على هذه الحياة الفانية حتى فكرت أن تخرج من نطاق العبودية ، ونسيت أنا خلقناك من عدم ، وكرمناك على بقية الخلق ، فأعطيناك العقل ، وهيأنا لك كل حاجاتك، وحفظناك وشملناك بالرعاية ، أكان ذلك كله من أجل أن تنسانا ، وتعيش على هوى نفسك ؟!

حين كنت مضغة ، لا حول لها ولا قوة ، لا تقدر على الحركة ، ثم جئت من رحم أمك إلى هذه الدنيا ، أرضعناك من ثديها لبنا طاهراً ، ووهبنا لك أمك وأباك ليقوما على رعايتك ، وألقينا في قلبيهما محبتك، يربيانك حتى شب عودك ، وصرت تدرك الأمور من حولك ، فقد وهبناك العقل حتى تستعين به لسد حاجاتك ، وسخَّرنا لك كل ما في الدنيا من بهيمة الأنعام والطير والنبات والجماد ، تتصرف فيها كما تشاء ، تُرى أكان هذا كله من أجل أن تعرض عنا ، وتهرب منا ؟! إن حياتك لم تكن تساوي شيئًا ، فلو منعنا عنك الهواء الذي تتنفس للحظات لانتهت تلك الحياة ، من الصعب عليك أن تعيش ليلك ونهارك دون ماء وحبوب ، ولم تفكر مرة من ذا الذي يُنزل الماء من السماء ، ومن ذا الذي ينبت الحب في الأرض ، لقد شربت آبارا من المياه طوال حياتك ، ولم تشكر خالقها مرة واحدة ، ولا يقتصر الأمر على الماء والحبوب ؛ بل تعداه إلى ما وهبناه إياك من خزائن رحمتنا لتعينك على الحياة في رفاهية وسعادة ، لكنك كنت تأكل ولا تشكر ، وتأخذ وتجحد ، كنت تفكر في أمور الدنيا وتنسى رب هذه الدنيا الذي أنعم عليك بكل النعم ، صرت أعمى مع أن لك عينين ، وصرت أصم مع أن لك أذنين ، لقد سخَّرنا لك الأرض والسماء ، والشمس والقمر والنجوم والغابات والحقول والأنهار والبحار، والجبال ، والذهب والفضة واللؤلؤ ، سخَّرنا كل شيء بأمرنا ، لكنك كنت جاحدا ، جعلناك أفضل الخلق لكنك كنت باغيًا ، وكنا قادرين أن نهلكك ، وكانت نملة صغيرة قادرة على ذلك بأمرنا ، لقد حفظناك من كل سوء وإلا ففي بدنك من السموم ما يسبب هلاكك ، مددنا لك يد العون والمحبة ، لكنك تماديت في غيك طوال حياتك ، أكان هذا جزاء كرمنا لك وفضلنا عليك ؟

هل نسيت ما بيّناه لك من أن الروح جوهــر لطيــف ، شفاف ، براق ، فلا تفسدها بسوء عملك في الدنيا ، وأخبرناك بأن الروح أمانة ووديعة، عليك أن تصونها ، لأننا سنستردها كما هي لطيفة شفافة ؟ ! لكنك بأعمالك السيئة جعلتها سوداء معتمة أقذر من القذارة ، وأنجس من النجاسة ، حالكة ، معتمة ..

ألم نكرر قولنا لك بأن لا تجعل حب الدنيا يرسخ في قلبك ، وعليك أن تعيش فيها مسافرا كالغريب أو عابر سبيل ، لكنك لم تستمع إلى وعظنا ، ولم تفكر في عاقبتك ، ونمت عن كل شيء حتى استيقظت في قبرك ، وأدركت أنك كنت مسافرا فصرت مقيما ، وكنت سائحا فصرت مواطنا ، ألم تجمع طوال عمرك الدنيوي المال ، ألم تؤسس العمارات المتينة ظنا منك بأنك ستعمر في هذه الدنيا ؟ أهذا شأن المسافر ؟ أهذا طبع السائح ؟ إنك كنت تعرف أنك راجع إلينا ، فلماذا كنت ترتجف عند ذكر الموت ، وتتململ عند سماع خبر موت أحد الناس ؟

في البداية لم يحدث أن اتجهت إلى عبادتي ، لكن حين شعرت بمراقبة الناس لك ؛ اتجهت إلى العبادة استحياء أو مراءاة لهم ، أو ربما كما جرت العادة ، قمت بأداء واجبات العبادة ، ولهذا لم يكن قلبك حاضراً ، ألا تذكر أن ما صليت صلاة إلا وسجدت سجدتي السهو ؛ لأنك كنت مشغولاً في الصلاة بما نسيت من أمورك الدنيوية ، ثم أية صلاة كانت تلك الصلاة ، لقد كنت تؤديها بسرعة كمن يقتلع عشبا، فما أحسنت الوقوف ، ولا الركوع ولا السجود ، وطوال العام كنت تملأ معدتك ، فأمرناك بالصوم شهراً واحداً فقط ؛ حتى تعرف قدر نعمنا عليك ،

وحتى تشعر بالتعاطف على أبناء جنسك ، ممن تلحق بهم المصائب ، وحتى ينتفع بدنك ، ويعتدل طبعك ، فتتأصل فيك الخصال الحميدة والتواضع الجم ، وهى أمور محمودة عندنا ، ومع أنك كنت طوال اليوم تنشغل بأمور الدنيا ، وتمضى هنا وهناك دون أن تفكر فى الطعام والشراب ، لكن حين بدأ شهر الصوم بدأت تشكو طول الوقت من الجوع العطش والضعف والهزال ، بل إنك أفطرت يوما ، ورقدت على السرير فاقدا الشعور ، كأن الروح فارقتك ! مع أنك كنت تأكل فى رمضان طعام يومين لصيام يوم واحد ؛ مخافة الجوع، ولم يكن هناك ما يشبع جوعك ، فقد كنت كبقرة جائعة لا تشبع أبدا ، وكنت تنتظر يوم العيد بفارغ الصبر كسجين ينتظر يوم الإفراج عنه، ولو استطعت لاحتفلت بالعيد يوم التاسع عشر وليس يوم التاسع والعشرين .. فهل تتوقع أن تنال الأجر والثواب على مثل هذا الصوم ؟

لقد خلقناك إنسانًا يحمل صفة الإنسانية لتكون عطوفًا على من ضربتهم المصائب والمحن ، لكنك اخترت حياة الدعة والراحة ولم تفكر في مصائب الآخرين ، ولم تتورع عن إيذاء الآخرين في سبيل راحتك، كان جيرانك من عبادى يبيتون الليل جائعين ، وكنت أنت تعانى من سوء الهضم نتيجة التخمة ، كان بعض جيرانك من عبادى يبيتون طول الليل فى الشتاء دون غطاء ، يعانون من البرد الشديد ، وأنت تغطى نفسك ، وتمد رجليك تحت الألحفة والأغطية الناعمة ، لقد آتيناك نعمة المال وأنعمنا عليك بالثروة، فأضعتها بالإسراف والتبذير، وأضعتها في الرياء، بينما الناس من حولك فى أمس الحاجة إلى ما يسد رمقهم ، يعانون ويقاسون كل يوم..

نحن أعلم بنواياك السيئة ، لقد نسيت اسم الله طالما كان باستطاعتك أن تحصل على ما تشاء بالتدبير والسعي ، فإذا ما فشلت في سعيك تذكرت الله واتجهت إلى الله ، لقد انتهكت حرمة أوامرنا الواجبة عليك ، وأهنت الأحكام التي كان يجب عليك أن تحترمها ، وقدمت مثالاً سيئًا للعباد الآخرين ؛ أي أنك أضعت أبناءك أيضًا ، كنت ترى الناس يموتون كل يوم، وكنت تسمع أخبار الراحلين عن هذا العالم، فهل اعتبرت؟ ألم يكن عليك أن تفكر أنك ستموت ذات يوم ؟ كم من الأطوار مرت عليك ، صرت شابًا بعد أن كنت صبيًا ، ثم صرت شيخا عجوزا بعد أن كنت رجلا فتيا ، أبيَّض شعرك ، وتساقطت أسنانك ، وانحنى ظهرك ، وضعفت قوتك ، والخلاصة أنه لما رأيناك غافلا نائما عن الغاية المنشودة ، حاولنا إفاقتك عن طريق تلك التغيرات ، كم من مرة أقمناك ؟! وكم من مرة أجلسناك ؟! لكنك كنت نائما دون حراك :

"نمت طوال عمرك في غفلة

لم يكن لك من نصيب غير الضياع"

ليس من شيم الكرام الشدة والغلظة ، ولا نغضب على عبد يتوب وينوب إلينا إذا كانت توبته صادقة مخلصة ، فمن ذا أعطف وأرحم منا بالعالمين ؟! كم من مرة غفرنا للعبد ذنوب حياته كلها بعد توبته ! وكم من مرة هاج بحر رحمتنا وعفونا ، فما وجدنا من تائب ولا مستغفر ، نتوب عليه ونستغفر له ، ولو حافظ العبد على علاقة العبودية لغفرنا له جميع خطاياه ، حتى لو كانت مثل زبد البحر ، فيا حسرة على العباد ، لم يتخذوني إلها حقا ، فتوكلوا على غيري ، واعتمدوا على من هم سواي ، وعاشوا في عالم الأسباب ، فعبدوا الأسباب من دوني .

ثم إن أحكامنا ليست صعبة ، فنحن لم نمنع الطعام ، ولم نمنع النوم ، ولم نحرِّم التمتع بملذات الحياة ، ومع ذلك لم تستطع إطاعة أوامرى ، نظرا لسوء نفسك ، فيا أيها الإنسان الذى يتمنى النجاة ، ليتك اعتنيت بهذا الأمر فى حياتك، ولو بقدر بسيط ، ولو خسرت شيئًا فى الدنيا من أجل الآخرة ، لكان أفضل ، ليتك ندمت على كل صلاة فاتتك ، كما كنت تندم لو انكسر إناء من آنية بيتك الفخارية ، نحن نعلم أنك نادم الآن ، حيث لا ينفع الندم ؛ لأنك الآن فى دار الجزاء ، ولست فى دار العمل ، نحن نعلم أنك لن تستطيع أن ترد على أى من الأسئلة ، لكنا سنمهلك حتى نقيم عليك الحجة ، فاذهب ، وانظر فى صحيفتك هذه ، وفكر .. فلعلك تستطيع أن ترد بشىء ، شريطة أن يكون ردك معقولاً ومقبولاً .

الفصل الثانى

(استيقظ نصوح من منامه ، فتأسف على حياته ، وحياة أسرته التى لا معنى لها ، وعاهد نفسه على تلافى ما فات، فقص على زوجته "فهميده" ما شاهده فى منامه ، وطلب منها أن تساعده من أجل إصلاح حال الأسرة) .

* * *

حين قص عليه أبوه حكايته ، أصيب الابن بالرعب والخوف ، فهب من نومه فزعا ، و حين استيقظ وجد نفسه في ساحة بيته مرة أخرى ، وسط من يقومون بتمريضه ، كانت زوجته تجلس بجواره تحرك الهواء بالمروحة ببطء ، شعرت بالاطمئنان والراحة حين شاهدته يفتح عينيه المغمضتين ، فقد هرب الدم من عروقها من شدة الخوف منذ أن فاجأ المرض الزوج ، ونصوح منذ أخذ الدواء الذى وصفه له الطبيب فى الساعة الثامنة وهو راقد ، بل غرق في النوم ، و ها هو يستيقظ بعد الساعة الثانية ، ولما كان الطبيب قد أخبرهم بأنه سوف ينجو من المرض إذا غلبه النوم ؛ فقد شعرت الأسرة بالطمأنينة حين غرق في النوم ، لكن حين طالت مدة نومه شعرت النسوة بالقلق ، وتساءلن : أى دواء هذا الذى أعطاه له الطبيب المنحوس فجعله لا يستيقظ حتى الظهر ؟ فهو لم يتحرك في فراشه أبدا، الله وحده يعلم عن حالة قلبه ، ومتى يفيق مما هو فيه ، وانتظرن مشيئة الله .

استيقظ نصوح فسألته زوجته :

- كيف الحال ؟ حسنا فعلت حين نمت ، فالبيت كان مملوءا بالعويل والصراخ وأنت لا تدرى ! تكلم ! قل شيئا ! حتى أُطمئن الناس فوق .. حرام ! فالأطفال لم يتناولوا ولو كسرة خبز ، والبنات احمرت عيونهن من كثرة البكاء ، والأولاد يتحركون هنا وهناك ، وقد سيطر عليهم القلق والاضطراب .

ظلت الزوجة تحاول معه حتى ينطق بكلمه ، لكن منظر الحلم الذى رآه فى نومه كان لا يزال يتراءى له ، فلم يرد عليها بكلمة؛ فظنت الزوجة أنه لا يرغب فى الكلام ، بسبب ما يعانيه من مرض ، لكن الخوف انزاح عن قلوب الجميع ، فبدءوا يهنئون بعضهم بسلامته ، واحتفل البيت كله بالعيد قبل حلول شهر رمضان ، ولم يؤخروا الاحتفال ، فقد كانوا جائعين ؛ فاشتروا الحلوى من السوق ، وأكلوا وشربوا ، وأثناء تناولهم الطعام ، قال أحدهم إنهم يريدون الاحتفال بعودة الصحة والعافية إلى المريض ، على أن يكون ذلك احتفالا ضخما .

وبينما كان هؤلاء يتحدثون عن نية الاحتفال ، وإقامة الأفراح ، كان نصوح غارقًا فى المشاهد التى رآها فى منامه ؛ فأدرك من كل قلبه أن ما رآه لم يكن على الإطلاق وهما أو خيالاً، ومهما كان، حقيقة أم خيالا ، فهو من جانب الله ، فما هو الحلم ؟ هو "رؤيا صادقة" و "إلهام إلهى" لقد استمع إلى بيان أبيه بكل دقة ، لدرجة أنه يتذكر كل كلمة وكل حرف قاله له ، وظل يفكر فى الذنوب التى وقعت على أبيه ، وأدرك أنها كلها تنطبق عليه أيضًا ، بل إن حالته أسوأ من حالة أبيه ، إذا ما عقد

مقارنة بينهما ، فالمرحوم كان يواظب على الصلاة والصوم ، وكان يداوم على قراءة الأدعية والأذكار، وكان صادقا في تعامله مع الآخرين، وأمينا في تجارته ، وكان باراً تقيًا في رأى الناس ، وأما هو فلم يكن يلتزم إلا بصلاة الجمعة ، وكان يصلي العيد لأن الناس يحتفلون به ، ويوم العيد يوم مهرجان سنوى ، يظهر الناس فيه كل ما لديهم من ثروة ومال، فالبعض يلبس الملابس الفاخرة ، والبعض يركب فرسه خيلاء وتكبراً ، ويمضي به عمدا وسط الزحام ، ومنهم من يمضي مزهوا ومن حوله حشمه وخدمه ، والبعض يستأجر " حنطورا " أو يستعير عربة صديقه ، ويطلب من " السائس " أن يزين العربة ، ويضع الأجراس في رقبة الأفراس ، وأن يستعد لمسابقة الآخرين ، و غير ذلك من مظاهر خادعة .

أما صلاة يوم الجمعة ، فهو يؤديها في المسجد الجامع ، إذا ما توفرت له الثياب النظيفة ، المنشاة بالمكواة ، وإذا كان الجو صحو ، ونوى زيارة أحد أصدقائه ، وإلا صلاها بسرعة في مسجد الحي، وقد يقوم بتأويل شرائط وجوب صلاة الجمعة ! وهو لم يفكر أبدا في فرضية الصلوات الخمس ، فما أقام صلاة الفجر والظهر والعشاء طوال حياته لأن هذه أوقات نومه ، أما صلاة العصر فهي في وقت تفسحه في الأسواق ولقاء معارفه ، فإذا وجد فرصة ، وفرغ من أمور حياته الدنيوية صلاها، أما صلاة المغرب فهو يعتذر عنها بضيق الوقت ، مع أنه يظل يلف ويدور حتى زوال حمرة الشفق .

وإذا كانت هذه حاله مع العبادات اليسيرة ، فكيف تكون حاله مع العبادات التى تستلزم مشقة ، لقد كان يتجنب الصوم وأداء الزكاة ،

بتأويل النصوص واتخاذ الحيل الشرعية ، فكان إذا ما اقترب شهر رمضان ، يزور الطبيب لإجراء الفحوص الطبية ، والأطباء إذا زارهم رجل صحيح سليم - ولو بقصد السلام - لا يتورعون عن كتابة وصفة طبية له ، فإذا ما اشترى الدواء ، وبدأ في تناوله أصابه المرض من تلقاء نفسه ، وتذرع بالمرض ليهرب من صيام شهر رمضان . أما حيلته فيما يتعلق بالزكاة ، فكانت عجيبة ، فإذا ما رأى أن الحول سيحول على ماله ، قام فوهبه لزوجته ، وإذا جاء العام التالى وقبل أن ينتهى ، قامت زوجته فوهبته إليه ، ثم اتخذ حيلة أخرى ، فكان ينفق المال فيما لا يحتاجه ، فهو يشترى الدكاكين والشقق ، ويؤجرها للناس ؛ حتى لا يدفع الزكاة .

وخلاصة القول إنه كلما حاسب نفسه، وجد نفسه بعيدا عن الدين ، ووجد قلبه خاليًا من الإيمان، وهكذا عرف أنه قريب من الهلاك ، وحين نظر فى صحيفة أعماله لم يجد فيها عملا صالحا ، خالصا لوجه الله ، وإذا ما وجد عملا صالحا قام به ، تدبره فوجد فيه كثيرا من النقائص ، أما صلواته فهى صلاة كسول ، قصد بها الرياء ، أما الصوم ، فلم يكن يصوم إلا فى فصل الشتاء ، وحتى لو صام فكان يصوم مجاراة لأهله فى سحورهم وإفطارهم ، وكان من فوقه إلى أسفله عيوب ، تمثلت فى الرياء ، والكذب ، والتظاهر بالضعف ، والجوع ، والعطش أمام كل من يقابله .

أما الإنفاق فى سبيل الله ، فلم يكن ينفق فى سبيل الله إلا القليل جداً ، ويضيع أجره هذا بالمن والأذى ، وهكذا لم يكن له من عمل خالص لوجه الله يرجو به ثوابا من الله .

كان لهذه الأفكار أثرها الشديد على قلب نصوح ، فانفجر باكيا رغمًا عنه، وبدأ يقول :

يا إلهي لا يوجد بين الناس من هو أرذل مني ، ولا يوجد بينهم من هو أضل مني ، فقد قضيت عمري كله في معصيتك، ليت أمي لم تلدني ، وليتني حين ولدتني ، لم أقدر على عصيانك ، وليت مصيبة أصابتني ، فلم تواتني الفرصة لارتكاب الذنوب ، ليتك يا إلهي أسقطت على صاعقة من السماء ، ليت السماء انطبقت علي، ليت حية لدغتني ، فأصابتني في مقتل ،اللعنة على إذا اقتربت من معصية طوال حياتي بعد الآن ، اللعنة على إذا ارتكبت ذنبا ..

لقد قطع هذا العهد على نفسه وهو يتذكر عمره الضائع ، وقال في خاطره إن عمري كله الذى أضعته في هذه الحالة السيئة ، ليس من سلطتي تعويضه ، كما أنه ليس من العدل أن أرتكب جرما لا أنال عليه عقابا ، أو أرتكب ذنوبًا لا أعاقب عليها .

ندم نصوح فى هذا الوقت ندمًا شديدًا على ما ارتكب من ذنوب ، لدرجة أنه رأى أن الموت هو أقل عقاب يمكن أن يناله ، وبينما كان جميع من بالبيت يحتفلون بشفائه فرحين مسرورين ، كان هو يشعر بالأسف والأسى متفكرا فى يوم الدين ، ويظن أن موته كان كفارة عن ذنوبه ، لم يكن يستطيع النهوض بسبب المرض ؛ فأمال رأسه على الوسادة وهو يقول : يا إلهي ! كنت أستحق أن ألقى فى نار جهنم ، لكنك - بفضلك وكرمك - وهبتنى أياما فى هذه الحياة ، فوفقنى يا إلهى إلى طاعتك ، وإلى عمل الخير فى سبيلك ، واجعل حياتى مثالا لحياة التقوى والورع .

بعد أن فرغ نصوح من محاسبة نفسه ، تذكر أسرته ، ورأى زوجته وأولاده على وتيرة واحدة : منغمسين في ملذات الدنيا غافلين عن الدين، فأصيب بصدمة أخرى ، وقال لنفسه : واحسرتاه ! لقد خسرت الدنيا ، وجعلت عباد الله هؤلاء يخسرون دنياهم أيضا ، ألم يكف ما أحمل من أوزار نفسي، فأتحمل أوزار هؤلاء أيضا ؟ لقد جعلني الله مسئولا عنهم ، وعن حياتهم ، وأمرهم بطاعتي ، وتنفيذ أوامري ، فيا أسفاه ! لم أحفظ وديعة الله ، وقصرت في رعايتها، وقدمت لهم أسوة سيئة ! فضلوا عن سواء السبيل، لو كنت نهيتهم عن ارتكاب المنكر والشرور، لما ارتكبوها ، أخشى أن تفسد ذريتهم أيضا ، وهكذا أكون أنا أول من بذر بذور الفساد في العائلة ، بينما عباد الله الصالحون يكونون قدوة طيبة ، وأسوة حسنة لذرياتهم من بعدهم ، أما أنا الإنسان الشقي ، فلن أترك على هذه الأرض سوى آثار الرذيلة، طالما بقيت ذريتي على وجه الأرض ، ويوم الحشر سيقول هؤلاء عند حسابهم : ربنا لو أرشدنا أحد من آبائنا إلى الصراط المستقيم ؛ لكنا من المهتدين ، عندئذ كيف سأدافع عن نفسي ؟!

ولما دارت هذه الأفكار في ذهنه بكى مرة أخرى ، وقطع على نفسه عهدا آخر بأن يتولى أمر إصلاح جميع أفراد أسرته ، ثم دعا الله قائلا :

- يا إله العالمين ! ساعدني على تحقيق هدفي ، وسهل لي ما قد يواجهني من صعوبات ، واجعل لنصيحتي تأثيرا ، وشد من عزمي .

لم تكن هذه العثرة من النوع الذي ينساه نصوح ، ويلقي به خلف ظهره ، وقد كان من السهل عليه إصلاح نفسه ، لكن الصعوبة الكبيرة

كانت في إصلاح الأسرة ، كان يعرف جيدا أن التدين والتقوى وإطاعة الأوامر الإلهية ، مصطلحات جديدة وغريبة بالنسبة لأسرته ، لم يسمع بها أحد منهم من قبل ، وكان يعرف أيضا أنه سيجد منهم معارضة ، وأنه سيكون في جانب وهم جميعا في جانب آخر .. فخاطب نفسه قائلا :

"من يسمع تغريد العندليب في بيت الطبّال

وكيف لمن هو مثلي أن يهدم وحده جبل المعصية ."

وهكذا بدأ يفكر في ضرورة وجود من يعينه ويساعده في أداء هذه المهمة .

في النهاية فكر في زوجته ، وأنه لا يوجد من وسيلة للإصلاح أفضل من زوجته ، فالله قد قدّر فلاح هذه الأسرة ، فقد اهتم نصوح منذ البداية بتعليم زوجته ، فحين تزوجها كانت حركة تعليم المرأة على أشدها ، وكان نصوح يجمع الكتب الجديدة التي تصدر من أجل المرأة ، ويطالعها بشوق ولهفة ، وآمن بأن تعليم المرأة فيه فوائد دينية ودنيوية ، وهكذا اختار من بين الكتب بعض الموضوعات ، وأخذ يسمعها زوجته التي استحسنتها ؛ فاشتاقت إلى التعليم ، واعترفت بأن التعليم مفيد للمرأة ؛ لم يكن لديها أطفال في ذلك الوقت ، فبدأت تدرس على يد زوجها ؛ وخلال أربعة أو خمسة أشهر بدأت تكتب وتقرأ الأردية ، وصار ذلك هواية عندها .

عندئذ اعتبر نصوح أن تمكن زوجته من القراءة غنيمة كبرى ، واعتبر أن هذا فضل من الله ، فزوجته " فهميده " ذكية جدا ، وهي اسم على مسمى ، فلم يكن يجد صعوبة في إفهامها أية مسألة .

بقى أمر الأطفال الصغار ، فإصلاحهم أيضا لن يكون بالأمر الصعب، لكن الصعوبة الشديدة تكمن فى إصلاح أبنائه الكبار ، له ولد وبنت ، وهما متزوجان ، وكل منهما فى بيته ، ولا سلطان له عليهما، ولو كان له سلطان عليهما فهو لا يستطيع أن يضربهما أو يزجرهما ، ولو أراد نصيحتهما فسوف يعترضان ويقولان : هل نحن فاسدان ، وبعيدان عن الدين ؟ أنت الذى قمت بتربيتنا على هذا ، حتى تأصلت فينا هذه العادات والخصال ، وتأتى اليوم تطلب منا أن نغيرها ، ثم تتهمنا بغير حق .

اغرورقت عين نصوح بالدموع وهو يفكر فى هذا الأمر ، ويدرك أن من المحال إصلاح هذين الاثنين، وكان حزنه الأكبر وأسفه الأعظم أنهما إن لم يصلح حالهما ؛ فإن فسادهما سينتقل إلى أولادهما ، وستستشرى فيهم المنكرات ، كما انتقل فساده إلى أولاده .

ورغم هذا عزم نصوح وصمم على أن يبذل – إن شاء الله – كل جهده، فإما أن يستقيموا ، وإلا رحل عن هذه الدنيا ، ولن يتعامل مع من لم يطع الله منهم ، ثم فكر نصوح فى ابنه الثانى وابنته الثانية ، فشعر بعدم الاطمئنان كلية ، وأدرك أن أمر إصلاحهما يبدو صعبا أيضا ، لكن إرادته كانت من القوة بحيث لا يمكن لأية مشكلة مهما كانت أن تقف فى طريقه ، كان مضطراً ، وكان فى عجلة من أمره ، لدرجة أنه رغم عجزه وعدم قدرته على الحركة قال لزوجته :

– سخنى بعض الماء ، أريد أن أستحم .

– حيلك ! حيلك ! تمهل قليلا حتى يجرى الدم فى قدميك وذراعيك، كيف تستحم وأنت على هذه الحال ؟ أهم من كل هذا أن تتمكن من المشي والحركة ، عندها يمكنك الذهاب للاستحمام .

– أريد أداء الصلاة ، أريد أن أطهر جسدى بعد هذا المرض ، قلبى لا يطاوعنى البقاء على هذه الحال .

– هل نذرت أن تصلى النوافل إذا شفيت ؟

أصيب نصوح بالغم حين رأى زوجته تتعجب من رغبته فى أداء الصلاة ، وقال فى خاطره : هل باعد الله بينى وبين الصلاة لدرجة أن زوجتى تتعجب حين تسمع كلمة الصلاة !

" يا أسفى على حالى ، ويا أسفى على خاتمتى

حتى الكفر يخجل من إسلامى ، فيا أسفى على حالى "

وتأوه قائلا لزوجته : لو كنت من الملتزمين بصلاة النوافل ، لما أصابنى ما أصابنى .

– إذا لم تكن قد نذرت نذرا ، فما داعى للعجلة ، إن الصلاة لن تفلت منك إلى كان ما ، اصبر حتى تتحسن صحتك ، ثم صل ما تشاء .

لم يعد نصوح هو نصوح السابق ، فلم يكد يسمع من زوجته ذكرها الصلاة باستخفاف حتى شعر بالأسى الشديد ، فغلب عليه الغضب ، لكنه تدارك الأمر فالذنب ليس ذنب زوجته ، فالتى فقد زوجها

حلاوة الإيمان، وابتعد عن تعاليم الدين؛ سيكون هذا مسلكها لا محالة ، فالخطأ كله يقع عليه ، فقد أفسد بفجوره كل البيت ، وأدرك أن الرد الآن على زوجته ومناقشتها ، ليس في محله، فلم يزد عن قوله لها : يا للأسف إن صحبتي السيئة قد أضلتك ، وجعلتك تعتــبرين أداء فــرض الله أمرًا هينا .

والخلاصة أنه استحم رغم اعتراض زوجته ، وغيَّر ملابسه ، وصلى صلاته ، واليوم كانت هذه أول صلاة يؤديها نصوح ، يمكن أن تدخل - بحق - ضمن أداء فروض العبادة ، لقد وقف عاقدا يديه في خشوع كأنه متهم يقف في حضرة ملك عظيــم ، عينــاه تتجهان إلى الأرض ، وكان لا يهتز ولا يتحرك من خشية السلطان ، وقف متصلبا كأنه صنم لا يتحرك، وعلى وجهه ظهرت علامات التواضع والمذلة والمسكنة ، ورغم أنه كان منضبطًا لكنه لم يتمكن من السيطرة على الذبذبات التي كانت بداخله ، وكان منظره وهو على هذه الحال يدعو للشفقة .

استمرت مدة النقاهة لمدة أسبوع أو عشرة أيام ، وبفضل من الله استعاد نصوح قوته وعافيته ، لكن عاداته وطباعه تغيرت في معظمها بعد المرض ، فهو في معظم الأوقات غارق في التفكير ، كما أنه أقلع عن أمور كثيرة ؛ فابتعد عن لغو الكلام ، والضحك بلا سبب ، والكلام فيما لا يعنيه ، واكتسب صفات جديدة مثل اللين والتواضع ، وحسن الخلق والمجاملة .

كان قبل مرضه عنيفا معتل المزاج لدرجة أن أهل البيت كانوا يعتبرونه (أبو رجل مسلوخة) ، فكان إذا ما وضع قدمه على عتبة باب البيت ،

طرأ الخوف الشديد على الجميع الكبير والصغير ، فإذا ما شاهد شيئا في غير موضعه أخذ يعنف الجميع بشدة ، وكان حساسًا في أمر الطعام ، فإذا زاد الملح في الطعام أو نقص ؛ أقام القيامة في البيت ، فحطم الأكواب ، وكسر الأطباق ؛ وعرف جميع أهل الحي أن الطعام في بيته فاسد .

صار نصوح يعامل أولاده برقة ولطف ، وكان الأولاد إذا ما صاحوا وصرخوا تطلب منهم أمهم الهدوء وعدم الصراخ في أذن أبيهم ثم تتساءل : ألا تخافون ، انتبهوا سيغضب ؟ !

في البداية أخذ أهل البيت في تفسير هذا السلوك الجديد لنصوح ، كانوا يعرفون أنه خارج من مرض شديد ؛ ولابد أن مزاجه سيصبح أكثر اعتلالاً مما كان عليه قبلاً ، وهو لا يغضب الآن ويلازم السكوت ، لكنهم ينتظرون متى ينفجر بركان هذا الغضب ، وعلى من سيصب حمم غضبه ؟ ومن سيتحمل العقاب ؟ لكن نصوحًا خيب ظنهم ؛ فلم يعد سريع الغضب ، وصار حليما متسامحًا ، رقيق القلب متواضعًا ، وكان هذا هو حاله في جميع معاملاته اليومية ، فهو يأكل بهدوء كل ما يقدم له، ويرتدي - بسرور - الملابس التي يقدمونها له ، لا يحتج ، ولا يتشاجر ، ولا يناقش ، ولا يجادل في شيء ، ولما تغيرت عادات نصوح تغيرت معاملة الناس له ، فالذي كان يخشاه ويخافه قبلا صار يقدره ويحترمه ، ومن كانوا يخافونه وينفرون منه ، صاروا الآن يأنسون له ويحبونه ، وفي ظرف أيام قليلة ، خلا البيت من الشغب والفوضى ، ومن العراك والشجار .

في البداية كان أهل البيت يتعجبون من اهتمام نصوح بالصلاة وغيرها من العبادات ، لكنهم بدءوا يتأثرون به من تلقاء أنفسهم، دون أن يقول لهم شيئا ، وكان نصوح في انتظار تلك اللحظات التي يأنس فيها هؤلاء الناس لهذا السلوك الغريب عليهم ، حتى يبدأ خطته ، لقد تغيرت دنياه ، وتبدلت عاداته ، حتى أنه بدأ يميل إلى العزلة ، فكان يجلس طول اليوم في الطابق الثاني ، وكان قليلا ما يتكلم مع من يأتي عنده ، لكنه كان يميل إلى العزلة بقدر الإمكان ، ظن البعض أنه ربما يغالبه النوم ، وظن آخرون أنه ربما لم تعد لديه القدرة على النزول والصعود ، لكن كلما كانت فهميده تذهب إليه ، تجده يقيم الصلاة ، أو يجلس صامتا ؛ عندئذ سألته ذات يوم :

– ألم تتضجر من الجلوس هنا وحيداً صامتًا ؟ لماذا لا تنزل إلى الطابق الأرضي ، وتسري عن نفسك بالتحدث مع الأولاد ؟ أنا لا أفرغ من أعمال البيت ، وإلا جلست معك طول النهار .

فيرد عليها نصوح :

– أريد أن أشتكي إليك .. فمنذ أن شفيت من مرضي ، لم تسأليني مرة واحدة عن حالي ، كيف صار هكذا ؟ ألم تلاحظي ما طرأ على عاداتي من تغيير؟

– فرق الليل والنهار ! فرق السماء والأرض .. وقد هممت بسؤالك أكثر من مرة ، رأيت وضعك هذا فلم أجد في نفسي الجرأة على ذلك !

– وضحي ! كيف ؟

– لا تؤاخذني في الكلمة .. أنت معروف بحدة المزاج ، والجميع يخشونك ، بعد شفائك من مرضك ، كان الجميع يخافونك ، فالوضع الآن مختلف تمامًا عن ذي قبل ، من قبل كان الغضب الشديد والآن الهدوء المريب ، وهم يرونك ولا يعيرونك اهتماما ؛ لأنهم يظنون أنك لا تزال تحت تأثير المرض؛ وهكذا لم يجرؤ أحد على أن يسألك أو يستفسر عن حالك .

– لماذا يا سيدتي ؟! هل حدث مرة أن نبهتني إلى حدة مزاجي أو اعتلال مزاجي أو ما أشبه ذلك ؟!

– أنبهك ؟ يا حفيظ ! كيف ولم يكن أحد يجرؤ على أن ينطق أمامك بكلمة !

– لكن في هذه الأيام لم أغضب بتاتا من أحد..

– لهذا فالبيت كله يتعجب !!

– ما السبب في رأيهم ؟

– يقولون إنك رأيت كثيرا من الناس يموتون أثناء تفشي الوباء ، ففي بيتنا مات ثلاثة ، وأنت نفسك أصبت بالمرض ، ونجوت بعد أن كنت على شفير الموت ، ومن هنا أصابك الخوف الشديد ، وابنك الأكبر يرى أن الدواء الذي أعطاه لك الطبيب لوقف الإسهال قد أثر على دماغك ، وعلى كل فالجميع يرون ضرورة علاجك .

– لا خلل في الدماغ ، ولا شيء من هذا القبيل ، بلا شك هناك خوف.

– أنت رجل .. فعلام الخوف ، لقد كنا جميعا معك في المصيبة نفسها .

– أنت لم تكوني أبدا معي في هذه المصيبة .

– أقصد أنني لم أصب بالكوليرا ، لكن إصابتك بالكوليرا كانت أشق على من موتي .

– لا ، أنا لا أقصد الكوليرا ، مع أن المرض كان شديداً علي ، لكني أود أن أقول لك إنني من البداية حتى النهاية لم أفقد شعوري ، ولم يغم عليّ كما ظننتم ، فقد كنت أسمع وأفهم كل ما يقال ، منذ بداية المرض حين شخصتم مرضي بأنه لا علاقة له بالوباء ، ثم قدوم الحكيم ، وحديثك معه عن حالتي ، ثم حضور الطبيب ، وإعطائي الدواء ، كنت أدرك كل هذا ، ثم وضعتموني في مكان منعزل بناء على أمر الطبيب ؛ عندها شعرت بالنعاس ورأيت نفسي في عالم آخر .

بعد ذلك قص نصوح على زوجته ما رآه في منامه بتفاصيله كاملة دون نقص أو زيادة ، وقلوب النساء كما هو معروف أرق من قلوب الرجال وأسرع تأثرا؛ وهذا هو السبب الذي يجعل التعليم الديني للمرأة يترك أثره سريعا ، وهكذا شعرت فهميده بخوف شديد بعد سماعها تفاصيل ما رآه نصوح في منامه ، لدرجة أنها كانت على وشك أن تفقد وعيها .

ورغم أن نصوحا كان في خلوته دائم الأسف على ارتكابه للذنوب ، فيبكي عدة مرات في اليوم ، وإن لم يبك في الظاهر فإن قلبه كان يدمى

كل وقت حزنًا وأسفًا ، والآن وقد شاركته زوجته آلامه ، وجد نفسه يبكى بحرقة شديدة . كانت فهميده فى البداية خائفة مرتعدة ، وحين رأت زوجها يبكى ، انخرطت هى الأخرى فى البكاء من أجله ، وظل الزوجان يذرفان الدموع ، وكلما توقفا عن البكاء ، تذكر كل منهما ما ارتكب من ذنوب ومعاص، فيغلبه البكاء من جديد .

وفى النهاية تمالك نصـوح نفسه ، وقال لزوجته : إذا كان هناك ما يستحق أن نبكى عليه فى هذه الدنيا ، فهى الذنوب ومعصية الله لا غير؛ لأنه لا توجد فى الدنيا مصيبة أو نازلة أكثر من الذنوب وعصيان الله ، ولا فائدة من البكاء على ما يصيب الإنسان فى دنياه من ضرر ، لكن البكاء على الذنوب يمحوها بإذن الله ، فالبكاء كفارة المعصية ، والبكاء أحسن عذر للمذنب ، والبكاء دليل الرحمة ، وكفيل للمغفرة ، لكن علينا أن نخطط للمستقبل أيضا ، والندم هو الشهادة التى يظهر أثرها فى أفعال العبد التالية ، والتوبة تكون صادقة إذا ما اقترنت أقوال العبد وأفكاره بأعماله .

فقالت فهميده :

– لكن ، هل هناك أمل فى النجاة ، بعد أن قضينا كل هذا العمر فى ارتكاب المعاصى والذنوب ؟ أرى أن مرضنا هذا لا علاج له .

– اليأس من رحمة الله كفر .. فالله الأحد الصمد غفور ورحيم ، غنى عن عبادتنا ، فلو عصاه من فى الأرض جميعا ، فلن ينقص هذا فى ملكه مقدار شعرة ، وهكذا لو أطاعه من الأرض جميعًا ، وانصرفوا لعبادته ليل نهار، فلن يزيد هذا فى عظمته وكبريائه قدر حبة من خردل ،

ولو أراد الله ألا يكون على الأرض إلا من يعبده ويطيعه ، لخلق بدلا من العصاة ، والكفار ، والمتمردين ، والطغاة ملائكة ، ثم إن ما فرضه علينا ، هو لصلاحنا وفلاحنا ، وليس من شك فى أنه رحيم حليم ، فالإنسان يرتكب مئات الآلاف من الذنوب والمعاصى، ثم يتوب إلى الله وينوب إليه ، فيعفو عنه ويقبل توبته ويغفر له :

" مع أنه غاضب من العمل السيئ

لكنه يعفو عن صاحبه إذا ما لاذ ببابه"

وهو ليس بجائر ، أو متشدد أو ظالم ، لكنه غيور ، يعفو عن كل الذنوب لكنه لا يعفو عمن يشرك به أحدا فى عبادته.

فقالت فهميده متسائلة مرة أخرى :

– عفوه ومغفرته لا حدود لهما ، لكن ذنوبنا لا نهاية لها ، فحب الوالدين لأبنائهما مثلاً لا حدود له ، لكنهما مع ذلك يتضايقان ويغضبان إذا ما عصاهم أولادهم ، تمامًا مثلما تضايقنا من ابننا الأكبر كليم ، رغم حبنا له وعطفنا الشديد عليه .. ألا يغضب الخالق على خلقه لكثرة ما يرتكبون من ذنوب وسيئات .

– من الخطأ العظيم أن نقيس صفات الله الطاهرة الكاملة على خصال الإنسان الناقصة ، فمحبة الأمهات والآباء لأبنائهن فى العالم أجمع، لا تساوى ذرة من العناية الإلهية التى يسبغها الله على عباده ، دون غاية وراءها ، ومن لطف يشمل به الإنسان ، وشفقة لا منة من ورائها ، فارتكاب الذنوب والمعاصى من طبيعة الإنسان ، ولو حاسب الله

الناس بذنوبهم لما ترك على وجه الأرض أحدا منهم ، لكن الله غفور رحيم ، فهو رغم ارتكاب الإنسان للمعاصي ، يظل يهبه الرزق الذى قسمه له ، ويهيئ له الهواء الذى يتنفس ، ويوجد له الماء الذى يشرب ، كما أنه خلق له الليل راحة وسكنا ، وخلق له النهار ليسعى فيه ويعمل ، وهيأ له المسكن ، وسخر له القمر ، والشمس ، والسماوات، والأرض ، والسحاب، والمطر، والفواكه ، والنباتات ، وهيأ له فى جسده اليدين ، والعينين ، والأذنين لخدمته دون كلل ، فإذا كان الله يحسن إلى خلقه ، رغم ارتكابهم المعاصي، فليس ببعيد أن يقبل توبة العبد إذا تاب وأناب ، ويغفر لمن تضرع إليه طالبا العفو والمغفرة .

عندئذ رفعت فهميده يديها بالدعاء ، وأخذت تدعو أن يغفر الله لها ذنوبها ، ويغفر لجميع المسلمين ، بعدها بدأت فهميده تتحدث بسرور واطمئنان ، لكن قلب نصوح السقيم ظل على ما هو عليه ، عندها سألته فهميده : إذا كان غفران الذنوب بتوبة العبد أمرا مؤكدا ، وعاهدنا الله على ألا نرتكب المعاصي مستقبلاً ، فلماذا أنت مهموم هكذا ومغموم ؟!

فرد نصوح قائلا :

– الإيمان اسم للخوف والرجاء ، إن قبول التوبة ليس من حقنا ، فلو قبلها الله فهذا كرم منه ، وإن لم يقبل توبتنا ، فليس لنا حق فى الشكوى ، وكيف يمكن أن نعتمد على العهد الذى قطعناه مستقبلاً ، إن الإنسان مخلوق ضعيف البنيان، الغفلة فى داخله، والعصيان من طبعه ، وإيفاء العهد إنما يكون بتوفيق الله عز وجل ، فما عسى العبد يفعل ؟!

" ما فائدة التفكير بالكثير والقليل

ماذا نحن حتى نقوم بعمل ما ؟

إن ما كان ، إنما كان بكرمك

وما سيكون إنما سيكون بفضلك "

وهناك سبب آخر لغمي وحزني يجعل قلبي غير مطمئن

– ما هو هذا السبب ؟ انتفضت فهميده وهي تسأله فقال :

– السبب هو أنني كنت فاسداً ، وقد أفسدت أبنائي ، لأني كنت نموذجًا سيئًا لهم ، وكما تلاحظين فهم جميعا صغيرهم وكبيرهم على نمط واحد ، لا علاقة له بالدين ! هل من بينهم من في قلبه رغبة في أداء العبادات ، ومن أين تأتيهم الرغبة ، فليس في البيت من كان يحثهم على العبادة ؟ ويقدم لهم النصيحة ، كما لم يكن هناك من يبين لهم الفرق بين ما هو خير وما هو شر. والحقيقة أنني ساعدت بكل طريقة في ضياعهم وفسادهم، يا للأسف فقد زرعت الشوك في طريقهم ، وناصبتهم العداء ، وظننت أنني أعمل لصالحهم ، لكني كنت سببا في اكتسابهم جميع العادات السيئة ، كنت أفرحهم بشراء الألعاب ، وأفرحهم باصطحابهم إلى الأسواق، وأغدق عليهم الأموال لشراء كل ما هو تافه ، لقد علمتهم تربية الحيوانات واصطحبتهم لمشاهدة الموالد والمهرجانات، ودفعتهم لارتداء الملابس على أحدث الموديلات، فكنت أمامهم نموذجًا للعيب المجسم ، فكل ما يفعله هؤلاء، لم يتعلموه داخل بطن أمهم، لكنهم تعلموه مني أنا ، قلدوني أنا ، أنا الذي لا أستحق نعمة أن أكون أبا للأطفال ، ولا أستحق أن أكون رب أسرة .

كان من تعاستي ومن سوء حظهم أن أكون مسئولا عنهم ، ليتهم فقدوني وهم أطفال رضع ، حتى يتكفل بهم أحد غيرى ، فيربيهم تربية أفضل من تربيتي لهم ألف مرة .. يا للتعاسة إنهم يسمونهم أولاد الأشراف مع أن خصالهم خصال اللئام، إنني لا أطيق رؤيتهم ، فالواحد منهم أقبح من الآخر شكلا وسيرة وظاهرا وباطنا .

انظرى إلى الولد الثاني يمشي متبخترا بثيابه الضيقة يتطلع تارة إلى صدره وتارة إلى ساعديه في زهو وإعجاب ، ويضع على رأسه غطاء رأس ملون بطريقة عجيبة حتى أنه من اعوجاجه يكاد يسقط ، أما الابن الآخر فينهض في الصباح ، يبدأ في تطيير الحمام وهو يصيح ويصرخ أعلى البيت حتى الضحى ، ومن ثم يذهب إلى المدرسة ، ثم يعود إلى البيت بعد العصر ، وينشغل باللهو واللعب حتى المساء فيبدأ فى لعب الشطرنج ، ويوم الأحد – وهو يوم الإجازة من المدرسة – يقوم بالمشاركة فى مباراة عراك الديوك مع بعضها .

أما الثالث وهو السيد الكبير رغم أنه هو الأصغر فسبحان الله ! لا يترك أحدا فى الحى إلا وشاكسه ، يضرب هذا ويعاكس هذا ، ويثير الشغب فى جميع الأرجاء .

والخلاصة أنهم لا يتصفون بأية صفة من صفات الأدب أو العقل أو الحياء أو الشرف والنجابة ، وحسن الكلام ، ومنذ عدة أيام يغلي الدم في عروقي كلما شاهدتهم ، فهم لا يتورعون عن شتيمة الآخرين ، ولا يفكرون فيما ينطقون به من فحش ، والحلف بالله صار كأنه لازمة فى كل جملة ينطقونها ، لا يستطيعون لجم ألسنتهم أو إغلاق أفواههم ،

وطريقة مشيتهم طريقة عجيبة، ويظهر من سلوكهم أنهم غير متحضرين .

أما البنات فأنا أعترف أنه لا يوجد فيهن هذه العيوب الموجودة فى الأولاد ، لكنى متأكد من أن حياة أية منهن لا تمضى طبقا لأصول الدين ومنهاجه ، فهن مشغولات باحتفالات العائلة ، مهتمات طول وقتهن بملابسهن وزينتهن ، وإذا كان الأولاد يكثرون من الشتائم فإنهن يكثرن من إرسال اللعنات ، كما أنهن متعودات على كثرة الحلف بالله أثناء الحديث . لا فرق بين البنات والأولاد ، بالنسبة لى هم على منوال واحد ، وأشعر وأنا أشاهد حالتهم المتردية هذه كأننى أتجرع السم الزعاف ، لكنى أرى أن الذنب ليس ذنبهم لكنه ذنبى أنا ، فلو كان هناك من خطأ فهو خطأى وخطؤك ، كيف ننتقد عيوبهم ، وكيف نلومهم ، وأنا لم أكلف خاطرى وأمنعهم عن ارتكاب تلك الأخطاء .

قالت له فهميده :

– لقد كنت مشغولاً دائمًا خارج البيت ، فالخطأ كله يقع علىّ أنا ، فالأطفال يأنسون بأمهاتهم أكثر من آبائهم ، ويتطبعون بطباع أمهاتهم أكثر ، بل كنت إذا وجهت لهم اللوم على خطأ ارتكبوه، كنت أنا التى تدافع عنهم، وأقف إلى جانبهم على الدوام، لقد أفسدتهم جميعًا بسلوكى هذا ، والذنب فى رقبتى .

فقاطعها نصوح :

– لا شك أنك أنت أيضًا لم تحاولى إصلاحهم ، لكنى أنا أبوهم قبل كل شىء ، فأنت عليك التربية وأنا على إصلاحهم وتهذيبهم .

قالت فهميده :

– نعم ! لقد كبّرتهم ، لكنى خربت أخلاقهم ، ومحبتى الزائدة أكسبتهم العادات الفاسدة ، كما أن تدليلى الزائد لهم خرب طباعهم، وجعل من الصعب السيطرة عليهم .

فقاطعها نصوح مرة أخرى :

– لكن لو كنت مستعدا وحريصا على أداء مهمتى ، لما أمكن أن يعصوا لى أمراً ، أو يفعلوا ما لا أريد، فقبل كل شيء أنا المسئول عنهم ، ولى عليهم سلطة مطلقة ، ليس عليهم فقط لكن وعليك أيضًا ، وعلى البيت كله .

لكن فهميده حاولت أن تشرح وجهة نظرها فقالت :

– لكن عيوبهم التى كانت تظهر لى ربما لم تكن تعرف عنها العشر ، فعطلت عقلى عن عمد ، وتغاضيت عن الكثير عن قصد ، والآن أيضًا أنت لا تدرى عن مفاسدهم التى أعرفها ، فأنت مثلاً لا تعرف عن البنات إلا اهتمامهن بالملابس ولهوهن بالدمى والعرائس ، لكنى أعرف ما آلت إليه طباعهن ، وكيف فسدت عاداتهن .

فقال نصوح :

– فى النهاية .. ما الحل ؟ ماذا يجب علينا أن نعمل ؟

– أظن أن إصلاح هؤلاء الأبناء مستحيل ..

– لا شيء مستحيل .. لكن لا شك أنه صعب للغاية .

- أنت تقول إنه صعب، الوصول إلى السماء ممكن ، لكن إصلاحهم غير ممكن ، قد تتغير أحوال الدنيا لكن هؤلاء لا يمكن أن يصلح حالهم ، ألا ترى رد ابننا "كليم" على كلامنا ، إن لديه مائة رد ورد على أي أمر تخبره به ، وليس لدينا كليم واحد ، أما الآخرون فكما يقول المثل : "تحت السواهي دواهي" ، فرغم صغرهم فهم أشرار وخبثاء .

- فهل نتركهم في هذا الضلال ليصبحوا أكثر فسادا ، هل نتركهم باختيارنا هكذا حتى تمضي الأيام ؛ فيزدادوا إثما على إثمهم ؟!

- إن تعليم الببغاء العجوز يحتاج إلي خيرزانة ! إن استطعت فابدأ باسم الله ، معاذ الله أن أمنعك أو أقف في طريقك ، فأنا أجد نفسي غير قادرة على تحمل المسئولية ، ورحم الله من عرف قدر نفسه ، فأنا أعرف مقامي عند أولادي، ومدى احترامهم لي ، فأنا أمهم بالاسم فقط ، لكن أحدا منهم لا يسمع لي كلاما، ولا يطيع لي أمرا ، ولا يعيرني حتى التفاتا !!

- لكنك نفسك قلت إن إصلاح الأطفال فرض واجب عليك ، وطالما بقيت علاقة الأم والأبناء فإن هذا الفرض معلق في رقبتك .. أتذكرين ذات يوم استيقظت لأخذ الطفل إلى الحكيم فنهضت تغسلين له وجهه ، كنت في عجلة من أمري بينما كنت تقولين اصبر.. اصبر حتى أغسل له وجهه ، وأغير له قميصه ، أتأخذه بهذا الشكل ؟! ماذا يقول الطبيب عن أمه ، سيقول إنها بلهاء لا تعرف كيف تعتني بنظافة أطفالها ، لا شك أن كلامك كان معقولا جدا ، لكن إذا أُخذ أطفالك هؤلاء إلى ربهم بقلوبهم المتسخة وأرواحهم الفاسدة ، ألن يقال إنك أم بلهاء ؟ وهناك لن يسمع

عذر ، ولن يقبل سبب ، هذا بالإضافة إلى أنك ستشاهدين أولادك يقعون في مصيبة ، ولا تستطيعين أن تدبرى أمر إخراجهم من هذه المصيبة ، ذلك لأنها مصيبة حلت بهم منذ وقت طويل ، بسببك وبسببي ، ألا يعطون المريض الذى طال مرضه الدواء ، ألا يعالج الناسور الذى غار فى جسد المريض؟ إن إصلاح الأبناء واجب على الوالدين ، لو لم نفعل هذا بسبب غفلتنا وبلادتنا ، فهل من الضرورى أن نستمر في ارتكاب معصية ترك الواجب ؟!

- أنا لا أنكر ذلك ، كما أننى لا أتهرب منه ، ولا أقول إن إصلاح الأبناء لم يكن فرضا على ، أو إنه ليس الآن بواجب على ، لكنني يائسة تماماً من إمكانية إصلاحهم ، وأنا أعرف أن محاولة إصلاحهم وتهذيبهم ، ومحاولة تأديبهم وتعليمهم مجرد مضيعة للوقت لا أكثر ، وهو سعى لا طائل منه ، وتدبير لا رجاء فيه ، وجهد ضائع لا محالة ، فهل يمكن تقويم قضيب حديد بارد ؟!

- صحيح ! لكن يبقى علينا واجب المحاولة ، أما الحصول على النتائج ، فليس من شأننا ، فهذا أمر الله . ومن يدرى لعل الله يجعل في إرادتنا البركة ، ويجعل في تدبيرنا تأثيرا ، فتصلح حال هؤلاء الأبناء ، ألن يسرك هذا ؟! الفرق بين المحاولة والفشل ، وعدم المحاولة إطلاقًا هو كالفرق بين السماء والأرض ، نهايتهما واحدة ، لكن المحاولة تكون سبب براءتنا .

- إن اتخاذ قرار فى هذا الأمر - بيني وبينك - غير ممكن ، فحالتى تختلف عن حالتك ، فالأمر الأول أن الأطفال يهابونك ويخافونك ،

لكنهم يسلكون معى سلوكًا مشينًا ، البنات يعتبرنني صديقتهن ، أما الأولاد فلا يدركون ما يهذون به تجاهى ، ولا يحفظون لي قدرى ، والأمر الثاني هو أنك لا تعرف جيدا طبيعة أبنائك ، أما أنا فأعرف كل صغيرة وكبيرة عنهم .

– هذا كله صحيح لكن خلاصة كلامك أن إصلاحهم الآن من الصعوبة بمكان .

– ها أنت تغير مجرى الحديث ، أنا لم أقل أبدا إنه صعب ، أنا قلت من البداية إنه غير ممكن و مستحيل .

– يا للأسف الشديد ! أتحدث معك طوال هذه المدة ، ولا تفهمين ما أقول ، لماذا غير ممكن ومستحيل ؟ يا سيدة !!

– يمكن أن أوافق على رأيك ، لكن هذا من أجل خاطرك فقط ، لكن لأنك تسألني الرأى ، فأنا أقول إنه غير ممكن ومستحيل ، والسبب هو أن عاداتهم تأصلت بداخلهم ، وصارت طبعا فيهم ، يستوى فى هذا الأولاد والبنات ، لا يمكننا أن نضربهم ، ولا يمكننا أن نقسو عليهم ، ولا يمكننا أن نجبرهم ، فكيف يمكن أن نغير من عاداتهم التى طُبِّعوا عليها منذ زمان .

– قصدك أنك لا تجدين تدبيراً مفيداً لحالتهم تلك ، وما قد تجدينه من تدبير سيكون غير مفيد .

– الأمر يستوى فى الحالتين .

- أنا لا أنكر أن أي تدبير عادي الآن لا فائدة ترجى منه ، فإذا كان العجين صلبًا لا يمكن أن نصنع منه الحلوى ، وما كان ممكنا عمله من قبل ، لا أمل في عمله الآن حتى يضرب بالحذاء .

- لكن إذا اتبعت سلوكا عنيفا مع الأولاد ؛ فسوف ينفر منك الجميع ، وسوف يولّد ذلك في قلوب الأولاد العناد والكراهية .

- إذا اعتبرت أن ما أفعله هو أداء لفرض واجب عليّ ، فلا يهمني أبدًا - إن شاء الله - ما يقوله العالم كله ، وليفهم الناس ما يحلو لهم، وليقولوا ما يشاءون ، لكن الشدة في رأيي تدبير غير مناسب ، وأنا أعلم جيدًا أن ابننا البكر لا يتحمل الشدة بأي شكل من الأشكال ، ولو اتبعت معه أسلوب الشدة فإن هذا سيأتي بتأثير معاكس ، وإذا كنت أنا سبب فساده فالذي يستحق الشدة هو أنا وليس هو .

- إذن أنت لن تتبع أسلوب الشدة ، كما أن أسلوب التدليل لم ينفع ؛ لأن التدليل كان سبب فسادهم ، وفي النهاية "ستعود ريمة لعادتها القديمة" ، وسيصيبنا وجع رأس نحن في غنى عنه .

- أنا سأتبع قول الشاعر :

" إن اتباع أسلوب الشدة والرفق معا هو الأفضل

فافعل مثلما يفعل الفصاد ، فهو يجرح ثم يضع المرهم"

أي اتباع الرفق في موضع الرفق ، واتباع الشدة في موضع الشدة وقلبي يخبرني أنني - إن شاء الله - سأنجح في هذا

الأمر ، فهم بنى آدميين ، يفهمون الأمور ويعقلونها ، فإن قدمت لهم النصيحة ، ولم يفهموها ، فسوف أتبع معهم أسلوب الشدة بالقدر الذى يجعلهم يدركون أن هذا ليس من شأنى ، وسلوكهم ليس فيه راحتهم ولا راحتى ، سأقول لهم ذلك ولنرى النتيجة إن شاء الله ، لكن لا يمكن أن يتحقق النجاح دون عونك ومساعدتك .

– أنا على استعداد للمساعدة بقلبى وروحى ، أنا أدرك انك تقول وتفعل ما فيه مصلحتهم ، فهل يمكن أن أكون أمًا لهم إذا قصرت فى عمل ما يفيدهم ؟

– لو اشتركت معى فى هذا العمل ستشدين من عضدى ، أنا أعرف أن الأولاد يستعينون بك كلما زجرتهم ، وهم يطلبون منك دائمًا أن تترافعى عنهم فيما يتعلق عادة بأمور البيت ، أنا لا أتهمك ؛ لأننى أستحق الاتهام أكثر منك ، لكن كلما زدت فى تدليلك للأولاد كلما صاروا أكثر فسادا ، ومهما حاولت فى أمر ليس بالضرورة أن يكون متعلقا بالدين ، بل قد يكون متعلقًا بالدراسة والتعليم ، فإننى لن أنجح إلا بتأييدك لى .

– لكن الأمر مختلف تمامًا الآن ، فعندما كانوا صغارًا كانوا يعتبروننى أمًا لهم ، وكنت أنا أسمع لتوسلاتهم ، وأقف إلى صفهم ، لكن الآن كل واحد منهم صار حر نفسه ، لم تعد لى علاقة بالأولاد ، وقد تمر أسابيع دون أن نتبادل الكلمات ، ومهما ناديت عليهم ، فلا يعيرونى التفاتا ، ولا حتى يتطلعون ناحيتى، أما البنات فيخبرننى إلى أين يذهبن ، وعند من ، وهن يجلسن فى البيت يلعبن ، بينما أنا أقوم بأعمال البيت ..

على كل حـال ، أدعـو الله أن يوفـقك فـيـمـا تنوى عـمله ، سـوف تنال مساعدتى بلا شك ، لن أقصرٍّ إن شاء الله فى عمل كل ما أقدر عليه .

– حسنا ، أرجوك أن تهتمى أولا بالأطفال الصغار.

– لا صعوبة فى إصلاحهم ، إنهم مثل الشمع السائل يجرى حيثما تحركه ، بل ربما لا نحتاج إلى إرشادهم ، فالأطفال يقلدون الكبار عادة فى أفعالهم ، ومنذ مدة قصيرة أبكتنى حميدة كثيراً ، فهى فى السادسة من عمرها لكنها ما شاء الله أخجلتنى بحديثها العاقل ، كانت تتكلم مثل الكبار ، بل مثل امرأة عجوز!!

– إيه .. ماذا حدث ؟

الفصل الثالث

(حوار فهميده و ابنتها الوسطى حميدة)

* * *

قالت فهميده لزوجها :

- حميدة تشاهدك منذ عدة أيام تصلى ؛ لهذا سألتنى أول أمس.

- ماذا يفعل أبي بعد أن يغسل يديه ووجهه ؟ فهو يظل لمدة طويلة واقفا في أدب وخشوع ، عاقدا يديه على صدره ، صامتًا لكنه يتمتم بكلمات ، ثم ينحنى ، وبعد ذلك يخر على الأرض .

فقلت لها :

- كان يصلي يا ابنتى !

- ما هى الصلاة يا أماه ؟

حين سألتني باستغراب شديد هذا السؤال ، كانت هذه أول صدمة تشعرني بالتقصير في تربية أبنائي ، فقلت لها :

- يا ابنتى الصلاة عبادة فرضها الله علينا من بين العبادات الأخرى .

فتساءلت حميدة ثانية :

- لكن يا أمي ما هو الله ، وما عبادته هذه ؟

حين وجهت أمينة إليّ هذا السؤال ، اقشعر بدني وشعرت بالندم والخوف من عذاب الله فقلت لها :

- لماذا ! ألا تعرفين الله ؟!

فردت حميدة قائلة :

- أنا أسمع كل الناس يحلفون بالله ، وأنت يا أمي حين تغضبين تقولين " يأخذكم الله ! " ؛ وهكذا فهمت أن الله مخلوق مخيف يخطفنا ، لكن إذا كان كذلك فلماذا يحلفون به ؟

- حميدة ! استغفري الله ، استغفري الله ، فالله ليس بمخلوق مخيف، الله هو الذي خلقنا جميعًا، وهو الذي يرزقنا، وهو الذي يميتنا ، وهو الذي يرعانا .

- يا أمي هل الله خلقك أيضاً ؟!

- نعم ، خلقني أيضاً.

- وخلق أبي ؟!

- نعم ، وخلق أباك أيضاً .

- وخلق أختي الصغرى أيضاً ؟!

- نعم ، وخلق أختك الصغرى أيضاً.

- يا أمي ! ألا نطبخ الطعام في بيتنا كل يوم ؟!

- لِمَ لا نطبخ الطعام ؟

- إنك تقولين بأن الله يطعمنا جميعا !!

- لقد أنزل الله الماء من السماء ، وأنبت لنا الحب والفاكهة والخضراوات في الأرض ، وهذه كلها لنا ننعم بها ونأكلها .

- لكن أختي الصغرى ترضع اللبن من ثدييك ؟!

- نعم ، هذا اللبن أنزله الله في ثديي من أجلها ، وحين كنت صغيرة أرضعتك أيضاً هذا اللبن ،الذي كان ينزل بكثرة ، لكن حدث أن اغتسلت بعد الأربعين ، فشعرت برعشة تسري في جسمي ، أصبت بعدها بحمى شديدة ، ورغم أن درجة حرارتي ارتفعت واستمرت مرتفعة لنصف يوم فقط ، لكنها أثرت على اللبن فجف في صدري ؛ فتناولت دواء يزيد من اللبن ، وشربت الكمون ، ولجأت إلى الحكماء والأطباء ، وقام جدك - يرحمه الله ويجعل الجنة من نصيبه - بكتابة آيات القرآن الكريم بماء الزعفران مع سكر النبات ؛ لأشربه كل يوم، لكن اللبن لم ينزل من ثديي ، وحين رأيت أنك ستموتين من الجوع ، أنقذنا الله من هذا العذاب الشديد الذي لا أراه الله لعدو ، ووهبك الله الحياة من جديد ، بعد أن نزل اللبن من ثديي .

- هذا يعني أن الله طيب جداً ، فهو يطعمنا جميعًا ، وينزل اللبن لأختي الصغيرة ، لكن يا أمي ! ما القرابة بيننا وبين الله حتى يحسن إلينا هكذا ؟!

- العلاقة بيننا وبينه هي أننا عبيده ، الرجال عبيد لله ، والنساء إماء لله .

- كيف يحسن إلى عبيده وإمائه بهذه الطريقة الطيبة التي لا يتعامل بها حتى الوالد مع أبنائه ، لكن العبيد والإماء يخدمون أربابهم فماذا نفعل نحن أيضا من أجل ربنا؟!

- هذه الصلاة التي رأيت أباك يؤديها لله يطلق عليها كلمة عبادة .

- نعم ! الصلاة ، وهي واجبنا تجاه الله ، إذن يجب علينا جميعًا أن نؤدي الصلاة ، عباد الله جميعا يأكلون مما رزقهم الله .

- لا شك أن عبادة الله واجب على الجميع .

- إذا لماذا لا تصلين يا أماه ؟! ألست أمة لله ؟! ألا تأكلين من رزق الله ؟!

جعلني هذا الاتهام الذي وجهته إليّ حميدة في براءة شديدة أشعر بالخجل الشديد ، فأحسست كأن الدنيا انشقت وابتلعتني ، فقلت :

- بلى أنا بلا شك أمة الله ، آكل من رزقه ، لكن أليست هناك من بين الجواري من تكون عاطلة ، كسولة ، ناكرة للجميل ، أنا إحداهن !!

- أبي بدأ يصلي بعد أن أفاق من مرضه ، ألم يكن يأكل من قبل من رزق الله .

(سمع نصوح هذه العبارة فانهمرت الدموع من عينية رغما عنه)

قلت لحميدة :

– كان هو أيضا مثلي يعمل السيئات .

– حسنا يا أمي ! ربما كان الله غاضبا من هذا .

– الأمر بلا شك يستحق الغضب .

– فلعله لا يمنع عنا الرزق ، فمن أين نأكل ، ولو جف لبن أختى الصغيرة في ثدييك ؛ فسوف تموت من البكاء .

بدأت حميدة تبكي ، فأخذتها في حضني ، أضمها إلى صدرى أقبلها ، وكلما حاولت طمأنتها كلما زادت في البكاء ، لم أستطع أن أتمالك نفسي ، وزادت حيرتي كلما رأيتها تبكي ، وتمكنت في النهاية من السيطرة عليها وقلت لها :

– حميدة ! لا تخافى ، إن الله لا يفعل بعباده هذا ، فهو لا يمنع رزقه عن عباده الذين لا يعبدونه .

– صحيح ! صحيح يا أمي !

– صحيح .. لا تقلقى .

– حسنا يا أماه ، إذن أرضعي أختى الصغيرة ، أريد أن أتأكد هل سينزل لها اللبن .

– يا بنيتى اتركى الصغيرة فى حالها فهى نائمة ، واطمئنى فالله يرزقها باللبن الكثير.

– ليس فى بيتنا عبيد ولا جوار ، لدينا خدم ، يقوم والدى بإيقاع غرامة عليهم إذا لم يشتغلوا ، فيقتطع من أجرهم ، كما أنه يطردهم أيضا من البيت ، الله لا يغضب من عباده حتى لو لم يعملوا ، فيجب علينا أن نجتهد فى طاعة هذا الرب ، أليس هذا جحودا أن نأكل من رزقه ، ولا نقدم له شيئًا .

– جحود كبير بلا شك .

– أمي ! أنا لم أقرب الصلاة حتى اليوم ، كما أنني لا أعرف كيف أصلى، إنك تأكلين مرتين فى اليوم لكننى لا أدرى كم مرة آكل كل يوم ، لا شك أن الله غاضب منى ..

نطقت حميدة بالجملة الأخيرة ثم انخرطت فى البكاء ، وأخذت تمسك بشدة بملابسي ، وتلتصق بى وهى خائفة ، وحاولت أن أهدئ من روعها فقلت لها :

– حميدة لا تخافى فالله ليس غاضباً منك ، فأنت الآن طفلة ، ولا صلاة عليك .

– لكنى آكل مثل الآخرين ، بل وأكثر منهم ..

– نعم ، تأكلين أكثر ، وهذا من نعمة الله ، فالله قد سامحك .

– إذن لماذا يطعمنى الله ؟!

– يطعمك الآن حتى تكبرى وعندئذ تجتهدين وتجدين فى عبادته .

– لكن ألا أستطيع عبادته الآن ؟! انظرى أنا أستطيع أن أخبز ، وأستطيع أن أقدم الماء لأبى ، وأستطيع رعاية أختى الصغيرة ، ألا أستطيع أن أفعل كل هذا ؟!

– نعم يا صغيرتى ، تساعديننى كثيراً فى العمل ، فأنت تحركين المروحة ، وتساعديننى فى حياكة الملابس ، فتلضمين الخيط فى الإبرة، وتأتيننى بكل ما أحتاج .

– إذن ألا أستطيع أن أقوم بعمل بسيط لله ؟ هل إقامة الصلاة أمر صعب ؟ لقد شاهدت أبى يغسل يديه ووجهه ، ويقف وقد وضع يديه على صدره ، ألا يمكننى أن أفعل هذا ؟

– علاوة على ذلك لا بد من ترتيل عبارات معينة ، هى ما تقولين إنك تشاهدين أباك وهو يتمتم بشىء .

– ترتيل ماذا ؟

– آيات من القرآن لحمد الله ، وشكره على إحسانه ، والإقرار بالذنوب وطلب المغفرة ، والرجاء فى رحمته ، والطمع فى فضله ، هذا كل ما هو مطلوب لأداء الصلاة .

– أليست هذه الأشياء ينطق بها مثلما نتكلم معا الآن ؟

– نعم ، هو كذلك .

– لكن أبى يتمتم بكلام يختلف عما نتكلم به .

– نعم ، باللغة العربية .

– لكنى لا أفهمها ، أتفهمينها يا أمى ؟

– لا أفهمها !

– هل التحدث مع الله يكون باللغة العربية ؟

– الله يفهم كل لغات البشر ، بل يعرف ما تخفيه الصدور وما فى الأفئدة .

– لماذا وكيف ؟

– لأنه موجود كل وقت فى كل مكان ، لا يخفى عنه شىء ، يرى كل شىء ، يسمع كل شىء ، يعلم ما فات وما هو آت .

تساءلت حميدة وهى مضطربة :

– وهل الله يجلس معنا هنا فى البيت أيضاً ؟

– هو معنا فى البيت لكن لا نستطيع أن نراه .

حين سمعت حميدة ما قلته ، أحكمت وضع خمارها ، وجلست فى أدب على استحياء، ثم همست فى أذنى تطلب منى أن أدلك لها جبهتها ، بعدها انتابتها هيبة ، وظلت صامتة وهى تلوذ بحضنى ، ثم أغمضت عينيها ونامت، وحين شعرتُ بالخدر فى رجلى حملتها ببطء إلى السرير ، وطلبت من الخادم أن تظل جالسة بجوارها حتى لا تفزع إذا استيقظت ولم تجدنى ، وانتابنى الخوف من كلام حميدة ، وكان قلبى ينتفض خوفًا وجزعًا .

سأل نصوح زوجته فهميده :

– لماذا انتابك الخوف من كلام الطفلة الصغيرة ؟

– هل يمكن أن يخرج هذا الكلام من هذه البنت الصغيرة ؟ ربما كانت ملبوسة أو بها مس من الجن !! .

– هذا من محاسن الدين وعظمته ، فالدين يرشدنا إلى أمور يمكن لكل إنسان أن يفهمها بسهولة ، فقضايا الدين ليست بألغاز أو فوازير يصطنعها الناس ، ثم يحاولون حلها ببذل الجهد وإعمال العقل ، بل هي قواعد ثابتة، وضوابط محكمة من لدن حكيم هو الحق ، وكما أن الأصول سهلة سلسلة ، فالضوابط أيضا سهلة وبديهية ، ولا أدرى أى قفل ضخم أغلق عقل الإنسان ، فلم يفهم هذا الأمر ، وهو أن الأرض ، والسماء، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، وجميع أنواع الحيوانات ، وأنواع النباتات ، والعالم كله والزمان ، هذا المصنع الضخم الذى يحتوى على آلاف الصناعات المختلفة ، هى فى النهاية لم توجد من تلقاء نفسها ، لا بد لها من خالق، أعطى هذا الإنسان العقل ، وخصه بهذه النعمة ، لكن للأسف لم يدرك الإنسان هذا الأمر ، وإلا فجميع المخلوقات تشهد لخالقها :

" كل ورقة من أوراق الشجر الأخضر

هى فى نظر العاقل

ورقة من أوراق كتاب المعرفة الإلهية "

وهكذا فحميدة لم تقل كلاما غريبا ، إنما الغريب هو أننا نحن الجهلاء لا نملك عقلا يساوى عقل الأطفال ، ليتنا نغرق ونموت ،

أو تخسف بنا الأرض .. وعلى كل حال ، فكلام حميدة فأل حسن ، فسننجح إن شاء الله ، يا للأسف لأنك لم تأت بها عندى ، إن كل كلمة نطقت بها جديرة بأن تعلق على صفحة القلب ، فقد أنطقها الله بما قالت ، وما ابنتي في الحقيقة سوى ملاك تقودنا لطريق الهداية ، وما قالته هذه الطفلة البريئة إنما هو بسبب طهارة قلبها، وخلو باطنها من لوث الذنوب، فالحمد لله فقد اطمأن قلبي على واحدة ، فأخبرينا ماذا سنفعل مع الآخرين ؟

– فكر أنت في اقتراح ما.

– لقد فكرت قبلا أن يكون أمر البنات من مسئوليتك ، بينما أحاول أنا مع الأولاد .

– إذن عليك أن تُفهمني كيف أتصرف ، فإذا ما فهمت اتبعت ما أفهمتني إياه .

– سوف أبدأ أولا بالصغار ، وآمل أن يصلح حالهم بسرعة ، أما الكبار فيحتاجون مني لجهد ، فأنا أعرف أنهم سيصمون آذانهم إذا عرفوا أنهم سيمضون على طرق أخرى ، لكن لا أدرى بأى أمر أبدأ ، فقط عليك أن تكوني معي بحيث يتزامن عملي مع عملك ، فحين يكون الظاهر مثل الباطن لا يمكن لأحد أن يقول انظروا ، وخاصة أن الجميع يتطلع إلينا ، فالأولاد كلهم متساوون ، لن نتعرض لأحد منهم ، والأمر الثاني هو أن يكون سلوكك كله موجه إلي الأمر الذى بيننا والذى نوليه رعاية خاصة ، لأن أى ضعف أو تهاون سيؤدى إلى فشل خطتنا بأكملها .

– إن شاء الله لن أخالف لك أمراً .

/

الفصل الرابع

(حوار نصوح وابنه الأصغر سليم)

* * *

اليوم اتفق الزوج مع زوجته على تطبيق الخطة بحذافيرها ، وأقرّا على ما اتفقا عليه .

في اليوم التالي وبينما كان سليم الابن الأصغر - الذى يبلغ من العمر عشر سنوات - يغط في نومه ، ذهبت إليه الخادمه ، وأيقظته قائلة بأن أباه يدعوه إلي الطابق الأعلى ، فنهض مضطربا حين سمع أن والده يطلبه ، فغسل يديه ووجهه ، وذهب إلى أمه وسألها :

- أماه ! هل تدرين لماذا يطلبني أبي ؟

فردت الأم :

- لا يا بني ! لا علم لي بهذا الأمر .

فتساءل سليم :

- أيكون غاضبا مني ؟

فردت الأم :

- إنه لم ينزل حتى من غرفته في الطابق الأعلى .

فتوجه سليم إلى الخادمه يسألها :

- وأنت ! هل تعرفين شيئا ؟

فردت الخادمه :

- لقد ذهبت إلى فوق لإحضار الأوانى ، وكان سيدى يجلس ويقرأ كتاباً ، وحين هممت بالخروج ، نطق سيدى باسمك ، ثم قال أخبريه أن يأتى إليّ .

- ألم تعرفى من وجهه إن كان غاضباً أم لا ؟!

- لا ... كيف .. ؟!

فاستنجد سليم بأمه قائلاً :

- يا أماه ! اذهبى معى ..

فردت الأم :

- البنت نائمة فى حضنى ، لماذا تخاف هكذا ؟ لماذا لا تذهب ؟

- فإذا سألنى ..

- إذا سألك عن شىء فأجبه إجابة معقولة .

والخلاصة أن سليما ذهب إلى فوق وهو يرتعد من الخوف ، فسلّم على أبيه ، وجلس فى ركن ، فناداه أبوه بلهجة كلها عطف وشفقة ، وأجلسه بجواره وسأله :

– لماذا لم تذهب إلى المدرسة ؟

– نعم سأذهب باقي ساعة إلى المدرسة .

– هل تذهب إلى المدرسة مع أخيك أو تذهب وحدك ؟

– أحيانا أذهب مع أخي ، لكن في معظم الأوقات أذهب وحدى .

– لماذا؟

– الامتحان في الشهر القادم وأخي الأصغر يستعد له ، فهو يستيقظ مبكرا ويذهب إلى أحد زملائه ؛ حيث يمكث معه مدة ، ولا يعود إلى البيت ، بل يذهب من هناك إلى المدرسة ، وحين أصل إلى المدرسة أجده هناك .

– ألا يجد مكانا في بيته ، فيذهب إلى بيوت الناس .

– فيه مكان ، لكنه يقول إن الأخ الأكبر دائمًا مشغول بلعب الشطرنج ؛ وهكذا فلا يمكنه المذاكرة في هدوء .

– هل تعرف أنت أيضًا لعب الشطرنج ؟

– أعرف قطع الشطرنج وكيفية تحريكها ، لكن لم يحدث أن لعبت مع أحد .

– لكن لا بد أنك ستلعب الشطرنج بعد أن تستمر في مشاهدة اللعب لأيام عديدة .

– ربما لا أستطيع طوال عمرى لعب الشطرنج .

- لماذا ؟ هل الأمر صعب لهذه الدرجة ؟!

- صعب أم سهل .. لا أميل إلى هذه اللعبة .

- والسبب ؟!

- لا تعجبنى ..

- ربما لأنها صعبة ، كل مبتدئ يجد صعوبة فى البداية ، أنا على يقين من أنك تحب لعب " الكوتشينة " وهى أسهل كثيراً من الشطرنج .

- أنا أكره "الكوتشينة" أكثر من الشطرنج .

- نعم الشطرنج تعتمد على المزاج الخاص ، بينما " الكوتشينة " تعتمد على الذاكرة وقوة الحفظ .

- ليس هذا هو سبب نفورى منها ، لكنى أظن أن جميع الألعاب سيئة.

- إننى أعجب من كلامك هذا ، وأريد أن أسمع السبب الحقيقى ؛ لأننى منذ خمسة أو ستة أشهر بينما كنت أجلس خارج البيت شاهدتك تشارك فى ألعاب متنوعة بشوق كبير .

- صحيح ما تقول .. كنت مولعا باللعب إلى حد الجنون ، لكنى الآن لم أعد أميل بتاتا إلى هذه الألعاب .

- هل هناك سبب معين ؟!

- كثيراً ما تشاهد أربعة أولاد يتأبطون كتبهم يمرون من الحارة .

– نعم هؤلاء الأولاد بيض الوجوه ، حليقو الرأس ، بسراويلهم القصيرة .

– نعم هم .

– ثم .. ؟

– هل رأيتهم يشاغبون أو يشاكسون أحداً ؟

– أبدا .

– هؤلاء الأولاد عاداتهم عجيبة ، يمشون في الشارع ورءوسهم منحنية ، إذا صادفهم أى إنسان سواء كانوا يعرفونه أو لا يعرفونه ألقوا عليه بالسلام ، يقيمون منذ سنوات فى هذا الحى ، لكن لا يسمع عنهم أحد شيئًا ، تمضى البنات ويمضى الأولاد هنا وهناك ، لكنهم لا علاقة لهم بأحد ، والأربعة أخوة متحابون ، لا يتشاجرون أبدا ولا يتعاركون ، ولا يتشاتمون ، ولا يحلفون ، ولا يكذبون ، ولا يثيرون حفيظة أحد من الناس ، ولا يتطاولون على أحد ، وهم يدرسون في مدرستنا ، وحالهم في المدرسة لا يختلف عن حالهم هنا ، لم تصدر أية شكوى ولو صغيرة ضدهم . في الساعة الواحدة والنصف عندنا فسحة لمدة ساعة ، فينصرف التلاميذ إلى اللعب والجرى والنط هنا وهناك ، أما هؤلاء الإخوة الأربعة ، فيذهبون إلى المسجد المجاور لأداء الصلاة .

– حسنا .. ثم ؟!

– أوسطهم زميلى فى الفصل ، فى يوم لم أكن قد حفظت الدرس ، غضب منى المدرس وأشار إليه قائلاً لى : أذهب عنده فى بيته وحاول أن

تحفظ الدرس معه ، وحين سألت هذا الزميل عن رأيه قال : على الرحب والسعة ؛ فذهبت إليه في اليوم التالي ، فاستقبلني في بيته ، وحين دخلت البيت شاهدت سيدة عجوز قد بسطت سجادة للصلاة فوق سريرها ، واتجهت إلى القبلة تسبِّح لله، كانت العجوز جدة هؤلاء الأربعة ، يسمونها "حضرة بي" ، اتجهت مباشرة إلى صحن المنزل ، وجلست مع زميلي ، حين انتهت " حضرة بي " من التسبيح والدعاء ، وجهت الحديث إليَّ قائلة : يا بني رغم أنك لم تسلِّم عليَّ ، لكنني دعوت لك الله أن ينصرك ويطيل عمرك ، وأن يهديك الله إلى الخير ، وحين سمعت كلامها ؛ شعرت بالخجل الشديد ؛ فنهضت على الفور ، صافحتها في أدب جم واحترام ، عندئذ قالت لي : يا بني ! أرجو ألا تسيء فهمي ، من الأصول أن يسلم الإنسان على من هو أكبر منه ، وأنا لم أقصد تأنيبك ، لكن لأنك جليس أحفادي ؛ لهذا رأيت أن أنبهك إلى هذا ، بعدها قدمت لي الحلوى ، ومنذ مدة وأنا أذهب إلى بيتها ، وهي تحبني مثل أحفادها تماما وتعطف عليَّ ، وتقدم إليَّ دائما النصيحة والموعظة ، وهكذا لم أعد أرغب في اللهو واللعب مثلما كنت من قبل .

لقد أحسنت اختصار ما حدث ، أسمعني بالتفصيل ماذا قالت لك "حضرة بي " ؟

– توطدت علاقتي بهم بعد زيارتي لهم كل يوم ، ولم تمسك عليَّ حضرة بي أي خطأ منذ ذلك اليوم الذي لم ألق فيه السلام عليها ، ولم تكن تهتم إذا ما أطلقت نكتة أحيانًا ، لكن ذات يوم تعاركت مع أحد الأولاد من جيراننا أثناء اللعب معًا ، ونشب العراك أمام باب منزلها ،

واشتد الشجار الذى بدأ بالكلام أولا ، وانتهى بضرب الأيدى ، كان الولد أضعف منى ؛ فـ"كعبلته" وأوقعته على الأرض ، وأخذت أضربه بشدة وهو يحاول التخلص منى ، وحاول بعض الناس أن يخلصوه منى بينما كان البعض يشجعنى على الاستمرار فى ضربه ، وحين خلَّصه الناس منى ، أراد أن يهجم علىَّ، وبينما كنت أستعد له إذا بأحد زملائى الأربعة ينادينى من داخل البيت ، بينما كان الناس يقولون : اتركه إنه لا يقدر على مواجهتك . والخلاصة أننى دخلت البيت فسألونى : ماذا .. مع من تتشاجر ؟ فأخبرتهم إنه هذا الولد ابن البقال النحيف مثل العصا ، الكالح الـ... لكنى والله أعطيته "علقة " ، سيظل يتذكرها طول حياته ، لم تكن ثورة غضبى وطيشى قد هدأت ، لم أكن أدرك بماذا كنت أهذى أمامهم ،حتى شاهدت جميع من فى البيت ، وقد خفضوا رءوسهم خجلا من كلامى ، وظلوا على هذه الحال للحظات .. عندئذ قالت الجدة يا سليم ! يا للأسف الشديد عليك ، فأنت ولد حبيب لكن كلامك كريه ، أيخرج مثل هذا الكلام منك ! منذ أيام وأنا أعلمك وأفهمك ، لكن ما سمعته منك الآن أكد لى على أن محاولة إفهامك أو تعليمك لا طائل من ورائها، إنه ليؤلمنى كثيرا ما اقترفته يداك ، والأهم من كل هذا أنك جليس أحفادى ، فلا قدر الله لو أخذوا من خصالك تلك شيئًا ، فالموت أهون على من تلك الحياة ، ومن الأفضل أن أهجر هذا الحى حتى لا تلتقى بهم .. كيف يصدر هذا الأمر المشين، هذا الفجور، وسوء اللسان ، قتال ثم بعده مثل هذه الشتائم المغلظة .

– يا جدتى والله العظيم أنا لم أبدأ الشجار ، لقد استدرجنى إلى العراك .

فقالت حضرة بى :

– خلاص ! لا تقسم ! أنا أعتبر القسم والشتيمة كلاهما أمر مشين إذا صدرا عمن لا يخاف الله وبمناسبة وبغير مناسبة ، وممن لا يفكر في الكلام الذى ينطق به .

– يا جدتى ! لقد بدأ هو أيضا الشتيمة والسباب .

– لماذا عرضت نفسك للسب والشتم ؟

– ليس الذنب ذنبى .

– أليس لقاؤك بمثل هؤلاء الأولاد السيئين ذنبك ؟

– أنت لا تعرفينه يا جدتى هذا الولد دائم التحرش بالناس على قارعة الطريق .

– عذر أقبح من ذنب ، والكذب يولِّد الكذب ، لا أحد يتحرش بأولادى !

– إنه لا يعرفهم .

– ويعرفك ؟

– الكذب خيبة ، لا أقول إنه لا يعرفنى .

– نعم ، الذنب ذنبك ، والعقاب هو أنك تعرضت للشتم والسب وسط الناس فى الشارع.

– لكنى انتقمت لنفسى جيداً .

- هذا هو سبب فسادك ، فقد فهمت أن ما قمت به هـو انتقـام لما أصابك ، إذا أساء إليك إنسان فسوف ينعته الناس بالسوء .

- نعم سيقولون ..

- وإذا أسأت له أكثر ، ألا يقول الناس إنك الأسوأ ؟ السب والشتم والكلام المنحط ، يشتمك فتضربه ثم تشتمه أكثر ، فيزداد العراك ، سليم هل تظن أن هناك فرقا بينك وبين هذا الولد ؟

حين سمعت هذا الكلام شعرت بالندم الشديد ، وأدركت أنه بالفعل لا يوجد فرق بيني وبينه ، وقالت الجدة بعد أن طأطأت رأسي إلى الأرض :

- لكنه ابن رجل سوقي ، وأنت من أسرة شريفة محترمة ، جدك معروف لدى الجميع، وشهرته ذائعة بين الناس يسمعون اسمه فيشعرون بالاحترام ، وأنت حفيده ، التجرؤ بقول الكذب ، وعدم التورع عن القسم ، وعدم التأمل في قول الفحش ، سليم لا أحد يحترم إنسانا لأن أباه فلان أو جده فلان ، بل يحترمون الشخص لصفاته ، وعاداته الطيبة ، وأخلاقه ، هل يمكن أن تقول بأن العادات التي اكتسبتها ، ستجعلك تنال العزة بين الناس ؟ مطلقًا لا .

بعد سماع هذا الكلام شعرت بالخجل والندم ، فبدأت في البكاء ، واغرورقت عين الجدة بالدموع ، وأجلستني بجوارها ، ووضعت على خدي قبلة وهي تقول :

– يا بنى ! أنا أقول هذا الكلام لمصلحتك ، لم يفت الأوان الآن ، لكن إذا تأصلت فيك تلك الخصال بعد أيام وشهور ، فسيصير من الصعب عليك تركها .

عندئذ أعلنت أمامها التوبة ، وقلت لها :

– إذا سمعت أننى أحلف ، أو أشتم ، أو أتكلم بفحش ، أو أكذب أو ألعب مع الأولاد السيئين ، فلا تسمحى لى بدخول بيتك .

عندئذ سأل نصوح ابنه سليم :

– هل شعرت بكراهية اللعب منذ ذلك اليوم ؟

فرد سليم :

– يا أبى خلال شهور ظللت أذهب إلى " حضرة بى " ، فكانت تنصحنى كل يوم بنصائح مختلفة ، وذات يوم سألتنى عن وقتى وكيف أقضيه ، فأخبرتها بأننى أقضى وقتى فى النوم وتناول الطعام واللعب ثم المذاكرة قليلا ، لكنها تأوهت بحسرة بعد أن سمعت كلامى ، آهة لا يزال أثرها فى قلبى حتى اليوم ، قالت : يا سليم ، ليس من بين ما قلت ما تعمله من أجل الله ، الذى جعل منك إنسانًا ، ألم يكن بقادر على أن يجعلك قطة أو كلبًا ؟! لكنه خلقك إنسانًا داخل أسرة شريفة كريمة ، فقد كان من الممكن أن تولد فى بيت أجير أو حطاب ، وكان عليك فى مثل هذا العمر أن تعمل لسد حاجتك من الطعام ، فلا تجد سوى قليل من العدس الذى لا يسد الرمق ، وقد تجد ثوبًا لكنك قد لا تجد حذاء تضعه فى قدميك ، أو غطاء تضعه فوق رأسك ، وحيثما ذهبت طردك

الناس ، وحيثما اتجهت أعرض عنك الناس ، وقد أعطاك الله صورة طيبة ، وطلعة بهية يحبك من يراك، أليس الله بقادر على أن يجعلك كريه الوجه ، بعين واحدة ؟ أليس بقادر على أن يجعلك برجل واحدة أو يصيبك بالجذام ؟ أليس من الظلم ألا تجعل لله الذى أحسن إليك بكل هذه النعم وقتا ضمن أوقاتك فتسجد له ، وتحمده على هذه النعم ؟ يا للعجب ألا تتذكره للمحة واحدة ..!

عندئذ علمتنى "حضرة بى" الصلاة ، وأفهمتنى معناها ، وهكذا قدمت لى آلاف النصائح التى لا أحفظها الآن ، لكن للأسف لم أذهب إلى بيتها منذ عدة شهور ..

وانهمرت الدموع من عينى سليم ، حين نطق بالعبارة الأخيرة فسأله والده :

– لماذا ؟ لماذا لم تعد تذهب إليها ؟ هل تشاجرت مع أحفادها ؟

– إن أحفادها يا أبى أعز علىّ من أشقائى ، لو تشاجرت معهم ؛ فلن يكون فى الدنيا من هو أشقى منى .

– إذن هل غضبت منك " حضرة بى " ؟

– أستغفر الله ، إنها سيدة حليمة ، والغضب لا يعرف طريقه إليها .

– إذن أنت الذى شعرت بالملل من الذهاب !

– لا .. فأنا مشتاق للذهاب إليها كل يوم ..

– فهل منعك أحد هنا ؟

- لا ، لم يمنعني أحد .

- إذن ما هو السبب ؟

- من الخير أن تعفيني من ذكر السبب .

- لا بد أن أعرف سبب انقطاعك عن الذهاب .

- هذا يجعلني أشتكي من بعض الناس، وقد نصحتني "حضرة بي" ألا أغتاب أحداً .

- لكن أليس عدم ذهابك هناك فيه خسارة لك ؟

- صدقت يا أبي ، خسارة ما بعدها خسارة ! لكن ليس الأمر بيدي !

- وأنا بحكم كوني والدك أطلب منك أن تخبرني بكل ما تخفيه .

- ذات يوم أكدت عليَّ " حضرة بي " على أن أقصر شعري ، ورغم أنني كنت أعتز كثيرا بشعري ، وأرتبه وأسرحه وأهتم به ، لكني أطعتها ؛ لأن ما تطلبه مني فيه مصلحتي ومنفعتي ، لم تذكر لي سببا لكنها قالت إن الشعر الطويل تستغرق العناية به وقتا طويلاً ، ولا يجب أن نضيع الوقت فيما لا ينفع ، ولا ضرورة بأن تطيل شعرك . وفي اليوم التالي حين جاء الحلاق ليزين لحية أخي الأكبر ، طلبت منه أن يحلق شعر رأسي بعد الانتهاء من أخي ، وحين سمع أخي ذلك غضب غضباً شديداً لا يوصف ، وأخذ يتكلم في حق "حضرة بي " وحق أحفادها .

انخرط سليم في البكاء فقال له أبوه :

- ما علاقة أخوك الأكبر بحضرة بى ؟ وما دخله بأفعالك ؟

- لا أدرى يا أبى كيف عرف أننى أذهب إلى بيتها ، وكان قد حدثنى من قبل مرة أو أكثر عن ذهابي إليها ، وقال إياك أن تذهب إلى بيت هؤلاء الناس الذين يعيشون على صدقات المصلين وتغسيل الموتى ، ويوم طلبت من الحلاق أن يقصر شعر رأسى قال لى : ها قد ظهر عليك أثر صحبتهم ، فتحلق شعر رأسك ويصير شكلك قبيحاً ، ها أنت سترتدى سروالا قصيراً ، ثم تحفظ الفاتحة وقل أعوذ ، وتدخل في زمرة الفقهاء والمطوعين ، ثم تكون مسخرة .

- هل أجبت عليه ؟

- يا أبى .. رأيت فى البداية أن الرد على أخى الأكبر يتعارض مع الأدب ، وحتى لو أجبته بشيء فلن أنجو من عقابه ، وقد استمر فى الإساءة إلى حضرة بى وأحفادها ولم يسكت ، طالما كنت واقفا أمامه . والخلاصة أننى لم أحلق شعر رأسى خوفا منه ، لكنى أخذت أفكر ماذا عساها تقول عنى إذا رأتنى هكذا ، وقد طلبت منى أكثر من مرة أن أقصر شعرى ، ماذا عساها تفكر ربما تظن أننى ولد عنيد ، لكنها لم تقل شيئًا ، ربما نسيت أو سكتت بعد أن شعرت بأنه لا فائدة من حديثها معى عن هذا الأمر ، لم أكن توقفت عن زيارتها ، ولما كانت قد أكدت عليّ ونصحتنى بالمواظبة على إقامة الصلاة ، لهذا كنت أصلى فى البيت ذات يوم ، وإذا بأخى الأكبر وأصدقاؤه يضحكون ، ويسخرون منى ، لكنى لم أعرهم انتباها ، فأخذوا يقلبون سجادة الصلاة ، ثم جلس أحدهم على ظهرى بينما كنت ساجداً ، فلم أستطع الانتهاء من الصلاة ،

بعد ذلك لم يكن قلبي يطاوعني كلما قصدت زيارة "حضرة بي" ؛ لأنني لا أستطيع أن أكذب عليها إذا ما سألتني عن أمر الصلاة ، كما أنني لم أطعها فيما أمرتني به ، وهكذا توقفت عن الذهاب إلى بيتها ، وتجنبت المرور من هناك حتى مضت الآن ثلاثة أشهر ، وكم كان حزني ، حين علمت بأن زميلي في الفصل كان مريضًا ؛ ولم أستطع الذهاب لعيادته في البيت .

– لكن لماذا لم تخبرني بهذه الأمور ؟

– أخاف أن أغتاب أحدا .

– كان بإمكانك أن تتكلم أمام أخيك وفي وجهه .

– لم تكن لي القدرة على هذا الأمر أبداً ، وليست لي الآن قدرة عليه أيضًا ..

– لقد تملكك الخوف دائمًا أو أن أخاك الأكبر ضربك فعلاً ؟

– لا يمكنني أن أحصي عدد المرات ، كما أنه أيضًا يعجز عن هذا الأمر .

– لماذا يضربك ؟

– كان يضربني دائمًا دون حق ، وبلا سبب .

– ألم تخبر أمك بهذا الأمر ؟

– لم أخبرها للسبب نفسه الذي ذكرته لك قبلا ، كما أنني لم أر أحداً في البيت يهتم بالصلاة أو الصوم ؛ فخشيت أن أتكلم فيغضب الجميع مثلما غضب أخي الأكبر .

– لقد مرت عليك شهور عصيبة إذن !

– لا يمكن أن أقول شيئًا ، إن ما يحزنني هو عدم ذهابي لحضرة بي ، ثم شعوري بالقهر ، وسمعت الناس يقولون : "كن كلبًا لكن لا تكن الأخ الأصغر" ، فكانت ظروفي كل يوم تؤكد صدق هذا المثل ، وكان أكثر ما يقلقني هو أنني الأصغر ، وأنه لا تعجبني عادات أخوتي الصغار والكبار على حد سواء ، وكنت أشعر من قرارة قلبي أنني غريب في هذا البيت ، لكن أين أذهب وماذا أفعل ؟

– لكن لو شئت لذهبت إلي بيت "حضرة بي" .

– سبحان الله ! ليس لي من سعادة أكبر من هذه ، لكن طالما لم أحلق شعري ، ولم أنتظم في إقامة الصلاة ؛ فلا يمكنني أن أريها وجهي .

– ولو فعلت هذا أيضًا !

– فسوف أدعو الله أن تكون طباع أسرتي وعاداتها مثل طباع أهل بيتها وعاداتهم .

– حسنا ، ولو صار الأمر كذلك .

– إذن لا أحتاج شيئًا آخر بعد ذلك .

– ما من شك يا بني أن الخراب والسوء عشعش في أحضان أسرتنا هذه ، وابتليت الأسرة كلها بالذنوب والآثام ، والبعد عن الدين ، فالجميع آثم ، والكل مذنب ، والعجيب أن سخط الله لم ينزل بنا حتى الآن ، ولم يحط علينا القهر الإلهي بعد ، وعذاب الله يقع عليَّ أنا

صاحب المسئولية في هذه الأسرة ، لقد ربيت فيكم أجسامكم لكني دمرت فيكم أرواحكم ، ذنبكم جميعا في رقبتي :

" أنا في حيرة ما هي نهايتي

وكيف يكون العقاب

من ذنوب وآثام تستحق العذاب"

سليم ! يا بني ! لك اليوم أن تفرح لأن أمنيتك ستتحقق ، والله استجاب لطلبك ، احلق رأسك ، وأقم الصلاة ، وقم بزيارة "حضرة بي" فهي من اليوم أمي وأحفادها أبنائي ، وأنا بنفسي سأذهب معك إلى بيتها لأشكرها لأنها علمتك احتسابا لوجه الله ، وأدت عني واجب إصلاحك ، ومن اليوم سترى هذا البيت – إن شاء الله – مثل بيت حضرة بي ، لن يكون هناك فرق بينك وبين أحفادها .. سليم قلبي مسرور اليوم بحديثك معي ، ستظل أعز أبنائي وأحبهم إلى قلبي ، سأجعلك مثالاً طيبًا للآخرين ، وأخوك الأكبر منك سيضطر إلى تقليدك ..

الفصل الخامس

(شجار بين فهميده وابنتها الكبرى نعيمة)

* * *

بينما كان نصوح يتحدث مع سليم في الطابق العلوي ، كان هناك شجار يدور بين فهميده وابنتها الكبرى نعيمة، التي تزوجت منذ سنتين ، ومعها الآن طفل يبلغ من العمر خمسة أشهر ، تربت نعيمة في بيت عز ، ووجدت الحب من جدتها، والحنان من ثدي أمها التي ظلت تحيطها بالعطف والشفقة ، لكن نعيمة كانت بطبيعتها حادة المزاج ، زاد من ذلك محبة أمها وأبيها الزائدة لها ، وهكذا ظهرت الخلافات بينها وبين أهل زوجها ، فمنذ اليوم الأول لزواجها وهي تتعامل معهم بطريقة جافة ؛ لدرجة أنهم امتنعوا عن الذهاب إلي بيتها ، وها هي منذ ستة أشهر جالسة عند أمها ، لم يتغير سلوكها عما كان عليه ، ورغم صعوبة وضعها داخل البيت وحرج موقفها ، لكنها لا تزال تتصف بسوء الطبع والفظاظة ، وقد كانت تحترم الكبار - إلى حد ما - قبل الزواج، لكنها الآن لم تعد تبالي بأحد ، كبيرا كان أو صغيرا ، وبعد الولادة تبجحت ولم تعد حتى تعمل اعتبارا للرجال ناهيك عن النساء .

كانت فهميده قد اتفقت مع زوجها نصوح على تحمّل مسئولية الاهتمام بالبنات ، لكنها حين تخيلت نفسها أمام ابنتها نعيمة ؛ اقشعر

جلدها ، فكيف تواجه " طولة لسان " هذه البنت وشراستها ، ومع هذا ظلت تفكر وتخطط كيف تبدأ ، لكن صورة نعيمة تتراءى لها فتقضي على جميع مخططاتها ، وظلت الأم تفكر في فرصة تحين ، ووقت مناسب يأتي ، ومع هذا أوجدت نعيمة نفسها هذه الفرصة ، حين أعطت طفلها إلى أختها حميدة في الصباح الباكر ، وذهبت لتغسل وجهها ، وحين خشيت حميدة فوات وقت الصلاة؛ وضعت الطفل ، وبدأت تصلي ، لكن الطفل كان مثل أمه ، حاد المزاج ، لم تكد حميدة تضعه من يديها حتى بدأ يبكي ويصرخ ، وعندما سمعت الأم صراخه ؛ أتت مهرولة ، فشاهدت الطفل على الأرض وحيداً يبكي بينما حميدة تصلي ، وإذا بها تجري ناحية حميدة ، وتضربها من الخلف ضربة جعلتها تسجد على الأرض قبل أن تركع !

كانت الأم قد ذهبت لقضاء حاجة ، وحين عادت ، وجدت حميدة تصب الماء على وجهها ، والدم ينزف من أنفها مثل صنبور الماء ، فسألتها وهي مضطربة : لقد تركتك الآن وأنت تصلين ، كيف حدث هذا في لحظات ؟ هل أصبت بالرعاف أو ماذا ؟

قبل أن تجيب حميدة المسكينة بكلمة ، انطلق لسان نعيمة السليط :

- إيه ! ماذا حدث ؟ أعطيتها الطفل وذهبت أغسل وجهي ، فإذا بهذه السافلة تتركه على الأرض يبكي ، بعد أن قامت تصلي ، لم تنتظر حتى أعود ، لماذا ؟ هل سقطت أنا في بئر ، ولن أعود ؟ حين رجعت وضعت يدي على كتفها لأنبهها ، فإذا بها تسقط على الأرض ، ربما جرحها مسمار حين خبطت في السرير .

فقالت الأم :

– حسنًا كيف وضعت يدك بهدوء على كتفها ، فسال الدم من هذه الفتاة المسكينة بهذا الشكل ، أي بيت هذا الذي يصبح فيه الدماء هكذا !

– في البيت الذي تترك فيه حميدة ابن أختها يبكي هكذا .. إيه !

– لكنها لم تتركه دون سبب ، ولو لم تسرع لإقامة الصلاة لفاتتها .

– ما هذا الكلام .. اتركي أمر الصلاة ، هل الصلاة أعز من ابن أختها ؟!

– يا بنت ! خافي غضب الله ، هل تكفرين ؟ بلغ بك الحال إلى ما أنت فيه ، ومع هذا لا تتعظين ، ولم يصلح حالك !

– ماذا رأيت من سوء حالي لا سمح الله ؟

– لا توجد حالة أسوأ مما أنت فيه ، فقد مضى على زواجك ثلاث سنوات ، ولم تمكثي في بيت عدلك يوما واحدا في هدوء .

– لو اخترت لي أسرة مناسبة ، لما حدث هذا .

– حقًا يا بنيتي حقًا ، كنت عدوة لك ، فالأمهاتِ يخترن لبناتهن أزواجا غير طيبين ، يقومون بتخريب بيت الزوجية .

– ألا تدرين ! لقد دفعتني وأنا مغمضة العينين إلى بيت الزوجية هذا ، فقاسيت ما قاسيت ، وعانيت ما عانيت .

– طيب يا ابنتي ! لقد رزقك الله بالخلفة ، عليك أن تفكري الآن بتزويج أولادك زيجات مناسبة !

– أزوجهم أو لا أزوجهم ، أتظنين أن أعتمد عليك ؟

– هل قلت لك اعتمدي علي ، الاعتماد دائما على الله .

– على الله ، سوف أعتمد على نفسي .

– هذه هي المرة الثانية تخطئين في حق خالقك ، ولو تفوهت بمثل هذا الكلام ثانية ، فسوف أصفعك على وجهك دون أدنى تردد.

– حقا يقولون ! مسكينة أنت ! اضربي ابنتك العزيزة ، اضربي ابنتك الحبيبة .

– عزيزة .. حبيبة .. كيف ؟ لا حاجة لنا بأولاد لا يؤمنون بالله .

– منذ متى ..؟!

– منذ أن هدانا الله .

– حسنا ، حين أصل إلى مثل عمرك ، سوف أتأدب أمام الله .

– أتعلمين الغيب ، هل كشف عنك الحجاب حتى تتأكدي من أنك ستبلغين عمري .

– الآن .. تتمنين موتي ، هذا فأل سيئ .

– لا .. ليس هناك فأل سيئ وفأل حسن ، والإنسان لا يموت بالفأل السيئ ، ولا يعيش بالفأل الحسن ، فالله قدَّر لكل إنسان حياته .

– لو كنت تقدرين ، لقضيت على فوراً .

– لو كانت لى قدرة على شيء ، لتمنيت أن أجعل منك إنسانا بمعنى الكلمة .

– ماذا ؟ هل أنا حيوان ؟!

– إن من لا يعرف الله أسوأ من الحيوان .

– هذا يعنى فى رأيك أننا جميعا حمير إلا حميدة.

– لماذا تشعرين بالغيرة من حميدة ؟ أنت لا تساوين ظفرها .

– هذا أمر الله ! يبدو أن مكانتها ارتفعت وعلت بعد أن جاءت ببعض حركات القيام والركوع والسجود !

حاولت الأم أن تمنع ابنتها من الخوض ثانية فى أمور الدين بكلام غير لائق ، وحذرتها من ذلك حتى لا تتعرض للصفع على وجهها ، وفي هذه المرة وحين استهزأت نعيمة بأركان الصلاة ، جعلت حرارة الإيمان الدم يغلى فى عروق الأم ، فصفعت نعيمة على وجهها صفعة شديدة لوحتها ؛ عندئذ ثارت نعيمة وأحدثت هياجا فى البيت ، وأخذت تضرب طفلها البريء دون سبب ، ولو لم يخلصه الناس منها للفظ أنفاسه ، بعد ذلك أخذت تأتى بحركات عجيبة ، فظلت تصرخ وتصيح لساعات ، وأخذت تمزق ثيابها قطعة قطعة ، ثم أخذت تلطم وجهها وتضرب رأسها ، وتشد شعرها حتى نتفت نصفه ، وبدأت تضرب الجدار برأسها مئات الضربات والعجيب كيف لم تتحطم هذه الرأس ،

وخلاصة القول أن جميع من بالمنزل صدموا من تصرفاتها تلك ، وخشوا أن تسمع الشرطة بما حدث فتأتي إلى البيت ؛ وهكذا أمسكوا بها ، وأدخلوها إحدى الغرف وأغلقوا عليها الباب .

كان كل هذا يدور داخل البيت ، بينما نصوح في الطابق العلوى لا يدرى شيئا مما يحدث ، وحين نزل سليم بعد حديثه مع والده ، ذهبت فهميده إلى زوجها في الطابق العلوى ، وكانت آثار التعب والإرهاق والغيظ والغضب بادية على وجهها ، فسألها نصوح من بعيد :

- خير ، اللهم اجعله خيراً ؟!

- خير بإذن الله ، لماذا تسأل ؟ ماذا عرفت ؟

- آثار التعب والغضب بادية على وجهك ، شفتاك عليهما أثر الجفاف ، ومن رأسك إلى أسفل قدميك ترتعدين ، لا بد أن يكون لكل هذا سبب ما .

قصت فهميده على نصوح حكاية نعيمة وما صدر عنها ، وتحير نصوح حين سمع ما قالته الزوجة ، وظل الاثنان معا يفكران ، دون أن ينطقا بكلمة واحدة لنصف ساعة ، وفى النهاية قالت الزوجة :

- ماذا نفعل الآن ؟

فرد نصوح قائلاً :

- الآن حدث ما حدث، لا يجب أن نتبع أسلوب اللين والرفق ، معاذ الله أن تكون ابنتنا فاسدة العقيدة، ويتعجب الناس ويتساءلون هل

نشأت هـذه البنـت فى بيـت مسلم ؟ هل أهلها مسلمون ؟ ، يبدو أنها لا تفكر فى الله على الإطلاق ، يحرم أن آكل معها ، كان خيراً ألا أكون موجودا آنذاك ، وإلا ذبحتها إذا ما تفوهت بمثل هذا الكلام أمامى ، مثل هؤلاء الأولاد عدمهم أفضل من وجودهم ، من الأفضل أن نعيدها الآن إلى بيت زوجها .

– كيف هذا ؟ نرسلها إليهم دون أن يأتوا لطلبها ، أو دون اجتماع يتفق فيه على إعادتها ، لقد مرغت كرامتنا فى التراب قبلا ، وحين جاءوا لزيارتك أثناء مرضك ، كانوا يصرون على اصطحابها معهم ، ولو كنت أعلم برأيك هذا لسمحت لها بالذهاب ، وحفظنا ماء وجهنا .

– المرأة التى لا تقدر نعمة الله ، ولا تعرف قدر ربها ، لا تستحق أن تكون لها كرامة ولا عز ولا شرف ، وجـزاؤها أن تعيش فى الدنيا بلا عز أو شرف ، وطالما لا تعرف قدر ربها؛ فلا مكان فى قلبى لمحبتها .

– ربما يصلح حالها فيما بعد !

– التوبة يا إلهى التوبة ! لا يوجد فى قلبها ذرة من نور الإيمان ، إنها لا تؤمن بوجود الله فأى أمل فى صلاحها ؟!

– ليس من الصحيح إرسالها هكذا إلى بيت زوجها .

– فلماذا تسألينى إذن عما يجب أن نفعل ، افعلى معها ما يحلو لك، لكن لا يمكن أن تكون على هذه الشاكلة، وأسمح ببقائها فى بيتى ، ومشاركتنا فى الرزق الذى ينعم به الله علينا ، الله الذى لا تؤمن به .

– لكن الله تعالى لا يمنع رزقه عن أحد ، فالجميع يأكلون من رزقه الصالح والطالح منهم ..

– أنا لا أمنع رزقه عن أحد ، لكني لا أريد أن أشرك معي في رزق الله من يكفر بالله .

– إذا اتبعنا هذا الأسلوب الشديد فقد لا يبقى معنا في البيت أحد.

– أنا لا أفكر في هذه الدار أنا أفكر دار الدوام ، فدار الدنيا أيام معدودات ، وقد تخرب اليوم ، أو تخرب غدا ، لا بد أنها ستخرب في يوم من الأيام ، هل تظنين أنها ستظل عامرة بإقامتي فيها !!

– لكن هناك فرق بين خراب البيت بعد موت صاحبه وخرابه في حياته .

– لكني أراك ضعيفة فلماذا تحملت المسئولية ، لا يمكن إصلاح هذه الأسرة وأنت على هذه الحال .

– ألا يشعر القلب بالحنان تجاه الأبناء ، لقد ربيتهم حتى يكبروا وبعد ذلك أرميهم بعيدا عني ، لا شك بأنني لا يمكن أن أصبر على هذا .

بدأت فهميده تبكي بعدما نطقت بالعبارة السابقة ، فقال لها نصوح :

– أنا لا أقول إن قلبك لا يشعر بالحنان والشفقة تجاه أبنائك ، كما أنني لا أنكر أني أحبهم مثلك ، لكني لم أطلب منك هجرهم وتركهم !

– لماذا ..؟ ألم تطلب مني الآن إرسال نعيمة إلى بيت زوجها .

– كأن حميدة لم تذهب إلى بيت زوجها أبدا ، أو أنه لا فرق بين عودتها إلى بيت زوجها ، وتركها هنا ؟

– لكن هناك فرق بين أن تذهب مسرورة فرحة، وبين ذهابها غاضبة حزينة ، وهو حزن وغضب لم يسبق له مثيل ، أنا لا أذكر أنني وضعت يدى عليها أبداً ، وكان ردى على بذاءتها وقلة أدبها تعنيفها فقط ، فإذا ما ردت عليّ، كنت أضحك في وجهها، لست أدرى كيف خرجت عن طورى ، فصفعتها على وجهها ، دون أن أنتبه إلى أنها متزوجة وعندها أولاد .

– إن لم تصفعيها على وجهها لسألتك كيف لك أنت المتدينة تشاهدين شخصا يسيئ إلى رب العالمين أمامك ، ويستخف بالدين ويستهزئ به ، ثم تسكتين عليه مع قدرتك على ردعه ؟ ولسألتك أين حميتك وغيرتك الدينية ؟ !

– تُرى لو لم أشعر بالإساءة فلماذا صفعتها على وجهها ؟!

– لا شك أنك أحسنت حين فعلت ذلك ، لكن للأسف إنك الآن تضعين اللوم على نفسك .

– لكن البنت ستضيع منا !

– ما حدث هو اختبار لك ، الإيمان والأولاد شيئان ، للأسف لا يمكن الجمع بينهما ؛ ذلك لأن أولادنا أعداء للدين ، وأعداء للإيمان ، إذا رغبت في الأولاد فلت من يدنا الدين والإيمان ، وإذا أردنا الحفاظ على الدين والإيمان وجب علينا إصلاح أولادنا ، والآن عليك أن تختارى ما تريدين .

– سأختار الدين كي ينفعني في آخرتي .

– جزاك الله خيرا ، ما أطيب ما فكرت فيه ، لا شك أن الإيمان شيء عظيم .

– بقي الأولاد .. ماذا أفعل ؟ سوف أصبر على كل حال ، فلم أكن أعرف أنني سأنجب مثل هؤلاء الأولاد .

نطقت فهميده بعبارتها الأخيرة ثم بكت في حسرة وألم ، مما جعل نصوح يشعر هو الآخر بالحزن ، فقال بعد برهة :

– تمالكي نفسك ، وتمسكي ، واذكري الله ، إذا حسنت نيتك ، فسوف يأتي الله بالخير وتصلح جميع الأحوال ، فهو القادر على كل شيء ، لو شاء لجعلهم جميعا من أوليائه الصالحين ، تضرعي لله بالدعاء أن يهديهم إلى الصراط المستقيم .

استمرت فهميده تدعو الله أن يهديهم ، وأن يتقبل منها دعاءها ، عندئذ سألها نصوح :

– حسنًا ، ماذا كانت نعيمة تفعل داخل الحجرة المغلقة عليها ؟

– كانت تبكي ، وماذا كانت تفعل !! وقد طلبت من الخادم أن تفتح الباب وتقدم إليها الماء .

– ماذا عن الطعام ؟!

– ماذا تظن ، إنها عنيدة ، قد لا تأكل قبل مرور عدة أيام .

- يا له من أمر سيئ .

- طبعًا ، لو لم تحدثني شهورا لما تأثرت ، لكنها لا تفكر مطلقا في تناول الطعام ، فمن ناحية تتعرض لآلام الجوع ومن ناحية أخرى سيجف اللبن في صدرها .

- إذن أرضعي أنت طفلها .

- أنا على استعداد لأن أرضعه مائة مرة ، لا توجد مشكلة لكن الله جعله طفلا عنيدا فهو يعرف حضن أمه ، وهم يقولون إن الطفل ذا الأربعين يوما يعرف ثدي أمه ، وقد أرضعته مرة وهو نائم لكن حين يستيقظ يرفض الرضاعة .

- إذن لا بد أن نتدبر أمر طعامها ، سوف أذهب لأتحدث معها.

- لا بالله عليك لا تنزل .

- سوف أحاول إفهامها باللين .

- لا أثق بلين الرجال ، ثم إن اللين الذي تتحدث عنه قد يتحول أثناء الحديث إلى حدة تفوق حد السيف !

- أعدك ألا أكون شديدا معها إن شاء الله .

- أرى أن تدخلك غير مناسب ، فلا بد في النهاية أن يكون في البيت شخص يلقى احترام الكبير والصغير، ولنفترض أنك ذهبت إليها وهي الآن لا تزال تشعر بالألم ، ورفضت كلامك ! فسوف تصعب الأمور ، وهذه لا تشعر بالخجل ، وقد لا تقبل كلام أحد بعد أن رفضت طلبك .

- حسناً ، لنفكر فى خطة ما ، حاولى استدعاء إحدى صديقاتها ، على أن تكون ذكية ، فربما تتمكن من استرضائها .

- نعم ، هذه خطة معقولة ، سوف أستدعى ابنة أختى صالحة ، فهما فى العمر نفسه ، كما أنهما صديقتان حميمتان تكتمان سر بعضهما .

- أوافقك هذا الرأى ، فبيت أختك بيت طيب ، جميع من فيه يحافظون على صلواتهم، بل فى بيتهم مجلس وعظ كل أسبوع ، ولا بد أن أفكار صالحة أفكار طيبة .

- الله أكبر ! بيتهم مضرب المثل على التقوى والورع فأختى - يحفظها الله - تحافظ على صلواتها ، وهى لا تذكر أن فاتها وقت من أوقات الصلاة قط ، ورغم أنهم أصحاب أولاد، وبيتهم ضاق بهم ، لكنهم قانعون راضون بقسمة الله ، وهى تقوم بجميع أعمال البيت بنفسها ، وتحافظ على الصلوات الخمس، كما أنها تختم القرآن مرة كل أسبوع .

- سبحان الله ! ما أسعد هؤلاء الناس ، ففقير الدنيا غنى الدين !

- والعجيب أنهم طوال الوقت تبدو على وجوههم البشاشة ، لم نسمع مرة أنهم اشتكوا العسرة أو ضيق ذات اليد ، وهم جميعهم - الصغير والكبير - فى حالة استغناء دائم ، لا ينظرون إلى ما فى يد الآخرين ، أما نحن فقد أعطانا الله ما أعطانا ، لكنى أقول الصدق كلما ذهبت إلى فرح أو مناسبة ورأيت امرأة تتزين بذهب أكثر منى أو ترتدى ملابس أحسن من ملابسى ؛ أشعر بالغيرة ، وهذه أيضا حال الأولاد ،

إذا ما شاهدوا شيئا عند الآخرين لا يوجد عندهم ؛ ركبوا دماغي ، لكن أختي لا تفكر أبدا بهذه الطريقة ، فإذا ما رأت حلي ومجوهراتي أو رأت ذهب البنات فرحت كثيرا وظلت تقول : ما شاء الله ، عين الحسود فيها عود ، كثر الله خيركم ، زاد الله مما عندكم ، وهكذا لو وضعت نعم الدنيا كلها أمامها فلن ترفع فيها عينيها !

– صحيح " الغنى غنى النفس " ، فالغنى فى القلب ، وليس الغنى بالمال ، لماذا تحسد ومال الدنيا وثروتها لا قيمة لها فى نظرها .

– كما أنها تحبني وتحب أولادى ، فهي تهرع إليهم تقبّلهم وتحتضنهم ، وتتمنى لهم السعادة من كل قلبها ، مع أننى لا أفصح عن أية مشاعر تجاه أولادها .

– إن محبتها لك ولأولادك هى بسبب تقواها وورعها ، وهذا لا يقتصر عليك ، فهي هكذا مع جميع الناس .

– وقد ربت الأطفال بحيث لا ينشب أبدا عراك أو شجار بينهم ، أما أولادنا فهم معا كالديوك المتنافرة .

– هذا نتيجة التربية والتعليم ، كما أنه أيضاً تأثير النموذج الطيب، ألا تقومين بدعوتهم إلى بيتنا دائما حتى يتأثر بيتنا بأخلاقهم الطيبة !

– أختى حساسة جدا وغيورة ، كم من مرة دعوتها ، فكانت ترد دائمًا بالعبارة نفسها : إنك تعرفين ظروفي .. أنا صاحبة عيال يا أختى ، ماذا يقول زوجك إذا زرتكم مع كل هؤلاء الأولاد ، لكني بلاشك سوف أحضر فى حفل زواج أولادكم حتى دون دعوة ، سوف ترين هذا إن شاء الله .

– أليس هناك من طريقة تريحهم من عناء البحث الشديد عن لقمة العيش ؟

– إنك لا تعرف طبع زوج أختى ، إنه رجل على الله ، دائمًا يقول "إن ما يرزقنا به الله يكفينا فى هذه الحياة" !

– ربما يعيشون في عوز وضيق .

– هذا أمر مؤكد ، فراتبه الشهرى عشرون روبية ، وأختى مدبرة، فعدد أفراد الأسرة كثير ، لكن كما أخبرتك ، إذا ما سألتها عن حالها شكرت الله ، والله يبارك لهم فيما عندهم ، فمظهرهم وملبسهم ليس بالسيئ ، ليسوا مدينين لأحد ، وإذا ما حدث وبادلهم البعض الهدايا أو "النقوط" فى فرح أو طهور أو ما شابه ذلك من مناسبات ، قاموا برده بأحسن منه فى إحدى المناسبات ، ولا يتركون مناسبة لدى أحد من أقاربهم إلا وشاركوا فيها دون تردد .

– يا لها من حياة طيبة !

– لا شك فى هذا، لم أرهم أبدا قلقين أو مضطربين إذا ما واجهتهم مشكلة ما ، فهم متوكلون على الله ، معتمدون عليه فى كل آن وحين .

– أنا فى حيرة من أمركما ، فأنتما شقيقتان ، ومع هذا فهناك تفاوت كبير فى خصالكما .

– كانت هذه حالى أيضا طالما كنت فى بيت أمى ، فقد علمتنا الشىء نفسه ، لكن لا تغضب ، فحين جئت إلى بيتك بعد زواجنا لم أجد هنا رائحة الدين ، وبالتدريج نسيت أداء الفرض ، ونسيت العادات الطيبة ،

يرحم الله أمنا ويجعل الجنة من نصيبها ، كانت تقية ورعة ، تحافظ على شعائر الدين ، أذكر أنها عند الزواج قالت لأمك : هذه ابنتى أسلمها لك فهى الآن ابنتك ، وانظرى إن ابنتى لم يفتها فرض طوال حياتها ، وأنا أسلمها لك الآن فأرجو أن تنتبهى لها حتى لا تفوتها صلاة أبداً ، والآن أبرئ ذمتى ، ووبال ذلك سيكون عليها وذنبها فى رقبتك ، فى الأيام الأولى كنت أشعر بالخجل ، لم أكن أتحرك هنا وهناك ، وكنت إذا ما وجدت فرصة بعد انصراف من البيت عنى قمت بأداء ركعتين ، ورغم أن أمى نبهت أمك على أمر صلاتى ، لكن أمك لم تهتم بالأمر ؛ وهكذا بدأت الصلاة تفوتنى ، وشعرت بالحزن والأسف لعدة أيام ، ثم تأصلت فى عادة ترك الصلاة ، وبعدها لم أعد أشعر بأسف على تركى للصلاة ، وبالتدريج لم أعد أشعر أيضا بالخجل من ذلك ، لكن تأصل عادة الصلاة بداخلى فى صغرى يجعلنى كلما اغتسلت قمت بأداء عدة ركعات ، أو أصلى كلما مرض طفل ، لكن حين يشفيه الله أتوقف عن الصلاة ، لكنى الآن عاهدت نفسى وعاهدت الله أن أستمر فى أداء الصلاة ، وأن أحافظ عليها ، وأدعو الله أن يوفقنى .

– آمين ، ثم آمين .

بعد ذلك نزلت فهميده من الطابق العلوى ، وأرسلت فى طلب صالحة ، وأكدت على الخادمة بأن تخبرها على الفور إذا ما وصلت صالحة إلى البيت .

الفصل السادس

(حوار نصوح وابنه الأوسط عليم)

* * *

فلما فرغ نصوح من صلاة العصر ، سأل عن ابنه الأوسط عليم وهل رجع من المدرسة أو لا ؟ فقيل له إنه رجع حالا ويغيِّر ملابسه ، فطلب منهم أن يرسلوه إليه بعد أن ينتهي .

غيّر عليم زى المدرسة بعد مدة ، ووضع كتبه فى خزانة الكتب ، ثم حضر إلى أبيه ، فقال له أبوه حين رآه :

– تعال ! عرفت هذه الأيام أنك تجتهد كثيرا .

فرد عليم قائلاً :

– امتحان نصف العام قريب ، لهذا لا بد أن أستعد له ، لم يتبق غير أيام قليلة ، وأمامى الكثير لأستذكره ، وحاولت كثيرا أن أستذكر ليلا فى البيت لكن لم أتمكن من ذلك ؛ فالناس الذين يأتون إلى أخى ويجلسون عنده ، يتصايحون بشكل لا يجعلنى أركز فى دروسى .

– ألم تحاول وقف هذا الصخب ؟

– ليس فى وسعى وقف هذا الأمر ، ويضيع على الليل ، لكنى فى النهار أترك البيت فى الصباح وأذهب إلى أحد زملائى .

– هل تستعد أيضًا للامتحان النهائى ؟

– لا يزال هناك متسع من الوقت ، بعد الانتهاء من هذا الامتحان سأخطط للامتحان النهائي .

– هل حددوا وقت الامتحان ؟

– نعم ، قبيل العطلة النهائية .

– لا لا، أنت لم تفهم قصدى إننى أسمى امتحان الآخرة الامتحان النهائى ، الامتحان الأكبر ، أليس هو الامتحان النهائى ؟!

– لِمَ لا إن أردت الصدق فهو أصعب وأكبر امتحان .

– إن كنت أسألك عن امتحانات الدنيا البسيطة هذه ، فهل يجانبنى الصواب إذا سألتك عن الامتحان الأصعب ؟

– يا والدى أنا لم أقل ذلك، فإن قلته فهذا يعنى أننى لا ألتزم الأدب ، وأننى أيضا مذنب .

– حسنًا ! أود أن أسمع منك ، ماذا أعددت لهذا الامتحان الصعب ؟

– يا والدى أصدقك القول ، أنا لم أستعد إطلاقا لهذا الامتحان .

– أليست هذه غفلة منك ؟!

– غفلة ، وأية غفلة هذه !!

– لكن شخصًا مثلك ذكي وعاقل يفعل كل هذه الاستعدادات شهوراً وسنوات من أجل الامتحانات الصغيرة في هذه الدنيا ، أليس من العجيب أن يظل غافلاً عن الاستعداد لهذا الامتحان الصعب .

– إنها شآمة النفس .

– لكن هناك سبب آخر لغفلتك .

– السبب هو تساهلي في مثل هذا الأمر .

– إنك ترد على سؤالي ، لكنك تغير الألفاظ فقط ، لقد سألتك عن سبب غفلتك ؛ فقلت التساهل ، مع أن التساهل والغفلة شيء واحد ، وكأنك جعلت الغفلة سببا للغفلة .

– ربما ساعد على غفلتي تلك افتقار البيت إلى الاهتمام بأمور الدين .

– لا شك أن هذا هو سبب غفلتك ، ولقد سعيت حثيثا لأعرف منك أن سبب غفلتك هو إهمالي أنا ، فالذنب يقع عليَّ ، ولا بد أن أعترف بذلك وجها لوجه ، ولك أنت الولد الصغير أن تلومني على ذلك .

– لا يا والدي ، التقصير كله مني أنا ، والذنب ذنبي أنا ، فقد أعطاني الله عقلا لأفهم هذا الأمر المهم، فذات يوم سأموت ، ولم يهبني الله هذه الحياة لأعيش كالحيوانات آكل وأشرب وأملأ بطني ثم أنام .

– يا عليم ! يظهر من كلامك أن معلوماتك الدينية ، ليست قاصرة ، لكني لم أعلمك القضايا الدينية ، كما أنني لم أصر عليك لتتعلمها ، فأنتم

في المدرسة لا تتعلمون سوى التاريخ والجغرافيا والهندسة والرياضيات ، ومع هذا فلديك حصيلة معلومات دينية وافرة ، من أين تعلمتها ؟

– لا شك أنني في الصغر قرأت القرآن وهو بلغة أخرى ، وقد قرأته كله وكنت أردده مثل الببغاء ، دون فهم معانيه ، أو مقاصده ، ثم ذهبت إلى الكتَّاب فلم أقرأ أي كتاب في الدين ، كنا نقرأ القصص والحكايات ، وهي ليست طيبة ، وفي اليوم الذى كنا نقرأ فيه كتاب " ربيع العلم " ، كان هناك أحد القساوسة يقف في الميدان الفضي عند السوق يعظ الناس ، وحين شاهدت تجمهر الناس وأنا في طريقي من الكتاب ، وقفت معهم ، وكان مع القسيس كمية كبيرة من الكتب ، يعطي منها الناس ، وقد حصل زملائي في الكتّاب على بعض هذه الكتب ، فكانوا ينزعون الجلد ويمزقون الأوراق ويلقون بها في الشارع ، وحين رأيت جلدة الكتب الرائعة ؛ وددت لو أحصل على كتاب ؛ فطلبت من القسيس كتابا ، كان هناك عدد كبير يلتفون حوله ، من بينهم أيضا أربعة أولاد من الكتَّاب كان الناس يتباحثون معه ويجادلونه في أمور الدين ، لم أستطع أن أفهم ما يدور جيدا، لكن كل ما فهمته أن القسيس يقف في ناحية بينما الهندوس والمسلمون ومئات الناس في ناحية ، وكان الناس يوجهون له الانتقادات الشديدة بكلام شديد ، لو وجهوه لإنسان آخر ، فربما تقاتل معهم ، لكن القسيس لم يظهر على وجهه علامة غضب أو امتعاض ، بل كان يبتسم حين يسمع كلامهم الشديد، كان الأولاد مثل العفاريت ، ظلوا يستمعون إليه مدة ، وحين هموا بالانصراف صاح أحدهم موجها إليه عبارات سخرية مما تنتشر في الشوارع : " لولو هي بي ، لولو هي "

وتأذى الناس من هذا ، وأراد بعضهم أن يضرب الأولاد لكن القسيس منعهم ، قائلا : لا أرجوكم لا تقولوا لهم شيئًا ، بل رددوا قولهم " لولو موتى " ، وربما فهم أن كلام الأولاد مدح له ، وعليه يجب مكافأة الأولاد ، وتأثرت كثيرا بسلوك القسيس ، وتأثر الجميع أيضًا بما حدث ، وحين حل المساء انصرف الناس ، وظل عدد منهم يتناقشون فيما بينهم ، وقالوا مهما كانت عقيدة هذا الرجل إلا أن حلم هذا الرجل وطيبته ، وما شابهها من صفات هي صفات أولياء الله الصالحين .

والخلاصة أن القسيس استمر في الوعظ وأنا أتململ ، أتحرق شوقا لينتهي من وعظه ، أو يقل عدد الناس من حوله حتى أطلب منه كتابا ، ولم أدر كيف عرف القسيس من شكلي أنني أريد أن أقول له شيئا ، فسألني : هيه يا سيد ! هل تريد أن تقول لي شيئًا ؟ فقلت له لقد وزعت على الجميع كتابًا ، أرجو أن تعطيني نسخة منه ، فقال القسيس : حسنا ! خذا أي كتاب شئت من هذه الخزانة ، فاخترت كتابا ضخما مجلدا بجلد ذهبي ، فقال القسيس أنا لا أعتذر عن إعطائك إياه ، لكني أسألك هل ستستطيع أن تقرأه ، أي كتاب تقرأ مع أقرانك في الكتّاب فقلت له " ربيع العلم " ، فقال القسيس ، إذًا أسمعني أول درس قرأته اليوم ، فأخرجت الكتاب من مخلاتي وبدأت القراءة ، وكان درس اليوم يتضمن كلامًا فاحشًا، فكنت أجد صعوبة في قراءة الدرس أمام الناس الملتفين حول القسيس ، ولم أكد أقرأ ثلاثة أو أربعة سطور حتى قال لي : لا شك أنك ستستطيع أن تقرأ جيدًا الكتاب الذي اخترته لنفسك ، وأنا أهديك هذا الكتاب بكل سرور ، لكني آسف لأنني جعلتك تقرأ مثل

هذا الكتاب الذي جعلك وجعل من استمع إليك من الناس مذنبين في حق الله ، فليعف عنا الله ، وليغفر لنا خطايانا ، والأمر كله لك ، أن تسمع كلامي أو لا تسمعه ، اترك هذا الكتاب ؛ فمحتوياته تتعارض مع تعاليم دينك أيضًا، إنني أقول لك الصدق ، من الأفضل لك ألا تقرأ مثل هذا ، فالكتاب الذي تقرأه يقودك إلى طريق الذنوب والفواحش وسوء الخلق ، وقلة الحياء ، ومع أن الناس كانوا يقاطعونه كلما تكلم إلا أن الجميع اعترف بصحة ما يقول .

لم أعرف اسم الكتاب الذي أخذته من القسيس ، لكنه مكتوب بلغة أردية سهلة ، ويحكي سيرة رجل عابد لله ، تقي ورع ، ومع أنني كنت أطمع في الحصول على الكتاب في حد ذاته، إلا أنني فكرت في مطالعته لأرى محتواه ؛ وهكذا بدأت أتصفحه ، وكلما قرأت صفحة شعرت بالرغبة الشديدة في الاستمرار في القراءة ، وأعجبني مضمونه ، فقد أدركت بعد قراءة هذا الكتاب أن طريقة حياتي أسوأ من الحيوانات ، وأنني أسوأ مخلوق على وجه الأرض ، فكنت أبكي على حالي ، وأشعر بالسقم كلما شاهدت أحوال أسرتي في البيت ، وكنت أحيانًا أضحك على الناس الذين وقعوا في المصائب ، لكني صرت أشعر - بفضل مطالعتي لهذا الكتاب - بالأسى من أجلهم .

ومنذ ذلك اليوم ودعت الكتّاب و " ربيع العلم " كليهما ، كما نصحني القسيس ، وجلست وحيدا في البيت ، أطالع هذا الكتاب ، وقد حضر زملائي في الكتّاب عدة مرات ، ليصطحبوني معهم لكني لم أذهب ، وفي النهاية حضر شيخ المكتب بنفسه ، وتشجعت ، وقلت له - بوضوح -

أنا لا أريد أن أذهب إلى الكتّاب ، وكنت يا أبى قد سافرت إلى الدكن فى ذلك الوقت ، وذات يوم حدثت لى مصيبة ففى أثناء غيابى ، وقع نظر أخى الأكبر على الكتاب ، كان ذلك قبل الاحتفال بليلة النصف من شعبان بعدة أيام ، فصنع أخى من أوراق الكتاب صواريخ نارية من أجل الاحتفال بتلك الليلة ، وشعرت بالحزن الشديد لما حدث ، ورغبت فى الحصول على نسخة أخرى من الكتاب ، فأخذت أبحث عن القسيس ، لكننى عرفت أنه ذهب إلى آكره ، فجلست أندب حظى ، وشكوت أخى لجميع أصدقائى ، وكان قد قال لى : أحمد الله على أن الكتاب تمزق ، وإلا صرت نصرانيا ، وحين سمعت كلامه تعجبت كثيرا ، فإذا كان حال النصارى هو حال من قرأت عنه فى هذا الكتاب ، فلماذا نسىء إليهم ، على كل حال ، استمرت هذه الأفكار تموج بداخلى حتى التحقت بالمدرسة ، وبدأت وجهة أخرى ، ولو كانت لى علاقة بالدين والعقيدة الآن ، فإنها من تأثير هذا الكتاب فقط ، وإلا فأنا لم تقع عيناى - ولو بمحض الصدفة - حتى على مجلة دينية .

أنصت نصوح إلى حديث عليم الطويل ثم قال :

- لا يوجد فرق بين تعاليم الأخلاق لدى أهل الديانات ، لكن تشابه التعاليم الأخلاقية بين الإسلام والنصرانية أوضح من أية ديانة أخرى ، فالقرآن الكريم يذكر النصارى ، ويعظم علماءهم ورهبانهم ، ويمتدح رقة قلوبهم وتواضعهم ، بل الإسلام يسمح بالزواج من المرأة النصرانية ، وخلاصة القول إن ما يثار بين الإسلام والنصرانية أمر غير جائز ، ولا أظن أن كتب بعض علمائنا ستترك فيك أثرا أطيب من الأثر الذى تركه

فيك الكتب الذى أخذته من القسيس ، فذلك الكتاب يؤكد على أمور أتمنى أن تتأصل عندك وهى التعاطف والمودة ، وأظن هذا ما طالعته فى هذا الكتاب .

فرد عليم قائلا :

– مع أنه كتاب دين ، لكنه يركز على أن التواضع والتعاطف شرط للنصرانية .

فرد الأب :

– شرط للنصرانية ، بل شرط للإنسانية :

" خلق الله الإنسان آدميا حتى يشعر بالألم فى قلبه

وإلا فمن ذا الذى يطيع الله أكثر من الملائكة "

لكنى أريد أن أسمع منك ، إلى أى مدى طبقت هذا الواجب؟

– يا أبى ! لو سميت هذا تعاطفًا ، فإننى لا أبخل قط على زملائى فى المدرسة إذا ما سألونى شيئًا، أو طلبوا منى مساعدتهم فى الدروس، مع أننى لا أعتبر نفسى أعمل شيئًا غير واجب ، وما أحصل عليه من جائزة مالية عن الامتحان النهائى لم أنفق منها شيئًا، لكنى كنت أوزعها على بعض أهل الحى من المحتاجين المعوزين ، بل وقعت مرة فى حرج شديد .

– كيف كان هذا ؟

– فى يوم العيد صنعت لى أمى " طاقية " غالية جدا ، وكنت أضعها على رأسى حين كنت ذاهبا إلى بيت خالتى ، وحين وصلت إلى حارة " الشيخ المسكين " شاهدت موظفى المحكمة يتجمعون عند بيت ، ومن حولهم حشد كبير من الناس يتفرجون على ما يحدث ، فذهبت أشاهد ما يجرى ، فشاهدت امرأة عجوزا فقيرة جداً ، حولها عدد من الأطفال الصغار ، بينما محضر المحكمة يقبض على زوجها بسبب دين عليه لأحد المرابين الأثرياء ، وكان المرابى قد أخذ عليه حكما برد الدين . لم يكن الرجل ينكر الدين، لكنه كان يطلب مهلة؛ لأنه لم يكن يملك شيئًا ، ورغم رجائه المرابى ومحضر المحكمة ، لكنهما لم يسمعا لرجائه ، وتم القبض على الرجل لاقتياده إلى السجن ، وحاول الناس استرضاء المرابى الثرى قائلين له : يا حضرة ، لقد صبرت أياما عديدة ، فاصبر خمسة أو ستة أيام أخرى ، لكن المرابى قال : " حسنا يا سادة حسنا ، ما أطيب ما قلتم ، هكذا سيقول لى كل المديونين ، والله يعلم من منهم سيرد لى نقودى .

كان المديون رجلا فقيراً ، لكنه يتصف بالغيرة والحمية ، وحين استثاره المرابى ، وأراد أن يمس كرامته ، احمر وجهه ودخل على الفور إلى بيته ، أراد أن يأتى بالسيف ، ليطيح برقبة المرابى ، لكن زوجته تمسكت بذراعيه وهى تبكى قائلة : بالله عليك ماذا تفعل ، غضبك هذا من قبل هو الذى جعلنا هكذا لا نملك شيئًا ، ثم ماذا ستكون النتيجة سأبقى وحدى مع الأولاد ، فمن بعدك سيسأل عنا ، وحين رأى الأطفال الأم تبكى ؛ بدءوا يصرخون ويولولون ، وقد اهتز قلبى واندفعت مع

الجميع نمسك بالأب الثائر ، وهدأ الرجل وأعاد السيف قائلا لزوجته : إذن أيتها التعيسة فكرى لنا فى طريقة تنجينا من هذا الذل ، فقالت الزوجة أعطه كل ما فى بيتنا ، حتى نخلصك من هذا القيد ، ولتبقى معنا على أية حال ، ولنرى ما سيحدث ... وهكذا أخرج "قرص" الخبيز، و "طست" الماء ، وبعض الأوانى ، كان هذا كل ما فى البيت ، وجاءت بإسورتين من الفضة رفيعتين مثل الخيط ، كان هذا كل ممتلكات المسكين ، قدمها للمرابي الذى رفض أن يمس هذه الأشياء ، وحاول الناس أن يتفاهموا معه ، لدرجة أن محضر المحكمة رق قلبه أيضاً وحاول أن يسترضى المرابى الذى قبل فى النهاية ، ثم قال أصل الدين خمسة والفائدة روبيتان ، المجموع سبع روبيات ، فإذا أعطانى المبلغ قبلت التوقيع على إخلاء سبيله ، لكن متاع المسكين كله لا يساوى إلا أربع روبيات أو أربع روبيات ونصف ، وعادت الزوجة تبحث فى بيتها عن شيء ، ثم تذكرت شيئا وتنهدت : آه لا يوجد سوى قرط الطفلة الصغيرة الفضى ، ها هو فى أذنها ، سوف يكمل المبلغ . كانت الطفلة فى السادسة من عمرها تقريبًا ، تماماً فى عمر أختى حميدة ، وبينما كانت الأم تخلع القرط من أذنيها كانت الطفلة تبكى بحسرة ، بشكل قطع قلبى ، ولم أتمالك نفسى فقلت : يا إلهى ألا يمكننى مساعدتهم ، فتذكرت أن معى روبية وبعض "الفكة" ، ثم تذكرت الطاقية التى صنعتها لى أمى ربما أتمكن من تسديد دين هذا المسكين ، وهرولت إلى السوق القريب ؛ فبعت الطاقية بست روبيات ، وأضفتها على ما كان معى ، ثم وضعت الروبيات السبع فى يد المرأة دون أن يشعر أحد ، وكان محضر المحكمة قد مضى بالمسكين بينما البيت كله امتلأ بالصراخ والعويل ، وحين

شاهدت المرأة الروبيات السبع في يدها جن جنونها فرحا ، وفي غمرة الفرح لم تفكر كيف وصلتها الروبيات ، ومن أعطاها إياها ، فقدمت الروبيات إلى جارها وهي تستعجله ، ثم وقفت مع أطفالها على باب البيت ، حتى عاد الزوج فأخذ الأطفال ينطّون فرحًا ، ويقفزون على كتف أبيهم أو يندفعون إلى حضن أمهم ، أو يتشقلبون على بعضهم .

انتبهت المرأة إليّ ثم قالت للأطفال : " يا أيها الأشقياء ! علام هذا الهرج والمرج ، وأشارت ناحيتي ادعوا الله أن يحفظ لهذا الرجل صحته وماله ، فقد أنقذ أبيكم وأنقذكم أيضًا ، وإلا لما وجدتم كسرة خبز ، لو كان لكم عم أو خال ؛ لتعاطف معكم وساعدكم وقت الشدة ، لكن ليس لنا غير أبيكم بعد الله ، الذي حفيت قدماه ، بحثًا عن الرزق ، والحمد لله والشكر لله الذي يرزقنا قوتنا يوما بيوم ، حتى لو كان ذلك قوت وجبة واحدة ، هذا الشاب هو بالنسبة لنا ملاك الرحمة ، ليس بيننا معرفة ولا قرابة ، ثم قام عبد الله هذا بدفع المبلغ عنا ، فأعاد إلينا جميعا الحياة من جديد.

والله يا أبي ! لا زلت أشعر في أعماق قلبي بحلاوة السرور الذي حظيت به من نظرات الشكر التي وجهها إلى الأطفال .

لم أشعر بالسرور من دفع أي مبلغ من المال طوال عمري مثلما شعرت في ذلك اليوم ، لكن الزوجان لم يعتقدا أنني أعطيتهم المبلغ صدقة لوجه الله ، فقد ظنا أنني أقرضتهم المبلغ ، أخذتني المرأة إلى بيتها ، وفرشت "طرحتها " وأشارت علي بالجلوس ، وهي تقول لزوجها :

أليس عندي تمييز ؟ لماذا تقف هكذا ؟ اذهب وأحضر من السوق بعض " القات " فقلت لها :

- لا ، شكرا أنا لا أخزن القات ، لا داعي للتعب .

- هل خدمتك بتقديم واجب لك تعب لنا يا ابني ! إن كان بيدي فرشت لك رموش عيني ، هذا الكرم ، وهذا السخاء ! يا ابني ! أخبرنا من أنت ؟

- يا خاله أنا أسكن في " سراي الشيخ صابر بخش " .

- يا ابني متى تطلب منا هذا المبلغ ؟ سوف أضع وأولادي الحجر على بطوننا حتى نوفر المبلغ ، ونرد الدين في أقرب فرصة ، لكن كما تعرف الحال واقف هذه الأيام ، وأظن أننا يمكن أن نسدد المبلغ خلال شهرين ، ولما كنت قد فعلت معنا هذا الجميل ، فبالله عليك وافق على أن نقسط الدين ؛ فتأخذ منا روبيتين كل شهر .

- يا خاله ! لا تفكروا في رد هذا المبلغ ، حين أعطيته لك لم أكن أنوي أن أسترده .

سمعت الأسرة هذا الكلام ؛ فعمها السرور والفرح ، بشكل لا يمكنني بيانه ، وأنا جالس بينهم كأنني ملك يجلس بين رعاياه ، أو شيخ طريقة يحيط به مريدوه .

لم تكن كلمات الشكر فقط تخرج من فم تلك المرأة ، لكنها كانت تمسك بيدي تقبلها ، وتضعهما على عينيها ، ثم تمسح بيديها جبيني ،

وحين وضعت المنديل على رأسى ، لاحظت أننى لا ألبس طاقيتى ، وحين سألتنى اضطررت أن أخبرها : بأننى بعت الطاقية وأعطيتها النقود ، ومن هنا بدأت توجه إلى الشكر من جديد وترفع الدعاء لله أن يحفظنى. لا شك كان المبلغ الذى أعطيته لها سبع روبيات ، لكنها دعت الله لى مئات بل آلاف المرات ، وكانت كلما أظهرت لى الاعتراف بالجميل ، بادلتها الأمر نفسه ، وشكرتها على دعواتها لى ، وشعرت بالخجل من جراء تعبيرهم عن الشكر والامتنان ، حتى كدت أن أسقط على الأرض .

والخلاصة أننى تركت المكان ، واتجهت فوراً إلى البيت لأننى لم أكن أضع طاقية على رأسى ، وفى الوقت نفسه صادفنى أخى الأكبر فى الحارة، فتعجب حين رأى منظرى ، ورأسى عارية فقال : أنت ! هل اشتريت حمصاً بثمن الطاقية ؟! فلم أرد عليه ؛ لأننى أعرف أنه لا يوافق على ما فعلت ، وفى المساء تشاجر أخى مع أمى ، فقد كان يطلب منها نقودا لكنها رفضت قائلة إن هذه مصاريف لا داعى لها ، وإنها أعطته قبل يومين أربع روبيات ، وذكرت أنها تساوى بيننا نحن الأربعة فى العطاء ، وسألته إن كان يشترى للبيت حتى إبرة !! وأنها لا توافق على هذا الإسراف .

فقال أخى : أنا لست مسرفا ، المسرف هو ابنك هذا الذى تعتبرينه شيخا كبيرا فقد باع حتى طاقيته .

نادتنى وأمى ، وسألتانى عن حقيقة الأمر ، فقلت : لو كنت فعلت ذلك فاعتبرونى لصاً ، وعاقبونى ، فقالت أمى :

- إذن أين أضعتها ؟

- لم أضيعها يا أمي .

- اسمع يا ولد كلامك عجيب ، لم تبعها ، ولم تضيعها ، لكنها اختفت فأين اختفت ؟

- لو وثقت في كلامي ، فاعلمي أنني لم أضيعها هباء .

- لا أفهم كلامك هذا وأنت متعلم ، فأخبرني بكلام مفهوم هل أعطيتها لأحد التجار !

في ذلك الوقت شعرت بأنني وقعت في ورطة ، لم أكن أريد أن أخبرها ، كما أن عدم إخبارها بالحقيقة يضعني في موقف محرج كما قال الشاعر :

" صعب إن أفصحت ، وإن لم أفصح فالأمر أصعب "

لكني تأكدت من أنه حين يتضح موقفي ، فإن قول أخي وسكوتي سيجعل أمي تسيء الظن بي ، لهذا لابد من أن أطمئنها ، حتى إذا ما صدر عني مثل هذا العمل مستقبلاً ، فلن تظن أن ابنها يمضي على طريق خطأ ، لم تعرف سر الطاقية حتى الآن ، لكنها قدرة الله ، فلم يكد يمض أسبوع واحد حتى مرضت صالحة فذهبت أمي لعيادتها وكنت معها ، وقبل أن تنزل أمي من العربة ، قدم الرجل المسكين الذي دفعت عنه دينه مهرولاً حين رآني، ويدأ يدعو لي، ويسأل عن صحتي وعافيتي ، وكأنه يسأل عن حال عزيز له ، فأجبته بطريقة مناسبة ، وكانت أمي قد

تراجعت إلى داخل العربة ، فسمعت ما كان يدور ؛ فسألتنى حين نزلت :

– عليم ! من ذلك الرجل الذى كان يتكلم معك ؟

– هذا رجل طيب ، يسكن فى حارة الشيخ مسكين ، هذا كل ما أعرفه عنه .

– لكنه يتحدث إليك بطريقة تدل على أنه يعرفك منذ سنوات .

– لا .. ربما لا يعرف حتى اسمى .

– إذا لماذا يعاملك بهذا الحب والامتنان، ويشكرك بهذه الطريقة .

– هذه عادة بعض الناس ، يقابلون الآخرين بالترحيب الزائد ، رغم المعرفة البسيطة .

رغم أن كلامى لم يقنع أمى ، لكنها كانت تريد أن تدخل إلى البيت بسرعة ؛ فلم تسألنى عن شىء ، وعدت أنا إلى البيت ، لكن فى أغلب الظن أن زوجة الرجل المسكين ذهبت إلى أمى ، وقصت عليها حكاية الطاقية والنقود وكل ما جرى ، لأن أمى حين رجعت بدأت تقول :

– عليم ! لقد ضبطتك ؟

فسألتها وأنا فى حيرة :

– ماذا ضبطت ؟

– نعم ، ضبطتك !!

- إذن أسمعيني !

- أخبرني أولا عن أمر طاقيتك ، عندئذ سأخبرك كيف ضبطتك ؟

عندها فهمت كل شيء ، وضحكت ، ثم لازمت الصمت .

بدأ نصوح في الكلام فقال لعليم بعد أن استمع للقصة كاملة :

- لا شك أن ما ذكرته الآن يدخل في باب التعاطف ، وخاصة حكاية الرجل المسكين فهي مثال على أعلى درجات التعاطف ، لكن يجب أن نروي أولاً الأماكن التي يخرج منها ينبوع الماء ، وهكذا فالأقارب هم الذين يستحقون أولا العطف والإحسان والسلوك الطيب .

- الشكر لله والحمد لله ؛ لأن أقاربي ليسوا بحاجة إلى عطفي عليهم فقد أعطاهم الله من الخير الكثير وجعلهم في غنى عني .

- هل السلوك الطيب والعطف يقتصر على التصدق بالمال فقط ؟

- هكذا فهمت .

- لا يا بني ! إن المحتاج لشيء ما مهما كان ، تكون مساعدته وأداء حاجته نوعا من التعاطف ، إن أسرتنا لا نصيب لها من التدين ، وهي تفتقر إلى معرفة الله عز وجل ، وبحاجة إلى أن تتعلم طبع التقوى والزهد والورع ، كما أنها بحاجة إلى الوعظ والنصيحة ، وأنت لم تؤد هذا الواجب لأنك لم تعتبره - حتى الآن - من الواجبات اللازمة عليك .

- حقا ما قلت يا والدي ، لقد ارتكبت خطأ كبيراً .

– لكن ما ارتكبت أنا أعظم ، على كل حال يجب أن نتلافى ما فات ، وقد صممت ألا أسمح لأحد فى البيت أن يعيش حياة الاستهتار والمجون بعد اليوم ، ورغم أننى أعترف بكل أسف ، وبكل حسرة أنه لم يعد هناك وقت كاف للإصلاح ، وأن عزمى هذا عزم الضعفاء ، لكن لو مددت لى يد العون ، فيمكن أن آمل فى النجاح .

– إن شاء الله ، ستجدنى ابنًا بارًا ، ولن أعصى لك أمرًا ، لكنى فى حيرة كيف يمكننى مساعدتك يا والدى ؟!.

– مساعدتك لى هى فقط أن تكون مثالاً للإنسان المتدين التقى الورع ، ومع أننى أعرف أنك الآن مشغول بالمذاكرة من أجل الامتحان ، وأنك أعلنت التوبة عن اللهو واللعب ، لكن عاهدنى على أن تتوب إلى الله توبة نصوحا ، وأن تتجنب اللهو فى بلعب الشطرنج ، واللهو بالحمام وغيرها من الألعاب التى لا طائل من ورائها .

– كلامك كله من أجل منفعتى ، وإن عصيت أوامرك فسأكون عاصيًا ، مذنبا فى حق الله ، ومذموما فى الدنيا والآخرة ، ولو قلت لى أمرًا ليس فيه صالحى ، فليس أمامى إلا أن أطيعك ، فأنا أعرف وجوب العلاقة بين العبد وربه ، وبين الغلام ومالكه ، وبين الرعية والملك ، وبين الخادم وسيده ، وبين الزوج وزوجته ، وبين التلميذ وأستاذه ، وبين الابن ووالده ، وأنا أعدك – إن شاء الله – أن يكون أسلوب حياتى هو ما توافق عليه ويثلج صدرك .

- بارك الله فيه وجزاك الله خيراً ، لقد أدخلت السرور اليوم على قلبي ، بيض الله وجهك في الدنيا والآخرة . الآن ! اذهب وشأنك ، وأرسل لي أخاك الأكبر .

- لعلك تريد أن تتحدث معه في الموضوع نفسه .

- ضروري ..

- إن لم تحدثه مشافهة فهذا أفضل .

- كلامك في محله ! إنني أفكر في هذا الأمر منذ عدة أيام ، ثم وصلت إلى نتيجة مفادها ضرورة مناقشته وجها لوجه لأتم الحجة عليه .

الفصل السابع

(طلب نصوح ابنه الأكبر كليم ، حاولت فهميده وعليم إقناعه بتلبية رغبة أبيه في التحدث معه ، لكنه لم يذهب إلى أبيه ، وأصر على عدم الذهاب) .

* * *

طلب عليم الإذن ، وخرج من عند أبيه ، وذهب إلى قاعة الرجال ، فأبلغ كليما بأن والده يريد التحدث معه . فرد كليم عليه بقوله :

- ماذا ؟ خير ؟ إنه يهتم كثيرًا بكم هذه الأيام .

- لماذا ..؟ ألم يهتم بنا قبلا ؟

- اسألوا سليمًا عن هذا .

في هذه اللحظة ظهر سليم على الباب ، لكنه كان قد حلق شعر رأسه ؛ فجاء يمشي على مهل خشية أن يراه أخوه الأكبر ، ودخل البيت على أطراف أصابع قدميه ، لكن المسكين لم يكد يدخل البيت حتى سمع صوت كليم ؛ فأخذ يرتجف من الخوف ، وظن أن القيامة ستقوم لأنه حلق شعر رأسه ، لكنه حين رأى أخاه الأوسط جالسا ، دخل ببطء ، ووقف عندهم وقال دون أن يسأله أحد : لقد حلقت شعر رأسي بناء على رغبة أبي . فقال الأخ الأكبر للأخ الأوسط :

– انظر إلى شكله ولا تسأل عن حاله ، فعطف أبيه عليه جعل شكل المسكين هكذا ، فخرب عليه ما ظل يحافظ عليه طويلاً :

" نحن الذين قبحنا من شكلنا

وهم الذين حسنوا من شكلهم "

– لماذا يا سليم ؟ ألا تحب أبدا أن يكون شكل شعرك جميلاً ؟

فقال الأخ الأصغر :

– منذ مدة أفكر في حلق شعري، بل لعلك تذكر أنني ذهبت للحلاق، وكدت أجعله يقص شعري ، لولا غضبك الشديد عليّ ؛ مما اضطرني للقيام من عند الحلاق .

– آه الآن أتذكر هؤلاء الأربعة النين أعتبرهم العناصر الأربعة للمكر والخداع ، كانوا يفسدونك ، ما فائدة دراسة هؤلاء المغلقة عقولهم في الكلية ؟! صدق الشاعر :

" كيف لصحبة عيسى أن تجعل من الحمار إنسانًا

متى جعلت التربية من البليد عالمًا "

فقال الأخ الأصغر :

– إنك تسيء إليهم بدون حق ، مع أن أبي يوافقهم على رأيهم .

فرد الأخ الأكبر :

- هل قال أبي هذا الكلام بعد أن شفي من مرضه ، أو أنه كان قد قاله قبل ذلك ؟!

فقال الأخ الأصغر :

- لا ، لم يقل هذا من قبل .

فقال الأخ الأكبر :

- إذا فلتعلموا أن أبانا أصيب بخلل في عقله ، لقد قلت هذا منذ البداية ، دواء الإسهال الذي قدمه له الطبيب وصل تأثيره إلى الدماغ .

فقال الأخ الأوسط :

- أي كلام هذا الذي تقول ؟! لقد جئت الآن من عنده ، بعد أن ظل يحدثني لساعتين، وفي رأيي أن أفكاره أفضل كثيرا مما كانت عليه قبلا .

فقال كليم :

- سمعت أنه يكثر من الصلاة هذه الأيام .

فرد الأخ الأوسط :

- هل تسمي هذا خللاً في الدماغ ؟

فقال كليم :

- هل يستلزم خلل الدماغ أن تنبت في رأس الإنسان قرون ؟ شفي من المرض ، كان عليه أن يقيم وليمة بهذه المناسبة يدعو إليها الناس في المدينة ؛ حتى يعرف الجميع أنه عاد إلى طبيعته ، لكنه شفي من مرضه ،

فقام يتثاءب ويتأوه ، وقد رأيته أكثر من مرة يصلى فى المسجد . كان الإمام ذلك القمّاش ، بينما يصلى خلفه السقا ، والحلاق ، والبقال ، ومن يلوذون بالمسجد من المسافرين وغيرهم من أمثال هؤلاء ، وكلما رأيته – يا أخى – يصلى مع مثل هؤلاء أشعر بالخجل ، لدرجة أننى غيرت طريقى ، ولم أعد أمر من عند المسجد . وهؤلاء "المستشيخون" الذين صاروا من جلساء أبينا ، جعلوه يقضى أوقاته معهم ، يتناولون معا طعام المساكين ، وما يرسل للمسجد من أكل، ومع ذلك فهؤلاء "المستشيخون" يركبهم الغرور ، يمشون فى الشارع كأنه لا أحد مثلهم ، ماكرون ، مخادعون ، يلقون السلام من بعيد كأنهم يلقون حجراً، لا يرفعون أيديهم بالسلام ، ورءوسهم دائمًا متجهة إلى مواضع أقدامهم .. يا سليم هل أمرك أبوك فقط بحلق شعرك أو أمرك أيضا بالصلاة ؟!

فرد سليم الأخ الأصغر :

– يا أخى ! لقد أكد كثيراً على الصلاة ، وحذرنى من أن يفوتنى وقت الصلاة ، كما حذرنى أيضًا من لعب الشطرنج ، وقضاء الوقت فى تطيير الحمام ، أو عراك الطيور أو اللعب بالشطرنج ، وأمرنى ألا أكذب أو أحلف أو أتكلم بكلام فارغ ، أو أجلس مع من أهم أكبر منى .

فقال كليم :

– ألم يقل لك أيضًا اذهب والق حتفك !

حين سمع عليم الأخ الأوسط هذه الجملة أنفجر ضاحكا وقال :

– هل تنفيذ هذه الأوامر عندك يعنى الموت ؟

فرد كليم :

– حين يمنعه من جميع الألعاب ، ويمنعه من لقاء الناس ، ومن التحدث والكلام ، فقل لى حقًا هل هناك فرق بين مثل هذه الحياة وبين الموت ؟ فالشاعر يقول :

" الحياة اسم للقلوب الحية

فالقلوب الميتة تعيش تحت التراب "

فقال عليم :

– أنا أعتقد أن الحياة التي يدعونا إليها ، تهبنها سروراً روحانيًا أكثر من حياتنا التي نعيشها ، فرغم أننى مقلّ هذه الأيام فى اللعب واللهو ، لأن واجبات المدرسة والدروس الكثيرة لا تسمح لى بذلك ، لكن لا يصيبني من اللهو واللعب غير الأسف والقرف، أما مخالطة الأصحاب والأصدقاء ، فلا أظن أن من بينهم صديق وفيّ مخلص لصديقه ، وإلا أخبرني من منهم لا يتعارك مع الآخر كل يوم .

فقال كليم :

– ورغم ذلك فهؤلاء أفضل وأحسن من السقا والحلاق والبقال ومن يلوذون بالمبيت فى المسجد ، ممن يقيمون الصلاة ؛ ليجعلوا أنفسهم من السادة والشرفاء ، والشاعر يقول :

" لا أنضم إلى زمرة هؤلاء الناس

فهم يخدعون الله بسجودهم ، ويخدعون الرسول بصلواتهم "

فقال عليم :

- إذا كان الشرفاء هكذا ، فيا أسفاه على الشرفاء من أمثالنا ، ومن أمثال أصدقائنا ، لا يوجد إنسان عاقل يصدق هذا المفهوم ، فحين يلتقى أمثالنا ببعضهم فى مجالسهم ، لا يصدر عنهم سوى الكلام السخيف والأفكار السيئة ، والاستهزاء والكلام التافه ، فالاسم شرفاء لكن السلوك مثل سلوك الغوازى والعوالم ، يتكلمون مثل البنى أدميين ، لكن طبيعتهم مثل طبيعة السرقة .

فقال كليم :

- حسنًا ، عرفنا أنك جاهز للبيعة .

- جاهز ! لا .. لقد بايعته اليوم .

فقال كليم :

- سليم ! ما موقفك أخبرني !

فقال سليم الأخ الأصغر :

- يا باشا ! أنا قررت إطاعته من قبل ذلك .

فقال كليم :

- إن قرارك لا يعنى أنك موافق فأمرك مثل قول الشاعر :

" وإن لم تنل ما هو فى نصيبك

فسوف يصلك بالقوة

فنصيبك ، لا بد أن يصيبك "

ثم أشار كليم إلى عليم أخيه الأوسط وقال :

– هكذا لم يبق غيرى !!

فقال عليم :

– أنت الآن وحيد ، لم يصل الوالد إليك ، فهيا اذهب وادخل في الحلقة .

فرد كليم :

– لا .. أنا أريد أن أبقى بعيداً عنه ، لا أريد أن أغير من طريقة حياتي .

فقال عليم :

– الشرط هو أن تقابل الوالد .

– ماذا سيفعل .. يعنى !!

– سوف يجعلك تفهم ...

– أنا لا أفهم ، ماذا في الأمر ؟ ليفهمني أحد الناس ما لا أفهم .

– ها أنت تردد قول الشعراء ، لكنك ستسمع كلاما يصهر الحديد ويحول الحجر الصلد إلى شمع طرى .

– خلاص .. اعتبرونى ذهبت وانتهى الأمر .

– هذا تصرف غير مناسب منك .

– ماذا يعني التفكير في مصلحة الشقي الذي خرب دنياه ! !

– لكن ربما يستدعيك الوالد ليحدثك في موضوع آخر .

– يا أخي ليس هناك عزف إلا على ذاك الوتر ، ليس هناك من كلام غير ما ذكرناه .

– ماذا لو طلبك مرة أخرى ؟!

– سأعرف أنه مصاب بالضرورة بخلل في الدماغ .

– الوالد كما هو والدي هو والدك أيضًا ، على " كيفك " ! قل في شأنه ما شئت ، لكن كل ما يمكن أن أقوله لك هو إن عاقبة إصرارك هذا ستكون وخيمة .

– أنا أيضا أفكر مثلك .. لكني لا أبالي بالنتائج .

– لكن ما الفائدة من عنادك هذا ؟

– وما هو الضرر الذي سيصيبني ؟!

– إن لم يصبك شيء ففكر في غضب أبيك عليك ، هل هذا ضرر بسيط ؟

– ما هو علاج الغضب الذي ليس له سبب ؟

– حتى الآن لم يحدث أي غضب ، لكن لو حدث لا قدر الله فلن يقول الناس إنه كان بلا سبب ، والبداية إنما هي من جانبك ، فهو قد طلب أن تذهب إليه ، لكنك لم تذهب ، ماذا تظن هل هناك أب في الدنيا يعصيه ولده ولا يغضب ؟!

– ما له وأعمالى ، لماذا يتعرض لأفعالى ؟!

– في البداية لا يمكن أن أقول ماذا سيقول لك ، ولكن على فرض أنه سيقول لك ما قاله لي وما قاله لسليم ، أليس من سلطته أن ينصحك ومن واجبه أن يرشدك إلى طريق الهداية ؟

– هذا من حقه ، ومن واجبه ، لكن على أمثالك وعلى حميدة وعلى سليم ، لأنكم تستجيبون طوعا لنصائحه .

– ألسنا نحن أولاده مثلما أنت ولده أيضًا ؟!

– متى كنت ولدًا ، لقد قطعت قروني ، وصار من العار على أن أمضى مع القطيع ، فأنا أستثنى نفسى من سطوته ، كما أعتبر نفسى لا أخضع لسلطاته .

– لكن ليس هذا من شيم شرفاء الناس وكرام الأسر ، أن يكبر الولد ويشب فيخرج عن طوع والديه ، ولا يحترم أباه أو أمه ، لقد شاهدت كيف كان والدى يحترم جدى ، فلا يفكر أبدا في أن يقرب "النارجيلة" أمامه أو حتى يمضغ " القات " ، ألم تر ذلك بنفسك ؟!

– وأنا لم أقل أدبى أمام أبى حتى الآن .

– صحيح ، لكن كيف تظهر الهيجان والثورة قبلا ، والآن تظهر الهدوء والخضوع .

– التصفيق يكون باليدين معًا ، فإذا لم يتعرض أبى لأحوالى ، فإننى لا أرغب أبدًا في أن أعصى له أى أمر ، أو أسلك تجاهه أى سلوك غير مهذب .

– هذا يعني أنك ستطيع أباك ، وهذا أمر محمود على كل حال .

– لا أحب الثناء والمدح .. اتركوني في حالي ، ولا تتعرضوا لأعمالي الحسنة أو السيئة فالشاعر يقول :

" ما لك أيها الزاهد بحال الشقي الخرب

ماذا يضيرك من خاتمته السيئة "

– هذا يعني أنك قررت قطع علاقتك به .

– ما ضرورة أن يقول لي يا بني ، إذا ما كنت أتعلم في الكتّاب مثل الصبية ، وإلا صرت من الأولاد العاقين .

– لم يطلب منك أحد أن تتعلم في الكتاب ، وليس هناك أمل في أن يقبل أبوك ما أنت عليه من سوء وفساد .

– طالما كان لي عقل أميز به بين الخير والشر ، وبين الفائدة والخسارة ، فإن توجيهي بأن أفعل هذا ولا أفعل هذا يعني وصفي بأنني ولد بلا تمييز .

– ألا يكون رأي الإنسان أحيانا خطأ ؟

– وهذا الاحتمال ينطبق على رأيه أيضاً.

– إذن لماذا لا تذهب إليه وتناقشه ، حتى تصل معه إلى رأي ، وتتخذ معه قراراً مفيداً ؟

– لست بحاجة إلى حوار أو حديث ، فكل إنسان يعرف مصلحته جيداً .

– هذا صحيح لكن إذا كنت واثقا إلى هذا الحد من رأيك فلماذا تهرب من مواجهته ومناقشته وجها لوجه ؟

– هل طريق المباحثات يؤدى إلى اتخاذ قرار ، هل سمعت عن هذا في الدنيا ؟ !

– اترك هذه السفسطة ، واترك هذا العناد ، واللغو ، فلكل حوار نهاية ، ولكل بحث – بالضرورة – نتيجة .

– أبونا إذا ركب دماغه شيء عليه العوض . هو الآن لا يفكر إلا في الصلاة والصوم ، بعد أيام سترون ، سيعود سيرته الأولى ، أبونا الذى نعرفه ، ونحن سنعود كما كنا ، وكأن شيئا لم يكن .

– أنت أكبر منى ، ولا شك أنك تعرف أكثر منى ، لكنى لا أجهل طبيعة أبينا ، إنه مصمم من أعماق قلبه على إصلاح هذه الأسرة، وهذا هو كل ما يفكر فيه الآن ، ولا يمكنني القول بأن إرادته هذه لا رجعة فيها ، أو أن عزمه هذا لا يتزلزل ، وما يراه بالنسبة لك قد يتغير ، لكنى لا أرى الآن في البيت غيرك ، يُصر على المضى على نهجه القديم ، وعاداته السابقة .

– أريد أن أتكلم مع أمي قليلا ، وسوف تعرف ما قلت بشأن الإرادة والعزم .

هنا تدخل الأخ الأصغر سليم قائلاً :

– أمي اليوم في منتهى الغضب .

فسأله كليم :

– لماذا ؟

– ألا تدرى ؟ حدثت مشادة بينها وبين نعيمة اليوم .

– لماذا ؟

– أعطت نعيمة طفلها لحميدة ، وذهبت تغسل وجهها ، فتركت حميدة الطفل لتصلي الفجر قبل أن يخرج الوقت ؛ فغضبت نعيمة ، وقامت بدفع حميدة ، وهى تصلي ؛ فسقطت حميدة على مسمار فى السرير ، فجرح أنفها ؛ وسال الدم منه بغزارة ، وهنا بدأ الشجار والعراك ، وتكلمت نعيمة كلاما غير طيب عن الصلاة ، وحاولت أمى منعها من الحديث بهذا الكلام ، لكنها لم تطع أمها؛ فوجدت أمى نفسها تصفعها على وجهها .

– هل تقول الصدق ؟!

– اذهب وانظر بنفسك ، فنعيمة أغلقت على نفسها باب الحجرة ، وهى تبكى دون انقطاع ، ولم تتناول شيئا منذ الصباح .

فقال عليم :

– فى الحقيقة حدث شجار عنيف ، فحين ذهبت إلى أبى ، وجدت الجميع يروح ويأتى فى صمت ، ففهمت أن فى الأمر شيئًا .

فقال كليم :

– يبدو أن البيت كله قد عقد العزم على شيء ما ، وأن الجهاد أيضًا سوف يبدأ ، فانظر إلى اهتمام حميدة الصغيرة بالصلاة ، وفكر في تعرض نعيمة للضرب لسبب بسيط .

– لماذا هل الصلاة أمر صعب حتى لا تفهمها حميدة !

– خلاص .. خلاص .. لعلها تفهم كتب الفلسفة والحكمة مثل "الشمس البازغة" و "الصدره" . فهمت ، فهمت ..

– لكنها لم تضربها ، لقد لطمتها .

– لطمتها .. صفعتها .. كله ضرب ، حين صفعت أمي حميدة ، فهل بقي لأحد في البيت عزة ، تضرب ابنتها الكبرى ، المتزوجة، والتي صارت أما أيضًا ، أهذا معقول ؟! .. سلام على هذا السلوك والتدين ، اهتمام بأمور ونسيان أمور أخرى أهم ، ألا يمكن أن يصل هذا الخبر إلى بيت أهل زوجها ماذا يقولون عنها ؟ لم تجد الاحترام في بيت أمها ، سيقولون لها لو كان لديك ذرة من خجل ، لما ذهبت إلى بيت أسرتك . ألهذا نصحتني أن أذهب إلى والدي ، فلو طالتني يد الشفقة تلك ، ماذا تظن قد يحدث ؟! ربما أكون مصداقًا لقول الشاعر

" أنا الذي لا ترى ظهره يوم الوغى

أنا الذي ترى رأسه بين التراب والدم "

ولو كنت في مكان نعيمة ، لفعلت غير ما فعلت .

– إنني أتعجب أيضًا من كلامك هذا ، لكن طالما لم أسمع كلام أمي عما حدث ، فلا يمكن أن أقول إن ما فعلته كان في محله أو لا .

– لو حدث هذا معك ، هل ستظل تقول فى محله أو فى غير محله ، أنا أعرف أنك خلف السعد ! الشاعر يقول :

" يعرف الألم من عانى منه

ماذا يدرى عن الألم من خلا قلبه من الإحساس "

– ربما أجهل تنوع الأمزجة ، وإلا فأنا لا أرى شيئًا فى تأديب الوالدين لأولادهم .

– ربما رأيك هذا شجع الأم على ضربها .

– إن من خلقهم الله آباء وأمهات ، أعطاهم أيضًا العقل ليفهموا واجباتهم وسلطاتهم على أبنائهم .

– الخلاصة أنك ترى أن قيام الوالدين بمعاملة أولادهم بعد أن يكبروا معاملة الأطفال الصغار فيضربونهم هكذا ليس عيباً .

– لا تطلب منى فتوى فى هذا الأمر ، فأخبرك برأى عام ، لكنى هنا يمكن أن أتحدث عن حالة خاصة فى بيتنا ، فأمى اضطرت لأن تمد يدها على أختنا الكبرى نعيمة. وافرض أن أمى خرجت عن حدها قليلاً ، فهل هذه الصفعة تلغى حنانها تجاه ابنتها طول العمر، وعطفها عليها طوال السنين ، وكما تستشهد بالشعر ؛ فأنقل هنا قول الشاعر :

" إن من شملك بكرمه طول الوقت

لو أساء إليك طول العمر ، فاغفر له إساءته "

- أقول لك أيضا ما قاله الشاعر :

" فى بيت الوحشة هذا طوفان جنون

العافية مفقودة والراحة معدومة "

بينما كان الأخوة يتحدثون معًا جاءت الخادم تهرول ناحيتهم ، ثم قالت لعليم :

- سيدى يسألك لماذا لم تأتنى بالرد .

قالت عبارتها ومضت ، فقال لها أخبريه أنى قادم ، ثم قال لأخيه الأكبر إن أبى جالس ينتظرك ، اذهب إليه . على الواقف ، تكلم معه على الواقف ، هيا !

فقال كليم :

- لو كنت متأكداً من أن ذهابى إليه ، وذهابى من عنده سيكون سريعًا ، لما انتظرت حتى الآن .

- لماذا تظن أن حديثكما لن يكون حديثًا عابرًا وسريعًا ؟

- اسمع لم ير أحد الله ، لكنهم عرفوه بالعقل .

- خلاص ! ربما يريد أن يسمع منك هذا الكلام .

- لكل مقام مقال .

- أنا فى حيرة ما سبب ترددك هذا ؟

- أنا خائف من مزاجه هذه الأيام .

- لكنك تتوقع حدوث أشياء ، قد لا تحدث ، وإذا لم تذهب فقد يحدث ما تتوقع .

- التوقع والاحتمال هذه أمور تركتها لك ، أما أنا فعلى يقين من أن ذهابى إلى الطابق العلوى يعني حدوث كارثة .

- أنا مصر على أن سلوكك هذا غير مناسب ، من شأنك أن تفعل ما تريد ، لكنى أخبرك فقط بأن نهاية هذا الأمر ، تبدو غير محمودة العواقب .

- ليكن ما يكون ، كما قال الشاعر : فقد ألقينا بالسفينة وسط الماء .

- هل أخبر الوالد بما قلته ؟!

- هذا يرجع إليك ، إذا كنت أرى أنه لا ضرورة للذهاب إليه ، فأنا أعرف - بالضرورة - متى أرد على طلبه لى .

- نهض عليم بعد أن شعر باليأس والإحباط ، ولم يكد يتقدم خطوات حتى عاد مرة أخرى وقال لأخيه إن قدميّ لا تطاوعانى ، لا يمكن أن أتحرك ، فأنا لا أدرى ماذا سأقول له ، لأنى أعرف أن عدم ذهابك إلى الوالد سيجر علينا مشاكل كثيرة، لا أدرى ماذا أصابك الآن ؟ إن ذهبت إليه ، ولم تقبل كلامه ، فلا بأس فى ذلك ، لكن عدم الذهاب يعنى بداية الفساد ، وبداية العصيان ، والكل سوف يحملك هذا الخطأ ،

والجميع سيتهمك بارتكاب هذا الذنب ، ولأنني أعرف العواقب الوخيمة التي ستحط عليك ؛ لهذا لا أريد أن أشارك فيما سيحدث .. إن كنت لا تريد الذهاب إلي أبيك ؛ فأرسل له أحدا غيري يخبره بذلك .

– لكنه لم يطلب مني شيئا ، فكيف أرسل له من يخبره بأنني لن أذهب إليه ؟!!

سمع عليم الأخ الأوسط هذا الجواب المسكت ، فذهب وهو يشعر بأنه في موقف محرج للغاية ، فوالده أرسل يؤكد عليه ضرورة الإسراع بالرد إن سلبا أو إيجابا ، ولأنه يشعر الآن بأن أخاه سيكون باعثا لإثارة المشاكل في البيت ؛ لهذا لم يكن يرغب أن يكون – هو نفسه – سببا لهذا ، لأنه سيبلغ رسالة ستؤدي إلى إثارة المشاكل ، ووجد نفسه وسط هذا الاضطراب يهرع إلى أمه ويقول لها: يا أماه هناك مصيبة على وشك الوقوع ، بينما كانت الأم المسكينة تفكر في ابنتها نعيمة ، التي قضت اليوم بطوله وحيدة على الفراش داخل الغرفة ، لا تعرف رأسها ، ولم تدخل لقمة في فمها . وكانت الأم قد صنعت لها بعض الفطائر، وتركتها بجوارها ، لكن نعيمه لم تمس هذه الفطائر ، وتركتها حتى قددت ، كما لم تتناول شربة ماء ، وطفلها ظل هادئا لساعة أو ساعتين ، ثم بدأ في البكاء، وحاول جميع من في البيت تهدئته ، لكنه لم يهدأ وظل يصرخ، وحاولوا إرضاعه لكنه يرفض، ويشب ويتلوى، ويرفض أن يهدأ ؛ مما أثار حيرة جميع من في البيت ، والنهار انقضى على خير ، لكن كما يقول الشاعر – حل الليل وها هي القيامة قد قامت ، وكانوا قد أرسلوا في طلب صالحة، فجاءهم رد يفيد بأنها ستحضر وعظ الشيخ الليلة ،

وستصل – إن شاء الله – بعد صلاة الفجر مباشرة ، ووسط هذه الحالة المتردية ، كان عليم قد ذهب إلى أمه ليقول لها إن مصيبة ما على وشك الحدوث ؛ فأصاب الأم بالرعب ، فقد ظنت أن مكروها ما حدث لنعيمة ، فانتفضت وهى تسأله :

– ماذا ؟

– إن أبى طلب كليما منذ أربع ساعات، ولم يذهب كليم حتى الآن . هل أفسح لك الطريق لمجلس الرجال ، حتى تذهبى إليه وتحاولى إقناعه بالذهاب إلى والده ، فقد تعبت معه ؟

كانت حال فهميدة أسوأ من حال نعيمة ، فقد كانت تجلس على المائدة ليراها الجميع فقط ، لكنها تنهض دون أن تضع ولو حبة أرز فى فمها ، وكانت تتذرع بسبب أو بآخر لتذهب عند حجرة نعيمة ، وتتطلع من النوافذ فلا تسمع سوى أنات نعيمة ، وكانت ترسل أى شخص يظهر أمامها إلى نعيمة ؛ ليسترضيها ويطيب خاطرها ، لكن أحدا لم تكن لدية الجرأة ليدخل غرفة نعيمة ، والخادم العجوز التى ربت نعيمة ورعتها ، ذهبت إلى نعيمة حاملة الطفل ، بحجة إرضاعه ، ولم تكد تنطق بكلمة ، حتى صرخت فيها نعيمة صرخة ، جعلتها تنتفض وتجرى مثل كرة تنط وتنط إلى خارج الغرفة ، وربنا ستر ، لم يسقط الطفل من حضنها ، وإلا فالله وحده يعلم ماذا كان سيحدث

كانت الخادم كلما سمعت فهميدة تطلب منها الذهاب عند حميدة تعتذر قائلة : لا يا سيدتى ، إن عظم جسمى تضعضع ، كم أتمنى أن

أسترضى نعيمة ، لكنى أخاف الذهاب إلى غرفتها ، كأنى أشعر أن بداخلها حية سوداء ، ستلدغنى إذا وضعت قدمي على عتبة الباب !.

في الخارج كانت هناك ثورة ، أى صراخ طفل نعيمة المستمر ، ومحاولة الجميع إسكاته بإصدار أصوات عن طريق خبط الأواني مع بعضها أو الأطباق أو الكؤوس والأكواب ، أو نفخ الصفارات ، لكن كل هذه الأصوات لم تصل إلى أذن هذا الطفل العنيد ، يحملونه فى أحضانهم ، أو يحركونه في الأرجوحة ، أو يضعونه على أكتافهم ، أو "يشقطونه" كالكرة إلى بعضهم ، ومع هذا لا يسكت ، ولا يقر له قرار ، هذا الطفل الذى لا يتكلم ولا يمشى ، يستمر فى البكاء ، لا يدرى أحد ماذا به ، فكروا فى أن يعطوه قليلا من الأعشاب المنومة ، فأعطوه بعض السفوف ، لكنها لم تترك أى أثر عليه ، ربما " التوح " منهم هذا الطفل، ويحتاج لمن يدلك له رقبته وظهره بطريقة خاصة ؛ فقاموا بتدليك ظهره ورقبته ، لكن دون فائدة ، فظنوا أنه يعانى من المغص ؛ فوضعوا له الدواء فى اللبن ، لكنه لم يسكت واستمر فى البكاء . وفي النهاية بعد أن أصابه الإعياء والتعب وقبل المساء بساعتين تقريبا نام على كتف الجدة المسكينة ، والأم التي ظلت تتعب طول اليوم ، وهي مغمومة حزينة تجلس مثلها مثل التمثال ، وقد ركنت ظهرها إلى الحائط، تلقت رسالة صالحة ، وعليم ذهب ليبلغ رسالة أخيه فوق ، وكاد عقلها أن يذهب؛ لهذا ظلت جالسة صامتة لا تنطق ، وبعد أن عادت إلى وعيها قالت لعليم :

– يا بنى ! ألم تحاول أن تجعل أخاك يعدل عن رأيه ؟

فرد عليم :

- حاولت وحاولت كثيراً .

- هل عرفت بخبر نعيمة ؟

- نعم يا أمي .

- أدعو الله أن يهدي الاثنين ، لا آمل أن يصلح حال كليم طالما لا يخاف الله ، وطالما لا يخشى من والده ، أية مصيبة حلت بي !! لقد أردت أن تعرف مني ما جرى .. هل تخطيت حدودي يا عليم أو أن نعيمة أخطأت ؟!

- لم أسمع القصة بتفاصيلها ، لكن ما سمعته يدل على أن أختي مخطئة، ولا حاجة لمزيد من تقصي الحقيقة ، وحين سمعت القصة ؛ قلت إن أمي لا يمكن أن تكون قد مدت يدها على أختي إلا لسبب وجيه .

- عليم ! ماذا أقول لك ؟! هل كان يمكن أن أظل صامتة وهي تخطئ في حق الخالق ، فيغضب علينا الله وينزل بنا عقابه ؟

- لا شك أنك فعلت الواجب ، حتى لا تتمادى في غيها ، إن ما يغضب حقا هو موقف كليم الآن ، فيبدو أنه خرج عن طوع الجميع .

- الاثنان على شاكلة واحدة ، وها هي نعيمة لا تطيع كلامنا ، مضى عليها اليوم بطوله ، لم تشرب شربة ماء ، ولم يدخل بطنها شيء ، ولم ترضع طفلها .

- لم ترضع طفلها ؟ ما ذنب الطفل المسكين ؟

- ذهبت به الخادمة إليها ، وإذا بنعيمة تضربها على وجهها حتى صار وجه المسكينة مثل الكركم .

– سأذهب إليها ، سأحاول التفاهم معها .

– لا يا بني ، حافظ على كرامتك ، أخشى إن ذهبت إليها ، حدثتك بما لا ترضى ، وقد تهينك ، فما الفائدة إذن ؟

– إذا كانت هي أختي الكبرى ، فلن أغضب من كلامها .

– أرى أن ذهابك إليها غير مفيد ، لقد أرسلت في طلب صديقتها صالحة ، فإن جاءت ربما تفعل شيئًا ، وتسترضيها أو تعيدها إلى صوابها .

– لا شك أنها فكرة طيبة ، لكن الليل أقبل ، متى ستأتي صالحة ؟

– الآن تحضر مجلس وعظ في بيتها ، وقد أرسلت تخبرنا بأنها ستأتي غدا مع الفجر ، وعلى كل حال سيمضي الليل بشكل أو بآخر.

– ألا أذهب لأحضر صالحة ، وتقومين أنت بإقناع أخي الأكبر ليذهب إلى أبيه .

– هذه فكرة طيبة ، فأنا لم أخبرها بحقيقة الأمر ، وإلا جاءت مسرعة .

– ذهب عليم لإحضار صالحة، ووضعت فهميده البرقع على وجهها، وذهبت إلى مجلس الرجال ، حيث كان لعب "الكوتشينة "على أشده ، وحين وصلت كانت أوراق "الكوتشينة " مبعثرة على الطاولة ، فقالت وهي تشاهد المنظر : حرق الله هذه الأوراق ، ألا يتوقف اللعب حتى في الليل ، هل الامتناع عن هذا اللعب يصيبكم بالأذى ؟!

- إذا كان العاطل يجلس بلا عمل ، فلا بد أن يعمل شيئًا ، والشاعر يقول : لا تكن عاطلا ، واعمل شيئًا .

- يا بنى ، لا جعلك الله عاطلاً، الإنسان الذى يعمل يؤدى واجبًا ، طلبك أبوك أكثر من مرة ، لكنك لم تتحرك ، ألا تستطيع أن تذهب إليه وتسمع ما يقوله لك ثم تعود ثانية .

- خلاص ! أنا جالس هنا ، سمعت وأنا جالس هنا .

- أنت لم تسمع شيئا ولم تُسمع شيئًا ، واذهب ثم عد مرة أخرى إلى هنا ، هذا التصرف ليس بالطيب .

- لماذا ليس بالطيب ؟ أنا أعرف ما سيقول .

- أنت تعرف ، لكن ما هو الضرر فى أن تذهب إلى أبيك وتسمع كلامه .

- الضرر يأتى من الضرر ، والسوء يأتى من السوء .

- أنا أيضًا سأسمع معك ما يقول .

- إذن أخبرينى ، اذهبى وافهمى ما يقال وأخبرينى .

- أنا لا أفهم ألغازك ؟

- نعيمة تفهم جيدا مثل هذه الألغاز

- بالله عليك ، لا تعقد الأمور ، ولا تسلك مسلك نعيمة ، لقد سمعت كلامها فهى لا تتورع عن الإساءة حتى لخالقها ، وهى تستهزئ حتى

بالصلاة ، وتستهزئ – أستغفر الله – بربها . التوبة يا إلهى ، إنها تقول كلامًا لا يخرج حتى من أفواه الكفار ، لقد حلَّ بنا العقاب ، واختطف الموت من هذا البيت ثلاثة دفعة واحدة ، لكن الخوف لم يطرأ على قلب أحد ، وخشية الله لم تعرف طريقها إلى فؤاد أحد هنا .

– الوباء يحصد الناس ، وهو لا يميز بين الصالح والطالح ، يأخذ فى طريقه كل الناس .

– هل يصبح الإنسان سيئًا إذا ما رأى موت الطيبين ؟

– لا ، أنا لا أقول إن من الأفضل أن نكون أشرارًا .

– أى سوء أعظم من ألا يؤمن الإنسان بأن الله هو رب العالمين .

– حسنا ما قلت ! من الذى لا يؤمن بأن الله رب العالمين ، هذا الكلام لم يخرج من فم نعيمة ، لا أدرى كيف تتقولون عليها .

– لكن لماذا أنت متردد فى الذهاب لأبيك ؟

– لقد سمعت ما سيقول ، سيطلب منى إقامة الصلاة ، ويمنعنى عن اللعب .

– الآن قلت إنك تؤمن بالله رب العالمين ، أليست الصلاة فرض فرضها علينا رب العالمين ؟

– أنا أيضًا لم أقل إن الصلاة ليست من الفرائض التى فرضها الله ، لكنى لا أستطيع أداء هذا الفرض .

– إذن أنت لم تقل الصدق ، حين قلت بأنك تؤمن بالله رب العالمين، لو كنت تؤمن حقًا ، لأطعت حكمه على رسلك ، يا بنى ! كن حرًا فى الدنيا والآخرة ، يطلبك أبوك فلا تذهب إليه ، وكأنه ليس بوالدك ، والله يأمرك بالصلاة ، فلا تصلى ، أى أنك لا تؤمن به ربا لك .

– أنا فى حيرة ماذا حدث فى هذا البيت ، ولماذا هذه العادات الجديدة ، إنه الله ربنا جميعًا هو ربنا من قبل ، وهو ربنا الآن أيضًا ، لماذا تتدخلون فى أعمال الآخرين ؟ ولماذا تشرفون على ما يقوم به الآخرون ؟ من يعمل صالحًا فلنفسه ، ومن يخرج عن جادة الطريق فسيتحمل تبعة ما قام به .

– لماذا لا نتدخل ونشرف على تربيتكم، إن تعليم وتربية الأولاد فرض على الوالدين وواجب .

– هل كان ذلك فرضًا وواجبًا من قبل ! أو أن وحيًا خاصًا نزل فى أيام المرض ؟

– لو كنت تذكر والديك بمثل هذا الاستهزاء ، فهذا دليل سعدك !! أنت تطالع الكتب .. ألم تجد فيها ما يحث على احترام الوالدين ، وعلى التأدب معهما ، والمثل الشائع بين الناس سعيد من كان الأدب من نصيبه .. يا ابنى ! إن أباك المسكين لم يدّع أبدًا بأن إلهاما جاءه ، أو أن وحيا نزل عليه .

– إذا لم يكن الأمر وحيًا ، فإنه من أثر المرض .

– اذهب إلى أبيك ولا تضع كل هذه الاحتمالات ، وهذا ليس بكلام جديد ، فمنذ بداية المرض وأنت تصف أباك بالجنون ، والهوس ، لكن هل

يمكن للمجنون أن يفكر فى مآل العاقبة ؟ هل يمكن للمهووس أن يفكر في النهاية فى الآخرة ؟ اذهب إليه ، واسمع كلامه ثم احكم عليه ، فإن رأيته مجنونا ؛ فسوف أوافقك بالضرورة .

– هل أنا طفل صغير مثل سليم ؟

– بالنسبة لنا أنت أصغر من سليم .

– هذا العطف تحتاجه نعيمة .

– لو لم يكن هدفنا مصلحتك ، ولو لم يكن في قلبنا عطف تجاهك لما أراد أبوك التحدث معك ، لأن العطف يكون تجاه من نشعر نحوهم بالتقدير ، ومن يشمله العطف ، يجب أن يكون ممنونا لذلك ، والمجبر على شيء لا يقال لما يفعله عطفًا ، بل هو ينزل عن كاهله عبئًا ثقيلاً .

– هذه مسألة جديدة أن تقوموا بتعليم الببغاء العجوز الكلام .

– هل تعتبر نفسك عجوزاً ؟

– أنا طفل أرضع لا أستطيع تمييز الأشياء ، لكن لا أريد أن يتعرض أحد لأفعالى ، أنا أستطيع أن أفهم أخطائى .

– ليس من المعقول أن يتمنى الوالدان لأولادهما السوء ؛ نحن نقول ما فيه مصلحتك .

– لا أريد ما فيه مصلحتى .

– إذا كنت لا أجيز لنفسى التدخل فى أفعالكم ، فلِمَ تتدخلون فى أعمالى هكذا من الباب للطاق ؟

- أنا أمك ، وهو أبوك .

- هكذا بالقوة، كما يقول المثل : رضيت أم لم ترض فأنا بالضرورة ضيفك ، أنا لا أنكر أنكما والداى ، والحديث هنا عن جواز تدخلكما بالقوة فى أفعالى ، أنا أعتبر تدخلكما غير جائز ، وأنت تقولين : لا ، نحن سنتدخل بالقوة ، لأن تعليم الأولاد واجب على الآباء ، وأنا أقول إن هذا لا يدخل في بند التعليم ، وعلى فرض أنه كذلك ، فأنا لست ابن عشر سنوات حتى أحتاج للتعليم ؛ ولهذا لا حق لأمي وأبي فى التدخل فى آرائى، وهم يعرفون ما ينفعهم ويضرهم ، فإن رأيتم أننى قد كبرت ، ولم أصبح شيخا لمسجد ، أو مقرئ قرآن على المقابر ، أو شحاذا يدور على البيوت لجمع الصدقات ، فلماذا لم تعلمونى فى البداية العلوم الدينية ، حتى أكون هكذا بل أذهب للحج عدة مرات ، وأكون مقرئا للقرآن مشهورا ، ويكون صوتى فى قراءة التراويح مقبولاً ، يرانى كل من يذهب للصلاة على ميت ، وتأتى إلى جلود الأضاحى للإنفاق منها على المساكين ، وأكون مجمعا لتوزيع الصدقات ، ومسئولا عن تقسيم الزكاة ، ومستحقا لدعاء الجميع ... لا أن تكون دراستى فى ناحية ، ثم تطلبون منى المضى فى ناحية، أو كما يقال: تقرأ كتاباً ثم يكون الاختبار فى كتاب آخر ، فى الدنيا أولاد كثيرون ينتمون إلى أسر شريفة إن لم أكن أفضلهم ، فلست بأسوأ منهم ، فأنا دائمًا أفضل من يقول الغزل فى مجالس الشعر ، وأنا أفضل لاعب يفوز فى مباريات الشطرنج ، وفى بقية الألعاب الأخرى ، حتى فى التعامل مع الحمام ، وكيفية رعايته ، وفى العراك بالطائرات الورقية ، فأنا أصيب المئات بخيط طائراتى القوى

وحركاتي الذكية ، وأنا لست قاصراً عن فن الكتابة ، كما أنني لست عاجزًا عن القراءة ، ولا أعرف فنا من فنـــون الأمراء أو أبنـــاء الأمراء لا أجيده ، وكما قال الشاعر:

جعلك الحظ مسكينا يا نوق

رغم أنك بارع في كل فن ،

ولا يوجد هناك فن لا تجيده .

من العجيب أن ما كنتم تمتدحونني عليه بالأمس ، وتشجعوني عليه صار اليوم فجأة لا قيمة له ، ويدخل في بند الأعمال السيئة التي يجب تجنبها ، وصار من الواجب الآن أن تعيدوا تعليمي من جديد ، آه ! ماذا عسانا نقول ؟ ماذا صار ؟ ثم ماذا بعد ؟ أي فعل من أفعالي يخفى عليكما ؟ ألم يسمع أبي أشعاري ؟ لقد كنت أطلعه على كل ما أنظم، ومنذ وقت قليل بل لم يمض شهر ، حين نشرت الصحف عن حل مشكلة في لعبة الشطرنج فجاء بها إلي ؛ وقمت بحلها ، ألم تشاهدينني دائما وأن ألهو بالحمام ؛ أولم يسمع والدي بمباريات الطائرات الورقية؟ هل طلبتم مني ذات يوم أن أقلع عن كل هذا؟ لا شك أنني أسمع اليوم كلاماً جديداً: أقم الصلاة.. اذهب واجلس في المسجد.. لا تقرب هذه الألعاب ، لا تلتق بمعارفك وأصدقائك.. لا تذهب إلى السوق .. لا تشارك في الموالد والاحتفالات ، وكأنكم تتوقعون مني ما قاله الشاعر :

" إن من نصب قلبه صنما في بيت القمار

جاعلا منها كعبته ومطافه

ترك أصنام تلك الكعبة

ومضى إلى الكعبة .بيت الله "

- أنا أعترف بكل ما قلته ، وأخبرك أيضا أن أباك - الذى تنعته بالجنون والهوس - هو أول من يعترف أنه من الصعب عليك الإقلاع عن كل هذه العادات ، وهو يبكى بحسرة تثير الشفقة ؛ لأنه لم يعلمك منذ البداية . إنك لم تذهب عنده ، وإلا عرفت حالة قلبه ، إنه - نفسه - يقول إنه لا ذنب فى هذا للأولاد ، فذنب خرابهم ، وذنب فسادهم معلق فى رقبته هو، وهو يؤنب نفسه بشدة قائلاً : هل كنت أبا لهم أو عدوا حتى أفسدهم هكذا، وكيف أجرؤ الآن على أن أشرح لهم وجهة نظرى، والخجل يلفنى ؟ وكيف أتطلع إليهم أو أتحدث إليهم ؟ لكنه يعاود نفسه ويقول : لو قصرت فى أداء فرضى أفلا أحاول تلافى ما فات الآن على الأقل ؟ والمسكين يحاول أن يبذل كل ما يستطيع .

- حسنًا ، إذا كان يفكر هكذا فعليه أن يعلم الأطفال الآخرين طبقًا لما يرى ، اتركونى وحالى .

- هل أنت - لا قدر الله - لست ولده ؟

- ولده ، وقد أخبرنى ، وسقط ما عليه من فرض تجاهى .

- هذه الحجة يمكن أن يقدمها الآخرون أيضًا .

- إنك تتلاعبين بالألفاظ، هم صغار يجب عليهم الطاعة والانصياع.

- هل يظل الصغار صغارًا ؟

– سيكبرون بلا شك ؛ عندئذ يجب إعطاؤهم الحرية .

– إن كان علينا أن نقيم نظاما في البيت فلن ينجح هذا النظام إذا لم يطبقه الجميع الكبار والصغار .

– ينجح أو لا ينجح ، لقد قلت لك بوضوح ، أنا غير قادر على الصلاة والصوم ، وأنا مستعد أن تضربوني مثل نعيمة حتى بالحذاء .

– يا إلهي ! هل الصلاة صعبة إلى هذا الحد ، لدرجة أنك تتحمل ضرب الحذاء ، ولا تقبل أداء الصلاة !

– بالنسبة لي تبدو صعبة .

– حسنًا ، من أجلي ومن أجل أبيك حاول أن تصلي .

– لا يمكنني أن أصلي .

– إن قلت هكذا فكأنك تعاند أباك .

– افهمي ما يحلو لك .

– حسنا ! ما نهاية هذا الأمر ؟

– ماذا ؟ ستفعلون الكثير ، ستغضبون ، لن أراكم يوما أو ثلاثة ثم ماذا ؟!

– إذا كان الأمر كذلك فلن أجبرك على شيء ، ولن أصر على شيء.

– إذن ماذا يا أماه هل ستشنقونني ؟ ستقتلونني ؟ ماذا ستفعلون ؟

– هل ضربنا أحداً من قبل ، لقد امتدت يدي مرة على نعيمة ؛ فأقامت الدنيا وأقعدتها ، يا حفيظ ! القتل من أكبر الجرائم عند الله .

– ربما تخرجوني من البيت .

– ربما ، أنت ابننا ، وهو مصر على ما يقول ، وإن خالفت رأيه ، فهذا يعني أنني على استعداد للقضاء على عشرة ثلاثين سنة في هذا البيت .

– ربما خوفكم هذا هو الذي جعلكم تتفقون معه في الرأي .

– حتى الآن لم يتبع أسلوب الشدة مع أحد ، لكن أسلوبك هذا قد يدعوه لاستخدام الشدة .

– أنا أخشى غضبه إلى حد ما ، لكني لا أهتم أبدا بطردي من البيت ، ولا أصلي طمعا في البيت ، كما لا أطمع في طعام أو ملبس ، بل على استعداد لرد ما أنفقتموه علي .

– والدك المسكين لم يتفوه بمثل هذا الكلام ، إنك تقول ما يحلو لك.

– لا .. أنا أعرف عناده وإصراره هو يريد أن يخيفني بمثل هذه الأمور ، حتى نؤدي واجبات الدين ، عليه ألا يأمل في هذا ، أنا نفسي سئمت من هذا البيت ، ولا أدري لماذا أنا فيه حتى الآن ، لو علمت قبلاً ، فأقسم بالله ، لتركت البيت من غير رجعة .

– يا بني ! كيف تقول مثل هذا الكلام ، أنت لم تر أباك حتى الآن ، ولم تكلمه ، ولم تسمع ما يقول ، ثم تفترض من عند أمورا ، وتتخيل كلاماً ، ثم تغضب من هذا الكلام !!

– صحيح ! المناوشات بدأت من ناحيتى أم ومن ناحيته ؟!

– هل تظن التفكير فى مصلحتك مناوشات ؟ ثم تصدق ما تتخيل من أنا أباك بدأ يناوشك ، ماذا يغضبك في البيت ؟ أنا أيضًا أعيش فيه ، وليحفظ الله أخوتك وأخواتك جميعهم فى البيت ، ماذا أخطأنا فى حقك ؟

– إنكم جميعا منحازون إلى جانبه ، حسنا إن كنت فى صفى ، فكونى إلى جانبى وساعدينى .

– لو صدر من أبيك أمر ليس فى مصلحتك ، فلابد أن أقف فى جانبك ، فالإنسان يعمل الصحيح الذى لا يجعل الناس يتهمونه أو يسيئون الظن به ، ولنفترض أنك تترك البيت كلما غضبت لسبب تافه ، فسوف يلقى الجميع باللوم عليك .

– الناس ليسوا حكمًا على أفعالى ، وليسوا بالمفتى الذى يصدر فتواه ضدى ، ولست من رعايا أحد منهم ، إذا لم أكن أهتم بكلام أبى الذى أنا من صلبه ، فكيف أهتم بكلام الناس .

– يا بنى ، من يعيش فى هذه الدنيا ، لا يمكن أن يطلق لنفسه العنان هكذا .

– كأنك تحذريننى ، إن شاء الله سنرى !

– هل ستترك البيت ؟

– هل هناك من يمنعنى من ذلك ؟ ليس فى قدمى سلاسل !

- لماذا ؟ أنا هنا أمنعك .. أليس لى عليك حق ؟

قالت الأم هذه العبارة ، ورق قلبها لابنها الأكبر فقالت :

- أنا حملتك في بطني تسعة أشهر ، وتحملت في تربيتك المتاعب والمصائب ، وحين جاء فصل الربيع لأراك مزدهرا متوردا فإذا بك تتركني وتمضي .. يا كليم ! أصدقك القول ، اذهب وانظر بنفسك .

- يقولون إن بلاء العشق شيء والحزن شيء آخر .

- ما فائدة الذهاب هكذا ؟ الوالد غير راض عنك والأم أيضا ، ولا توجد أسباب ولا مبررات .

- كما يقول الشاعر :

هذا ما يرغبه القلب ، وحتى أتخلص من هذا الصداع

لا يوجد سبب خاص ، ضاق قلبى ، وأنا أقيم فى هذا البيت مدة طويلة ، وكنت دائما أفكر في الخروج في الهواء الطلق ، وكما يقول الشاعر :

"هيا إلى عتبة الحانة ، ففى الحركة بركة "

- إن خرجت من البيت مغاضبًا ؛ فسوف تسيء إلى أبيك وجدك ، وتشهر بهما فى المدينة كلها .

- طالما لا كرامة لى عند والدى ، فكيف هى عزة الأسرة ، لقد حط البلاء ، فليكن ما يكون من بلاء .

– سواء بقيت لنا عزتنا أو لا ، فإنك إن خرجت من البيت ، فإن أصدقاءك الذين كانوا يلتفون من حولك ليل نهار ، لن يلقوا عليك حتى السلام ، ولن يتعاطفوا معك ، ولن يعيروك اهتماماً .

– هل أقسمت لك على أنني سأعيش هنا في دهلي إذا ما تركت البيت ، إن أرض الله واسعة ، وقدماى قادرتان على حملي ، أستطيع أن أمضي حيثما توجهت .

– حسنا ، لتخبرني على أين العزم ؟

– الشاعر يقول :

" إذا كانت الحانة قد خربت ، فلا قيد يربطنا بالمكان .

سواء كان ذلك مسجدا ، أم مدرسة أم خانقاه "

– حسنا ، ما الفائدة في ذلك ؟ تترك حياة العز والرفاهية ، والراحة والأمن ، تترك البيت ، وتترك القريب والحبيب ، في سبيل ماذا ؟ سوء السمعة، والخجل، والإفلاس، والعوز، وفي سبيل تحمل الآلام والمصاعب، والقلق والاضطراب ، لا يمكن لأى عاقل أن يفكر فيما تفكر فيه الآن .

– العقل ، العقل هو الذى يجعل من الشجاع جباناً .

– إنك تتهم أباك بالجنون والهوس ، ولكنك الآن تتكلم بكلام المجانين وتأتي بحركات المهووسين ، ستقول قالت لي أمي ، وسوف تأسف ، أنا لا أطلب منك أن تستمع لكلامي ، لكن اسأل أى شخص تثق في حكمه ، أى إنسان عاقل متعلم ، خذ رأيه ومشورته واستمع لما يقوله لك .

– الرأى رأيي ، والصالح صالحي .

– حسنًا ، هل تظن أن ما أصر عليه الآن ، وما حدثتك به طوال هذه المدة ، هو لصالحي ولصالح أبيك ؟ أإذا صرت إنسانا طيبا ستهبنا شيئا ؟ إنها مشيئة الله أن يضع في قلوب الوالدين الرأفة والرحمة ومحبة الأبناء ، وهكذا لا يمكن أن أتحمل أو أصبر على رؤيتي لك تعانى وتقاسى ، ثم لا أمنعك من أن تلقى بنفسك فى التهلكة ، أو أراك تمضى على طريق الشر ، ولا أمنعك من المضى عليه .

وبينما كانت الأم تناقش ابنها جاءت الخادم وفي يدها رسالة ، أعطتها لكليم ، ففهمت الأم أن هذه الرسالة جاءته من أبيه ، وظلت الأم صامتة بينما كان كليم يقرأ الرسالة ، وبعد أن انتهى ، أراد استكمال الحديث مع أمه ، لكنها سألته :

– هل هذه الرسالة من أبيك ؟

– إنك تعرفين أنه يصر على ما يريد ، إنه يطلب أن أذهب إليه .

فتساءلت الأم :

– هذه الرسالة الطويلة ، فقط يطلبك لتذهب إليه ، أرنى إياها .

أخذت الأم الرسالة وقرأتها ، جاء فيها :

" يا ولدى العزيز ! أرشدك الله تعالى إلى طريق الصواب، لقد أرسلت فى طلبك مرة عن طريق عليم ، ومرة عن طريق الخادم ، فلم تأت ولم ترسل ما يفيد الاعتذار عن المجيء ؛ مما يدل على أنك لا تعرنى اهتمامًا ،

ولا تهتم بما طلبته منك ، وأنا أرى أنه لو كان لديك عمل من أعمال الدنيا ، لوجب عليك أن تقدم طلبي الك على أى عمل آخر ، أو ترسل لى تطمئنني ، وتخبرني أن لديك ما يمنعك من المجيء إلى .

ليس فقط لأنني أبوك وأنت ولدى ، لكن هذا أيضًا من آداب المدنية والحضارة والأخلاق الاجتماعية ، ولا يمكنك القول بأنك لا تدرى شيئا عن نظام الدنيا ، ودستورها الذى تمضي عليه ، فلكل بيت رب ، ولكل حى رئيس ، ولكل سوق شيخ ، ولكل مدينة عمدة ، ولكل بلد ملك أو رئيس ، ولكل جيش قائد ، ولكل عمل مشرف ، ولكل فرقة زعيم . والخلاصة أن كل بيت مملكة صغيرة ، وأكبر إنسان سنًا فى البيت يكون بمنزلة الملك والحاكم ، وبقية من فى البيت رعايا ، يخضعون لحكمه ، فلو ساء نظام الملك نتيجة غفلة الحاكم أو خطئه ، فإن مسئولية ما يصيب هذا البيت من خراب أو دمار تقع على عاتقه ، وأنا أعترف بهذا فى حسرة وندم ، لأنني حتى الآن ملك غافل ، وحاكم جاهل ، وغفلتي هذه أصابت ملكي بالدمار والخراب ، وجهلي لم يجعلني فقط ضعيف السلطة ، بل جعل الرعية ذا حال سقيم ، لا أمل فى إصلاحه ، تمامًا مثلما أضاع بعض السلاطين والرؤساء ولاياتهم ، نتيجة غفلتهم وجهلهم ، فقد أضاع واجد شاه سلطنته في لكهنو بسبب لهوه وطيشه ، وسقط والي تونك من على عرشه ، وأنا أيضا مسئول أمام ملك الدارين عن خراب بيتي ، وحين أرى ما أصاب الآخرين من عقاب ؛ يزداد تصميمي على إصلاح ما أصاب بيتي من خلل ، وتعويض ما تعرض له بيتي من خسارة ، والتخلص من أى سقم ، وأخطر ما فى الأمر هنا ، هو أنني ورعاياى –

أى أنتم - رفعنا راية العصيان أمام ملك الدارين ، ولم ندفع له خراج العبادة المفروض علينا ، وهو خراج قليل جداً ، ولو أردنا لما بقى علينا قسط واحد لم ندفعه ، ثم ندفع بعد ذلك ما علينا فى وقته دون تأخير ، ورغم تقصيرنا الواضح ، لا يمكننا أن نؤول تأويلا غير معقول ، عدم أدائنا لما علينا من واجب .

والأمر الآن ذو شقين : إما أن نؤدى ما علينا قبلا ، ونطلب العفو والمغفرة على تقصيرنا فى أداء ما علينا ، ونعاهده على ألا نقصر فى أداء واجباتنا مستقبلا ، وإما نتعارك مع مالك الدارين ، ونواجهه ؛ ويمكن بالتالى أن نخرج عن طوعه ، لكن ماذا نفعل نحن الضعفاء أمام جبروت ملك الدارين ، لقد مر على هذه الدنيا أناس مثل فرعون ، والنمرود والشداد ، وهامان ، وقارون وغيرهم من الجبابرة ، بغوا وعصوا ملك الدارين ؛ فلم يبق منهم أثر ، وهكذا ليس أمامنا سوى الطاعة .. لقد دعوتكم حتى تفكروا وتفهموا وتعقلوا الأمر ، دعوتكم للتشاور ، وتبادل الرأى ، وعدم تلبية الطلب يعنى أنه ليس فى قلوبكم ذرة خوف من الحاكم .

حتى الآن أستخدم أسلوب التشبيه والتمثيل فى مخاطبتك ، ويمكنك أن تفهم ، تحت أى ظرف أجد نفسى مجبراً على التدخل فى شئونك ، والتعرض لأفعالك ، لا شك أنك تعتبر تدخلى هذا فى غير محله ، وغير جائز ، لكن عليك أن توازن - بعدل - بين مسئوليتك ومسئوليتى ؛ عندها ستعرف أن تدخلى هذا ، لم يكن أبدا فى غير محله ، أنا لا أستثنى نفسى وغيرى مما حدث ، فلماذا الشكوى ؟ وعلام العتاب ؟

أمثالكم من الشباب ، يصيبهم أحيانا شكوك فيما يتعلق بالدين ، وهذا ليس بعيب لأن الشك دليل على الرغبة في البحث والتقصي ، والبحث نتيجته دائما الوصول للهدف ، فلو ساورتك الظنون أحيانا ، فأنا موجود للرد عليها ، وعلى قدر علمي ، فإن أصول الدين أصول صحيحة ويقينية وبديهية ، لا يمكن أن يكون فيها مجال للتردد ، أو الإنكار ، ولأننا كنا منذ البداية نعيش في غفلة ولا مبالاة، ونعيش حياة العصيان ، لذا رسخت فينا عادة ارتكاب الأخطاء والذنوب ، وتجرأنا على معارضة أحكام الله عز وجل .

ولا شك أنني أعرف بل أؤمن بأننا خلال مدة بسيطة ، سنجلي من صدورنا صدأ المعصية ، ونضيء قلوبنا بنور الإيمان ، لكن كل ما أبغيه بالفعل هو فقط أن يفكر كل واحد بما يتناسب مع أحواله .

حين أفكر في حياتي وحياتكم السابقة ؛ ينفطر قلبي أسى وحزنًا ، لأنني أنا سبب كل هذا الفساد ، وأنا سبب كل هذا البلاء ، ليت ذنبي كان قاصراً على سيئاتي فقط ، لكني أحمل على عاتقي ذنوبكم أيضًا ، فأنا مذنب في حق الله ، وأنا مذنب في حقكم أيضًا ، لكن للأسف فإن كفارة هذه الذنوب ، وتلافي هذه الخسارة خارج عن سلطاتي ، فعليك أن ترحمني وتصلح من حالك ، هل ستكون مسرورا لو جئت يوم القيامة خجلان أسفا ؟ هل يعجبك أن أكون موضع غضب الله يوم الحشر ؟ ولأنك أكبر أولادي ؛ فأنا أعتمد عليك أكثر من الآخرين ، حتى تعاونني في حل هذه المشكلة ، وتساعدني وتعضدني ، لا أن تبعد عني وتتركني وحدي .

أقول لك الحق ، إن آمالى تحطمت ، وجميع خططى الذهنية تبعثرت ، فالخطب عظيم وأنا وحيد ! والعمل صعب ، وأنا وحدى دون معين .

إنك تعرف أن انحرافك عن جادة الطريق ، سوف يؤثر على ما أخطط له لإصلاح البيت ، فالصغير والكبير يعتبرك سندا له ، وهم دائما ينقلون كلامك ، فلو قبلت شروطي لصالح الأسرة كلها ، فماذا يضرك ؟ لقد بدأت منذ البداية متشددا بطريقة لم أتوقعها ، ما عساه تكون عاقبتها ، إنني لا أجهل المشاكل التي ستواجهنى ، ولو كان من سلطتي ترك ما أنوى عمله لتركته ، لكني أعرف أنني لست بالرجل الذى لا مثيل له في هذا العالم ، ففي يوم من الأيام سألفظ أنفاسي ، ومنذ أيام حين أصبت بالكوليرا ، كنت على حافة القبر ، وبقدرة الله كتب لي أجل جديد ، لكن إلى متى ؟ الله أعلم :

"من ذا الذى يعيش طويلا حتى يوم القيامة

فالكل مآله القبر ، ولكل نقول مع السلامة "

وكما أن الموت حق ويقين ، فإنه من اليقين أيضًا أن أعمالى ستعرض يوم القيامة على رب العالمين ، ليس فقط أعمالي وأفعالي بل أعمالكم أيضا وأفعالكم ، فلو جئت عندى وتحدثت معى ؛ فسأعرف رأيك وأحدثك بما يناسبك ، فأنا لا أعرف أى كلام مما ذكرت نال قبولك ، وأى كلام لم تستحسنه !

أرى أن الكتابة أكثر من هذا مجرد فضول وعبث ، لكني كتبت لك ما في ضميرى ، لا أطلب منك الرد ، وذلك لسببين اثنين : الأول أننى

لا أقـدر على احـتـمـال ألا يكون لكلامـى أثر عليك ، والثـانـي هو أننى أسـتطيع أن أسـمـع إلى رد واحـد يـأتينى منك بطيب خـاطر ، وهـو أنك موافق على شروطى ، وإلا فـإننى لا أعـير عـلاقـة القـرابة أهـمية : وذلك حـتى أنجـو بنفـسي من سـؤال يـوم الدين ، وأدعـو الله ألا يضطرنى ، لاختيار هذا الطريق ، والدعاء لله أن يوفقك " .

بعد أن قرأت الأم الرسالة قالت لكليم :

- أرأيت ؟

فرد عليها كليم :

- يفعل الله ما يريد .

- أما زلت تظن أن أباك مجنون ؟

- أظن ، إنني على يقين من ذلك ، وكما يقول الشاعر :

"إن لم يكن مجنونا فهو ليس بعاقل "

يظن نفسه ملكًا ، أليس ذلك جنونًا ؟

- إنا لله وإنا إليه راجعون .

- لماذا ؟ علام تقولين إنا لله ؟!

- على فهمك المعكوس ، وعلى قسمتك السيئة .

- أحسن أن تكون سيئة .

- ألن تذهب حقا إلى أبيك ؟

- يبدو أنه علم أنني لن أذهب إليـــه ، فما ضـرورة الكــلام ، لنرى ما سيحدث في الغد .

- انظر ! أقول لك فكر في هذه الرسالة بهدوء طول الليل ، لم يكتب أبوك أية عـبـارة دون أن يكون لها مـغـزى ، وأي إنسـان سـيـرى هذه الرسالة ؛ سوف يخبرك بأن كل ما فيها كلام معقول .

الفصل الثامن

(وصلت ابنة الخالة صالحة ؛ فارضت نعيمة ، وأطعمتها ، ثم اصطحبتها إلى بيتها)

* * *

لم تكد نعيمة تنهى كلامها حتى وصلت صالحة إلى البيت فسألت خالتها على الفور :

– أخبرينى هل أكلت نعيمة شيئًا ؟

– لم تأكل ولم تشرب .

– أين هى ؟

– إنها بالغرفة الداخلية .

– ماذا حدث يا خالتى ؟

– ألم يخبرك عليم بشىء ؟

– قال فقط إن شجاراً وقع، وإنها تُضرب عن الطعام منذ الصباح، حاولت أن استفسر منه عن الأمر ، لكنه لم يذكر شيئًا ، وقال حين تصلين إلى البيت يمكنك معرفة كل شىء .

عندئذ حكت الخالة لصالحة كل ما حدث من البداية حتى النهاية ، كانت صالحة فتاة عاقلة ، ورغم أنها أصغر من نعيمة ، لكن الاثنين تربطهما علاقة حميمة ، فكرت صالحة فى الصعوبات التى ستواجهها مع نعيمة ثم قالت لخالتها :

- إن شاء الله سوف أرضيها ، لا يجب أن يكون معى أحد ، لأن كل من فى البيت يعرف حالتها ، ولا ينبغى أن يأتى أحد عند باب غرفتها أيضاً .

كان ما فكرت فيه صالحة معقولا ، لأن أى إنسان يتعرض للإهانة؛ يظن أن كل من رآه وقتها عدو له ، وبالنسبة لنعيمة ربما لأنها تظن أنهم كانوا يقفون أمامها ، ثم لم يمدوا لها يد المساعدة ، فإذا ما شاهدت أحدهم ؛ ستشعر بأنهم كانوا سببا فى إهانتها وفضيحتها ؛ مما يثير غضبها ، ويزيده أكثر فأكثر ، وهذا تماما ما حدث مع الخادم المسكينة التى نالها الضرب دون وجه حق وإلا فما هو ذنبها؟ فهى لم تنطق بكلمة ، ولم تتدخل بين الأم وابنتها ، ولم تنحاز لأى طرف ، فمن ذا الذى أتيحت له فرصة التدخل ؟ فالكلام جرى بين الأم وابنتها ، ودار الحديث بين أخذ ورد - كما يحدث عادة - وفجأة صفعت الأم ابنتها . والخلاصة أن كل شىء حدث بسرعة دون مقدمات ، ودون نية ، فكانت الصفعة على الوجه وأهل البيت واقفون يشاهدون ما حدث فى ذهول .

وافقت الخالة على رأى صالحة ، بل أعجبت به ، وطلبت من الجميع عدم الاقتراب من المكان ، وكان الجميع قد أصيب بالإرهاق من جراء النوم وهم جلوس، واتفق الجميع على أن يناموا فى قسم الرجال بحجابهن ،

وقالت الخالة لصالحة إنها ذاهبة إلى كليم ، فقد حدثت بينهما مشادة ، وتساءلت صالحة :

– ماذا يا خالتي هل تقاتلت مع كليم أيضاً ؟

فردت الخالة :

– كيف أتقاتل معه ؟ إنه معاند شديد العناد .

– لماذا ؟

– الحكاية وما فيها أن أباه أرسل إليه ليقدم له النصح ، ويطلب منه أن يصلي ويصوم ويتقي الله .

– زوج خالتي طلبه ، ولم يذهب إليه ؟

– ها أنت تعجبت حين عرفت أنه لم يذهب لأبيه ، سوف تصابين بالحيرة حين تسمعين كلامه ، إنه ينعت والده بالجنون والهوس ، ويعيب على أهل الدين سلوكهم ، ويعيب أئمة المساجد ، ويقول بأنهم متسولون و.. وكلام آخر لا يقال .

– ربما أخطأ أحد في حقه .

– أنا فقط كنت أتكلم معه وجها لوجه .

– ألا يوجد أحد ينصحه ؟

– حاول عليم معه كثيراً ، حتى يئس منه ، وأنا منذ المغيب حتى الآن أناقشه وأحاوره حتى أصابني التعب ، والله وحده يعلم المصائب

التي نزلت علينا اليوم ، لم نتناول شيئًا أنا وحميدة طول اليوم ، وكل ذلك بسبب قلقنا على نعيمة ، بالإضافة إلى قلقنا على كليم ، والأصعب من هذا وذاك رعاية طفل نعيمة الذي ظل يبكي طول النهار .

- يا خالتي ، تناولي طعامك ، لا شك أنني سأطلب الطعام لنعيمة بينما تتناولين أنت طعامك .

- علام العجلة ، سوف أتناول الطعام ، انظري إلى صبر حميدة المسكينة إنها لم تفكر حتى في أن تطلب الطعام ، وقضت نهارها دون أن تضع في بطنها أي طعام ، وقد حاولت أن أقنعها بتناول الطعام لكنها رفضت ؛ وفي النهاية نامت المسكينة على لحم بطنها .

- هل أغضبت حميدة أيضا ؟

- لا ، إنها لم تأكل حزنا على حالة أختها ، كانت كمن يريد أن يقضي على نفسه ، وهكذا شعرت حميدة بالقلق ، وكانت ترغب في أن تأخذ ابن أختها لينام في حضنها في الليل .

- أيقظي حميدة وتناولا الطعام معا، ولا تقلقي بالنسبة لنعيمة .

ثم بدأت صالحة تدور في البيت ، وأخذت تنادي : يا خالتي ، أين نعيمة ؟ هل هنا من يخبرني عن مكانها ؟! ذهبت أولا إلى المطبخ ، فلم تجدها ، فذهبت إلى المجلس فلم تجدها ، ثم ذهبت هنا وهناك ، متظاهرة بالبحث عنها إلى أن وصلت بالقرب من الحجرة التي فيها نعيمة ، كانت نعيمة مستلقية على الأرض طول اليوم ، لكنها نهضت حين سمعت صوت صالحة ، ونامت على السرير ، بعد أن أعطت ظهرها لباب الحجرة .

قالت صالحة متظاهرة بأنها لا تعرف مكان نعيمة :

– من هذا النائم على السرير ؟ ثم شهقت : آه .. ها .. أنت وحدك هنا وتنامين هكذا مبكراً !!

قالت هذه العبارة واندفعت تعانق نعيمة .

حين سمعت نعيمة صوت صالحة تعجبت ، كيف جاءت صالحة هكذا فجأة ، لكنها لم تفكر في أنهم استدعوها من بيتها ، تظاهرت نعيمة بأنها كانت نائمة منذ مدة ، فقالت بصوت رخيم :

– يا أختاه لا تقلقيني ، اتركيني أنام .. أوه !

فقالت صالحة :

– آه ، يا بنت خالتي العزيزة ! أنا صالحة استيقظي ، افتحي عينيك ، لماذا تنامين هكذا مبكرا ، كيف حالك ؟

ومع أن نعيمة كانت تريد أن تخفي عن صالحة ما تعانيه ، لكن سؤال صالحة لها لم يسمح لها بتمالك نفسها؛ فانفجرت في البكاء ، وحين رأتها صالحة تبكي ، بدأت تمطرها بالأسئلة وكأنها مصرة على أن تعرف الجواب :

– ماذا؟ هل أصابك الصداع ؟ هل عندك مغص ؟ هل أصاب طفلك مكروه لا قدر الله ؟ هل قال لك أهل زوجك ما يغضبك ؟ ماذا ؟ أخبريني .

كانت صالحة توجه أسئلتها بينما نعيمة تدفعها بيديها دون أن تجيب عليها ، وفي النهاية قالت صالحة :

– لا تخبريني بشيء ، كُليني إذن !!

عندئذ غضبت نعيمة وقالت :

– روحي أيتها الماكرة ، أتخادعينني ؟ ألم تعرفي ما حدث ؟

فردت صالحة عليها قائلة :

– الآن جئت من مجلس وعظ الشيخ هداية الله ، وحين وصلت هنا وجدت خالتي والجميع في قسم الرجال ، كل ما عرفته أن الأخ الأكبر غاضب ويريد أن يترك البيت ، وكنت في عجلة أريد رؤيتك وأمضي ، سلمت على خالتي ودخلت على طول .. وهنا لم أجد أي بني آدم ، فبحثت عنك في كل مكان في البيت .

– لماذا ؟ لأي سبب يريد أخي الأكبر ترك البيت ؟

– يقولون إن زوج خالتي أرسل إليه ينصحه بأداء الصلاة ، وإلا ليترك البيت ، وليذهب حيثما شاء .

– محروقة مثل هذه الصلاة التي تجعل البيت يخلو من ساكنيه ، الآن سيتم إخراج كل من في البيت إلا حميدة .

– هل تبكين لأن أخاك الأكبر سيترك البيت ؟

– أنا لا أدري شيئًا عن المسكين حتى اللحظة ، أنا نفسي كنت أفكر في الخروج .

– استغفري الله ، لا .. لا يا ابنة خالتي ، لماذا يخرج هذا الفأل السيئ من فمك ؟ لا قدر الله ، ومعاذ الله أن تترك بنات الأشراف بيت العائلة ، وتخرجن منه هكذا.

– منذ شاع في بيتنا أمر هذه الصلاة والصوم ؛ انتهى كل شيء بما في ذلك الشرف ، منذ عدة أيام تغير طبع كل شيء ، لم تعد الأرض هي الأرض ، ولا السماء هي السماء ، لقد تغير رب الدار ، ولم يعد جو الدار كما كان ، لم تعد هناك الابتسامات ولا ما يسر القلب ، ولم يعد هنا الجو المرح ، ولا الفرح والسرور ، فقد غطى جو من الحزن على البيت ، وإلا فمنذ شهر تقريبًا كانت نسوة الحي يتجمعن هنا ، تغني إحداهن ، وتحكي الأخرى حكاية أو قصة ، بينما تقلد الأخرى بعض الناس، ويستمر الضحك وتعلو الابتسامات ، والآن لم يعد هناك من يدخل بيتنا أو حتى يطل علينا ، فما هو هذا البيت الذي لا يوجد فيه غيرنا نحن الأخوة والأخوات ؟

– لكن في النهاية ما هو السبب ؟

– السبب اعتلال مزاج خالتك ، ومزاج والد حميدة ، هل هناك من يرغب في دخول بيت لا يشعر فيه بحسن الاستقبال أو العطف ، أيظن هؤلاء أن الآخرين لا مكان في بيوتهم للجلوس ، فجاءوا يجلسون هنا ؟! كان الناس يزوروننا لما يلقونه عندنا من ترحيب وحسن ضيافة وكرم ومحبة ، والآن تغير الحال بعد أن شفي أبي من مرضه ، فبعد أن كان أبي يدعو المغنيات والمطربات إلى بيتنا ، صار يدعو أئمة المساجد ، وطوال اليوم يقوم إما بالصلاة وإما بقراءة الأذكار والأوراد ، انظري إلى

السرير تجدى سجادة الصلاة مفروشة دائما ، وكذلك إبريق الوضوء جاهز فى كل حين ، وإذا ما انتهى أحدهم من عمله قام إما إلى الصلاة، أو جلس يقرأ كتابا دينيا ، وحميدة اللئيمة انضمت إليهم تملقا ورياء، ولو كان الأمر بيدى لأخذت أضربها وأضربها حتى تظل تذكر هذا مدى الحياة .

قاطعتها صالحة قائلة :

– إيه .. حميدة هذه بنت مسكينة ، إنها طيبة لم أسمع حتى اليوم أنها شقية أو مشاغبة ، ولم أر منها ذلك أيضا ، كما أنها تحبك حباً لا تحبه أخت لأختها ، أنا لا أنسى – حتى الآن – تلك الواقعة التى حدثت فى شهر رمضان ، ولعلك تتذكرين أيضا فى العشر الأواخر من الشهر ، وقد دعوتها لبيتنا ، وتم توزيع الطعام على الجميع ، وقد أعطيتها نصيبا أكبر من الآخرين فهى طفلة صغيرة ، ولكنها لم تتناول شيئا مما أعطيتها ، بينما كان الناس يأكلون ، وحين أخبرتها بأن هذه عادة غير طيبة ، قالت : لا يمكن أن آكل من شىء دون أن تأكله معى أختى الكبرى نعيمة ، وانظرى طول اليوم تحمل طفلك فى سرور ، وتحاول بشتى الطرق تسليته ، وهى تحتضنه فى حنان ، فيسكت بين يديها ، أقول لك الحقيقة إنها بنت لطيفة تحب الجميع ، كلما جئت إليك ، أخذت تعانقنى بحب وعاطفة صادقة .

فقالت نعيمة :

– كل من هنا يردد اسم حميدة ، حميدة ، أما أنا فحين أراها يغلى الدم فى عروقى .

- لمــاذا ..؟

- لأنهـا سـبـبت المشـاكل بيني وبين أمي ، وإلا فلم تقــل لي أمي حـتى اليـوم كلمـة تمسني ، لكن اليـوم فـجـأة ، دون كـلام أو سـلام ، صـفعتني على وجهي ، ولن أســتريح حتى أراها تُضـــرب بالحذاء ، حتى تخسف بها الأرض .

- هل صفعتك خالتي على وجهك ؟ متى ؟ وكيف ؟

- اليوم صباحًا ، أعطيت الطفل لحميدة حتى أغسل وجهي ، وأنت تقولين إنها تحب ابن أختها وتفديه بروحها . انظري .. تركته يبكي على الأرض ، لم تفكر حتى في عظامه الطرية ، وفيما قد يصاب به من برد ساعة الفجر فيمرض ، وهكذا كان ذنبي أن طالت يدي حميدة ، وحين وضعت يدي عليها سقطت على السرير ، فأصيبت بجرح .

- ماذا أقول ؟ أنا لا أصدق أن يحدث هذا ، كيف تضع حميدة ابن أختها على الأرض يبكي هكذا دون سبب ، ثم تأخذ خالتي جانب حميدة فتصفعك على وجهك ، من الأفضل أن أذهب وأسأل خالتي ..

- أنا أعرف سبب وضعها الطفل على الأرض ، لأنها كانت تخشى أن تفوتها الصلاة ، أما أمها فقد غضبت لأنني تكلمت عن الصلاة كلاما غير طيب .

- هل تكلمت عن الصلاة كلاما غير طيب ؟

- تكلمت ، نعم ، وأتكلم الآن ، أنا لم أشتم أمي ، لماذا تغضب إذا تكلمت أنا عن الصلاة مثل هذا الكلام ؟

– إذا عاب أحد أباك أو أمك ، ألا تستائين من ذلك ؟

– لا يهمنى لو عاب أحد أمي ، أو لم يعبها ..

– اليوم فقط ، أو قبل ذلك ؟

لم تستطع نعيمة أن تكتم ضحكاتها فقالت :

– انظرى .. رغما عنى أجد نفسى أضحك ، يا لوقاحتى ، اسمعى يا أختى ..لا تتحدثى معى هكذا .

– حسنا ! حسنا! اسمعى أنا لا يخيفنى غضبك ، لقد صفعتك خالتى على وجهك صفعة ، اصفعينى اثنتين ، لكن لا تقولى هذا الكلام عليها ، لماذا تشاجرت مع أهل زوجك ؟

– إذا أسىء لأحد باستمرار ؛ فلابد أن يمل الحياة فى هذا البيت .

– متى قلت أنا إن هذا غير صحيح ، لكن ردك على كلام خالتي عن الصلاة لم يكن فى محله .

– ماذا ؟ هل الصلاة أمها أو جدتها حتى تتضايق ؟

– إن من قلبه عامر بالإيمان ؛ تكون الصلاة أحب إليه من أمه ، وأعز عليه من جدته .

– هل أنا بالنسبة لك غير مؤمنة ؟

– قد يكون أى إنسان غير مؤمن ، فمن يرتكب أعمال غير المؤمنين يكون غير مؤمن ، سواء كان هذا الإنسان أنا أو سواء كان أنت فلا فرق فى هذا ..

– انظرى يا صالحة .. مثل هذا الكلام يؤدى إلى الشجار ، من لا إيمان له هو أنت .

– بفضل الله أنا محافظة على إيمانى ، أما أنت فلا ..

– حسنا ، أنا غير مؤمنة فى نظرك ، أخبرينى ، ماذا رأيت فى سلوكى يجعلك تنعتينى بهذه الصفة ؟

– لا تتحدثى عن الإيمان .

– بالله عليك ، قولى شيئا ..

– ربما يغضبك ما أقول !!

– لماذا أغضب من قول الحق ؟

– الصدق والحق هو أنه ليس فى قولك وعملك ما عند أصحاب الإيمان من قول أو عمل ، ولماذا تسألينني ؟ أخبرينى أنت بنفسك أى عمل تقومين به لوجه الله ، والطعام ، والأكل والشرب ، والنوم ، وأعمال المنزل ، وتربية الأطفال ، هذه كلها من أعمال الدنيا ، لكن أخبرينى بعمل يدخل فى بند الإيمان ، فى عمل يدل على أنك مؤمنة حقا ؟!

– يبدو أنه لا يوجد فى نظرك مؤمن فى هذه الدنيا .

– لماذا لا يوجد ؟ هناك المئات بل الآلاف من العباد .

– أخبريني بأى اسم ؟

– لماذا نذهب بعيدا ، هنا فى حارتكم تقيم " حضرة بى " ، أحفادها يدرسون مع عليم فى المدرسة نفسها ، هذه سيدة مؤمنة ، انظرى إلى حياتها الطيبة .

– إننى أراها تحيك الملابس طول اليوم !!

– صحيح ! لكنها تحيك للفقراء ملابسهم بالمجان ، وتأخذ أجرة من الأغنياء فقط ، وما تكسبه من عمل الحياكة تنفقه فى سبيل الله ، لا تنفق على نفسها قرشًا واحداً من هذا الكسب ، انظرى إليها فى هذا السن ، تنهض فى جوف الليل، تصلى وتتهجد ، ليس فى بيتها خادم ولا طباخ ، تؤدى جميع أعمال البيت بنفسها ، وتلتزم بأداء الصلاة فى أوقاتها ، لدرجة أنها لا يفوتها وقت صلاة التهجد، كم من بنات الحى درسوا على يدها ! كم حيوانًا جعلت منه إنسانا مهذبا ، وذلك كله احتسابا لوجه الله !!

لقد رأيتها بنفسى تعد الخبز لخمسة عشر أو عشرين مسافرا يجلسون في المسجد ، وهى تقوم بالعجن والخبز بمفردها ، ثم ترسل مع الخبز ما لديها من طبخ ، وتكتفى هى بأكل الخبز فقط ، وقد شاهدتها على هذه الحال ، فقالت يا بنيتى إننى أفضل أكل الخبز هكذا ؛ فهو أسهل على معدتى ، فسبحان الله !

وقد طلب منها أحد التلاميذ أن تصنع له قميصا ، فطلبت منه قميصاً قديماً لتأخذ مقاساته ، ولكن المسكين لم يكن لديه أى قميص ؛

فسألته عن مقاساته ، فذكرها بالتقريب ، فوجدت أن القماش لا يكفى ، فأخبرها التلميذ أن تصنع له القميص كيفما يكون ، وحين خاطت له القميص وجدته ضيقا ؛ فبكى المسكين لأنه كان ينوى ارتداء القميص والذهاب لأداء صلاة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان فى المسجد الجامع ، وتحول حزنه إلى غضب ؛ فظل يخاطب السيدة الطيبة بكلام غير لائق ، وهى تحاول أن تسترضيه بعرض بعض قمصان أحفادها عليه ، وعرض الكثير من الملابس الغالية ليختار منها ما يشاء ، لكنه رفض غاضبا ؛ وفى النهاية اشترت قماشا، وصنعت له قميصًا من جديد، وسلمته له قبل صلاة الجمعة .

عليك أن تتفكرى ! كم من أعمال أصحاب الإيمان تقومين بها فى نهارك وليلك ؟

– عرفنا حضرة بى، هل هناك امرأة أخرى فى المدينة بهذا الطبع ؟

– إنك لا تعرفينهن لأنك تنفرين من مثل هؤلاء الناس ، ولا شك هناك الكثير من عباد الله الطيبين يعيشون فى هذه المدينة ، كيف أعدد لك الأسماء لكن أذكر لك أمى ، خالتك ، هى أيضًا فى حارتنا مثل حضرة بى فى حارتكم هذه .

– ربما توجد امرأتان أو ثلاث ، أما معظم النساء فهن يعشن حياتهن مثلى .

– لا شك أن الصالحين فى الدنيا قلة ، والسيئين كثر .

– أنا أعرف أن النساء لسن بحاجة إلى الصلاة والصوم ، وأعمال العبادة بالنسبة لهن تقوم على الاهتمام بأشغال البيت ، ورعاية الأطفال ،

كيف تواتيهم الفرصة للصلاة وهن في غمرة الانشغال بالأعمال المنزلية العديدة ، وعلى العكس، فالرجال لا يفكرون في الطبخ أو إعداد الطعام ، ولا ينشغلون بمشاكل الأطفال ، ولهم أن يقوموا بالعبادات كيفما شاءوا .

– أليس كسب العيش الذي يقوم به الرجال شيئًا هينًا ، فهم مشغولون به طول اليوم ، والمساكين يبدءون العمل من بزوغ الفجر إلى منتصف الليل أحيانًا ، ألا تسمعين أصوات من يسعون للرزق في تلك الأوقات ، ومع هذا فما يوفرونه لعبادة الله من وقت ، لا توفر النساء نصفه بل ولا ربعه .

– مهما قلت ، فلا يمكن أن تكون المرأة مساوية للرجل ، لا بد أن الله تعالى أعطى للمرأة تسهيلات معينة .

– والسبب ؟

– كيف للمرأة الضعيفة أن تؤدى الأعمال الشاقة ؟

– إن عبادة الله لا تحتاج إلى حمل أثقال ، أو قطع أخشاب ، حتى يقال إن المرأة الضعيفة الرقيقة لا تقدر عليها، ولكن بحسبة بسيطة ندرك أن المرأة عليها أن تؤدى حق العبادة أكثر من الرجل ، فهي أولا لديها فرصة أكبر لأداء العبادات ، وثانيا لأنها تنال من نعم الله أكثر مما يناله الرجل ، في الطعام والشراب يتساوى الجميع المرأة والرجل ، بالنسبة للملابس المرأة تنال نصيبا يفوق نصيب الرجل عشر مرات ، سواء من ناحية العدد أو القيمة ، ناهيك عن أدوات الزينة و الذهب الحلي وغيرها ،

فالمرأة تود لو حفرت قبرها فى منجم من الذهب ! والرجل المسكين قد يضع فى إصبعه خاتما من فضة وقد لا يضع ، ومع هذا تقولين إن المرأة ليست بحاجة إلى عبادة الله وشكره على نعمه ، هذه أوهام وكما يقول المثل : وقت الأكل شغال ، ووقت العمل بطال .

– أنت ! على كل أنا ونصيبى ، بالنسبة لك كان من الأفضل أن تكونى مع الشيوخ والوعاظ .

– الشـيـوخ والوعـاظ ؟! من يصل إلى مكانتـهم ؟! هل أليق أنا بمكانتهم ؟! أنا لا أساوى التراب الذى يمشون عليه .

– يا أسفاه لأنك لم تولدى هنا فى بيت أمى !

– لماذا الأسف ؟ أنا أرى أن الأمر يستحق الشكر .

– لماذا ؟

– أخبرينى .. على أى أمر تتأسفين ؟

– أنا أتأسف لأنك لو كنت هنا بجوار أمى ؛ لاتفقتما معا فى كل شىء ، إن أمى تبحث عن ابنة مثلك ، ولو أنك عشت فى مثل منزلنا العامر هذا ؛ فسوف تتمتعين بكل مباهج الحياة : الطعام الملابس ، والحلى والمجوهرات ، والخدم والحشم ، وما إلى ذلك ..

– لو كانت نتيجة هذا السرور وهذه المتعة أن ينسى الإنسان ربه ؛ فإن جميع ما ذكرت هو بالنسبة لى آفة فى الدنيا ، ووبال فى الآخرة ، من يقبل بمتعة أيام معدودات ، ليقع بعد ذلك فى مصيبة دائمة ، بالنسبة

لى يسر الله لى كل شىء ، الطعام الذى يشبع معدتى ، والملابس التى تغطى بدنى ، وبيت أقيم فيه ، وسرير أتمدد عليه ، وماء زلال أشربه ، وهواء عليل أتنفسه ، ولا أرى أننى بحاجة إلى أى متاع آخر من متاع الدنيا ، ولا فرق بين ما لديك وما لدى سوى الأحجار ؛ أقصد الذهب والفضة التى تحملينها ، والتى شرمت من ثقلها إذنيك ، وآذت أنفك ، ولا أقول - لا قدر الله - أنك تعانين من قلة الأكل ، لكن شكلك يدل على أن عظامك غير مكسوة باللحم ، يداك ضامرتان ، وكذا رجلاك ، وبين يوم وآخر تحتاجين للذهاب إلى الطبيب ، وتحتاجين الدواء ، أما أنا فانظرى إلى ، فأنا - بفضل الله تعالى - سليمة صحيحة ، إذا أمسكت يديك بيد واحدة ، ما استطعت الحراك .

- المرض علامة الغنى ! كيف يمرض الجائع الفقير الذى لا يتيسر له الطعام ؟

- هنا لا يقال علامة ، أو خلعة أو نشان ، هنا يقال ألم وتخمة .

- حسنا ! افرحى ! الثعلب إن لم يجد العنب قال إنه حامض .

- كل على قدر فهمه ، أنت تظنين أننى أعانى وأقاسى ، وأنا أقول إنك ابتليت بعذاب ، أدعو الله ألا يصاب به كافر ، إن ما تتمتعين به من وفرة فى المأكل والملبس ورغد العيش ، نتيجته أنك صرت دائما حزينة ، مهمومة ، مغمومة ، ثم ماذا تفعل لك هذه الملابس التى تضعينها على جسمك فتشعرين بالفرح والسرور ، من يراك بهذه الملابس الآن سوى زوج خالتى وأخوك الأكبر ، بقيت هذه الحلى والمجوهرات التى لا تدفعين

عليها زكاة ، ولا صدقات ، سلاسل السجن أفضل منها، لماذا لا تطوقين رقبتك بالسرور والمحبة والعشرة الطيبة ، ألا تفكرين فى حالك ، نزاع مع أمك ، عداء مع حميدة أختك ، علاقة سيئة مع حميك وحماتك، عدم اتفاق مع زوجك ، شكوى الخدم منك ، هل تظنين أنك فى سعادة وسرور مع كل هذه الأمور ، والآن أكنت تبكين أم تضحكين ؟

– سبحان الله ! أى إنسان أنت ؟! ألا يحدث شجار فى البيوت ؟ لو وضعت أربعة آنية معا فسوف تخبط فى بعضها وترن !

– لو كان الأمر كذلك ، فلماذا جعلت من الحبة قبة إذن ؟

– من جعل من الحبة قبة ؟

– فكرى بقلبك ، هل ما فعلته معك أمك مصيبة ، حتى تجلسى هكذا من الصباح تموتين جوعا ، وتجوّعين معك جميع من فى البيت ؟ حسنًا يا أختى ! حسنًا ! تشاجرى مع أمك ، وأغضبى ربك !

– دائمًا تذكرين الله فى أى كلام ، متى أغضبت الله ؟

– الرزق يأتى من الله أو من أبيك وأمك ؟

– من الله .. ماذا بك ؟ تلونين الكلام .

– أنا أخاطبك بطريقتك .

– ما هو الغضب .

– حسنا ، الغضب ، والغيظ ، مرة على من لا يستطيع الكلام ، ومرة على من لا روح فيه.

– على من لا يستطيع الكلام ، وعلى من لا روح فيه ، ما هذه الألغاز ؟

– من لا روح فيه أى الطعام ، ومن لا يستطيع الكلام طفلك الرضيع ، لقد سمعت أنك أشبعته ضرباً !

– ابنى وأنا حرة فيه .. أضربه كما يحلو لى .

– تضربين ابنك كما يحلو لك ، ثم إذا مدت خالتى يدها عليك مرة أقمت الدنيا ، وكما أنت أم لطفلك ، فهى أيضا أمك .

– نعم ! أم تساوى أما ، لكن طفلا لا يساوى طفلاً .

– لكن من ترعاكما معًا ؟

– أنا !!

– أقطع رقبة هذه الأنا ، كيف تقولين أنا ، طهرى لسانك هذا ..

– راعى أصول الأدب مع من هى أكبر منك .

– الكبار فعلوها ، والصغار تعلموها .

– لا تقفى بجانبى ، ولا تهتمى بأمرى ، الله هو المعين !

– لماذا تكذبين ؟

– بس .. قولى أى شىء إلا الكذب ، أنا لا أكذب ، إن من يتهمنى بالكذب يشعل النار فى بدنى .

- حسنا ، لقد قلت الآن الله هو المعين ، مالك كل شيء .

- هل هناك إنسان ، بشر لا يؤمن بذلك ؟

- إذا كنت تؤمنين بذلك، فلماذا تكلمت بكلام فارغ أغضب خالتي ، وهي محقة في غضبها .

- هل تظنين أنني قلت ذلك عمداً ؟ لقد خرجت الكلمات مني عفواً .

- لكنك لم يحدث أبدا أن قلت مثل هذا الكلام في حق زوج خالتي والدك يعني ، بل إن قلت مثله في حق أخيك الأكبر؛ غضب منك غضبا عظيماً ، فهل ما قلتيه لا يغضب الله ؟

سمعت نعيمة هذا الكلام ؛ فشعرت فجأة بالخوف ، وأخذت تلطم وجهها بيديها وهي تقول : توبة .. توبة .

- إذن اعتبري أن خالتي لطمتك كما تلطمين نفسك الآن .

- ماذا ؟ هل أقول شيئًا أو أنني قلت شيئًا ؟

- ليتك تقولين ما بداخلك ، ولا تقترفين أي ظلم ؟

- ماذا ؟

- جعلت كل من في البيت دون طعام طول اليوم ، والطفل المسكين لم يرضع أيضًا ، والخادم المسكينة .. من خبطك إياها جاءت تصرخ ، وكأنها ضربت بالسوط ، لدرجة أن أنفاسها لا تزال تتلاحق في صدرها حتى الآن ، ثم تقولين : ماذا !

– حسنا ، ما حدث حدث وانتهى .

– لم ينتـه، إنه مـا زال يحـدث ، فـأنت تجلسين جـائعـة ، والطفل يصرخ .

– هل هذا بالقوة أيضا ، يضربون ثم لا يسمحون بالبكاء .

– لقد كبرت ، ألا تخجلين من ذكر كلمة البكاء .

– إن تعرضت للإهانة ، فما هو الخجل من البكاء .

– إذا كـان تأديب الأم ، أو تأديب المعلمـة إهانة ! فـعلى الدنيـا السلام !

– لو تعرضت للضرب ؛ فسوف تعرفين هل هو إهانة أو لا !

– لا يمكننى أن أعد المرات التى ضـربتنى فـيها المعلمة ، كما أن أمى ضربتنى عشرات المرات .

– لا.. وأنت كبيرة فى هذا العمر .

– أنا الآن لا أرتكب ما لا ترضى عنه أمى .

– لو فهمت رد فعلها ، ما قلت ما يغضبها ، فأمى لم تكن تهتم أبدا بمسألة الصلاة والصوم كما تهتم هذه الأيام .

– لكن خـالتى حـاولت أن تمنعك أكـثـر من مـرة ، ورغم ذلك زاد عنادك ، وما كان ينبغى عليك أن تقولى ما يغضبها .

– لو أننى أعلم أن ما قلته يغضب الله لما تلفظت به وقتها .

– أخبريني أولا ، هل كلامك سيئ وفي غير محله أو لا ؟!

– خلاص .. سيئ . خلاص !

– ما معنى خلاص ! ، سيئ جداً وفي غير محله ، لقد تفوهت بكلام لا يمكن حتى أن تقوليه لأخيك ، ومثل هذا الكلام كفر وشرك ، لن تنالي عليه عقابا فوريا ، لكن لا يجوز أن تفرحي ، فسوط الله ليس له صوت ، ولا عجب أن يكون وبال كلامك هذا ألا تعمري في بيتك .

– لو ضربتني أمي بيني وبينها لما تأذيت كما تأذيت قبلا .

– سبحان الله .. يرتكب الخطأ على الملأ ويريد أن يعاقب خلف الجدار ، من يرتكب الخطأ علانية لا بد أن يعاقب أمام الجميع .

– حسنا، ماذا يرضيك يا صالحة ؟

– ما يرضيني هو أن نذهب إلى خالتي الآن ، تمدين يديك إليها ، وتمسحين على قدميها ، وتعتذرين لها ، وتتناولين الطعام ، وتطعمين بقية أهل الدار ، وترضعين طفلك ، تنادين حميدة وتعانقينها ، وتربتين على كتف الخادم المسكينة

– نعم ! اسمعي يا صالحة ! لا تعكسي الأمور ، لا أمد يدي لأحد أستسمحه ، أنا لم أرتكب خطأ ، أما حميدة ، فتقولين عانقيها ، وينتهي الأمر ؟ أنا لا أريد أن أراها مدى الحياة ، أما مسألة الطعام ، فيحرم على طعام هذا البيت من الآن . والخلاصة أنني لا أوافق على كل ما طلبت مني ، لكني من أجل خاطرك سأرضع طفلي ، فاذهبي أحضريه من حيث هو ، وإلا فقد كنت أنوي أن أسيح دمه ودمي !

– الله أكبر يا بنت خالتى ! لم أكن أعرف أن إطفاء غضبك يكون بهذا الشكل !

– هذه هى طبيعتى ، فأنا لا أتحمل كلام أحد .

– الحـديث أكثر من هـذا معـك لا طـائل من ورائه ، يبدو أنك لا تفكرين إلا فى نفسك .

– أكرر ما قلته من قبل سوف أرضع الطفل .

– لم تأكلى شيئا طول اليوم ، وصمت عن الطعام طوال هـذه المدة ، وأذن المغـرب ولم تفطرى ، ولا أمل فى أن تفطرى الآن ، فكيف يجـد الطفل المسكين ما يرضعه من ثدييك ؟

– يجد أو لا يجد ، لكـن يحـرم علـى أكل هذا الـبيت ، سآكل أكل الموتى .

– مـاذا سـتـفعلين فى النهاية ؟ لا يمكـن أن تعيشـى هكذا دون طعام ، انظرى إلى نفسك بعد أن مضى عليك يوم دون طعام ، لن يأتيك نوم ومعدتك خالية .

– كنت أستعد للذهاب ، ولو لم تأت آنذاك لكنت قد ذهبت من هنا .

– إلى أين ؟ إلى بيت أهل زوجك ؟

– لو اضطررت للذهاب إلى هناك ، فكأنى خـرجت من حـفـرة وسقطت فى بئر .

– إذن إلى أين ؟

– إلى حيث أجد مأوى .

– مخبولة ! ما هذا الكلام ؟ لو سمع زوج خالتى هذا الكلام ، لقامت القيامة ، هل الخروج من البيت أمر بسيط ؟

– ماذا تعتقدين ؟ أنا ذاهبة إلى جارتى ، ألا أخرج كل يوم وأذهب إليها ؟

– ذلك الذهاب شىء ، والخروج من البيت بعد الشجار دون إذن شىء آخر .. انتبهي .. لا تقولى مثل هذا الكلام ، ثم جارتك هذه قد لا تسمح لك بأن تمرى من عتبة دارها ، أذهبى إن أردت ، وعلى فرض أنك خرجت من هنا وأنها سمحت لك بالإقامة عندها ، فهى نفسها لا تجد قوت يومها ؛ من أين تطعمك ؟

– لماذا تقحمين الطعام هنا أيضًا ، أليس معى مجوهراتى ، بل معى أربعون أو خمسون روبية نقداً .

– إنك تهولين الأمر ، وتحولين الخطأ الصغير إلى جريمة كبرى ، ثم إن من ترفضين تناول طعامهم هم الذين اشتروا لك هذه الحلى والمجوهرات ، وهم الذين أعطوك هذا المال ، فلا تصرفي منه شيئا إذن . أما جارتك فأنا في حيرة ، في أى مكان ستستضيفك ، فبيتها مثل الكوخ الصغير ، وهى تقيم فيه مع زوجها وثلاثة من أولادها مع زوجاتهم وأولادهم ، بالإضافة إلى بنتين نزلتا عليها ضيفتين ، لا مكان فى بيتها حتى لتضعى فيه فراشك ، والمسكينة تضع فراشها فى صالة البيت حيث تقضى ليلها ،

فأين تنامين يا تُرى ، وكيف تنامين فى بيت يضمك مع رجال أغراب ، ثم الجارة إن كانت ستقبلك فذلك من أجل علاقتها مع خالتى . والخلاصة أن عقلك راح منك ، إن تدبرت أمرك شططت ، وإن اقترحت علاجا للأمر أفسدته ، أفضل من هذا أن تذهبى إلى بيت زوجك .

– لن أذهب إلى بيت زوجي ، ولن آكل فى بيت أبى .

– على كيفك !! افعلى ما شئت ، لكن هل الشجار كان على الأكل ؟

– لا ، لم يكن على الأكل ، لكنى لن أظل فى هذا البيت الذى تمتد فيه الأيدى علىّ بالضرب ، وإلا ...

– ماذا عساك فاعلة ؟

– سوف يكون السن بالسن و ..

– معذرة يا أختاه ، إذا كانت هذه نيتك فلا إقامة لك فى هذا البيت ، هل هذا هو الأدب ؟! لو أن أمى ضربتنى ألف شبشب على شبشب دون أى ذنب أو خطأ ، فلا أرفع – إن شاء الله – عينى فيها ، وهذا هو دستور الدنيا فيما يتعلق بالبنات ، أنت ابنتها ، وهى أمك ، ما دخل أى شخص آخر فى علاقتكما ، يا ابنة خالتى العزيزة ، لن أناقشك فى أمر الدين لكن سرور الدنيا زائل ، والله أعطاك العقل لتفهمى لماذا عاملتك خالتى هكذا ؟ ولتعلمى قدر حبها لك ، لماذا تظنين دائما أن خالتى تمل جلوسك هنا فى البيت ، ولهذا السبب فهى تستخدم معك الشدة ، لأنها لا تريد أن تراك أمامها . هل هناك أم فى الدنيا كلها يمكن أن تفكر هكذا ؟ إنهم يشعرون بآلامك أكثر منك ، وأمك إذا ما تذكرت

مشاكلك مع أهل زوجك دمعت عيناها ! وهي تدعو لك في حضورك وغيابك أن يعمر الله بيتك ، ويحميه من الخراب ، لماذا تحاولين تغيير مجرى الكلام ، وهي تهتم بطعامك دائما ، وتقدمك على نفسها في كل شيء ، وقد رأيت هذا عدة أسابيع ، فخالتي وأخوك الأكبر يتناولن الخبز العادي ، بينما يقدمان لك الفطائر في كل وجبة دون انقطاع ، وتقدم لك مصروفك اليومي أيضًا ، وذات يوم أرادت حميدة أن تأخذ مصروفها مثلك ؛ فعنفتها أمها قائلة : أتساوي نفسك بأختك الكبرى يا بنت ؟ ! وكل أسبوع تعد لك الحناء ، وكل شهر تشتري لك الأساور ، تكلمي هل تأخروا مرة عن كل هذه الخدمات ؟ والملابس التي يخيطونها لك مثل ملابس العرائس بل أحسن ، سواء ملابس البيت أو الخروج أو النوم ، ثم العطر والكريمات والزيوت وحتى "القات" التي تمضغينه ، والحناء والكحل وغيرها مما تحتاجه المرأة ، أصدقيني القول : هل اضطررت مرة لطلب هذه الأشياء بنفسك أو أنك عادة تجدينها متوفرة ؟ ثم الخدم تحت يديك ... ومرة أرادت خالتي أن تأخذ " طرحتك " المزركشة لتضعها على رأسها ، أثناء ذهابها في مشوار قريب ، لكن زوج خالتي رفض ، فقالت له نعيمة لن تقول شيئا ، لكنه قال لها أنت تفكرين على هواك ، وسمعتها تذكر أنها مغمومة جدا لأنها تشاهد الحزن في عينيك ، وأنها تحاول أن تأتي لك بكل ما تشتهين ولا تنتظر حتى تطلبي أنت ما تريدين ، فلو أن خالتي متشددة معك ؛ لكانت تناولت طعامها الآن ، وحميدة التي تقولين إنك ستكسرين رجلها ، ظلت طول اليوم تبكي من أجلك ، وفي هذه السن صبرت ولم تتناول شيئًا منذ الصباح ، انظري إلى حالتهم وإلى تفكيرك وتصرفك ، فمجرد خطأ

بسيط يتحول الخير فى نظرك إلى شر ، وتنسين كل هذا الإحسان ، فأى أمل فى صديقة مثلك إذن ؟!

– يا أختي لابد أن أعترف لك بأن أمي تعزنى كثيراً ، لكن الله وحده يعلم ماذا حدث وجعلها تضربنى هكذا ؟!

– حسنا ! فكرى إنها إنسان ، أخطأت مرة .. خلاص ، لكن لماذا كل هذا ، ومن أجل خطأ بسيط تنسين عطفها عليك طوال السنين الماضية ، ورعايتها لك ، وتربيتها لك ، وسهرها الليالى من أجلك .. مسحت كل هذا فجأة من صفحة قلبك !!

– إننى لا أزال أشعر بصفعتها هذه ، ولا أزال أتذكرها جيداً .

– ذلك لأنك تذكرت حقك وتناسيت حقوقها عليك .

– هل طلبت منك أمي أن تأتين إلي ، وتطلبين مني أن أعتذر لها ؟

– على الإطلاق ، لم تطلب ذلك ، ما حاجتها لتعتذرى لها عن خطئك، سواء كان الخطأ منها أو منك ؟ أتظنين أنها وهى تعرف طبيعتك ستفكر فى أنك ستعتذرين لها ؟

– ماذا يحدث لو ذهبت إلى أمي ولم تكلمنى ، سوف أشعر بخجل أكثر .

– ممكن ألا تكلمك لأن خطأك لم يكن عاديا ، لكنها قبل كل شيء أم ، وأم ولا كل الأمهات ! قلبها حنون على أبنائها وبخاصة عليك ، فهى تفديكم بروحها ، ولعلها إذا رأتك خرجت من هن ؛ اندفعت إليك تحضنك وتضمك إلى صدرها ، ولن تواتيك الفرصة حتى لنطق كلمة اعتذار .

– قلبي يدفعني للخروج ، لكني أشعر بالخجل، لماذا لا نؤجل الأمر للغد ؟!

– ألا تخافي الله ! البيت كله في غم وحزن من أجلك ، كيف ستمر عليك وعليهم هذه الليلة ؟

– يا أختي ! أتوسل إليك اتركيني ! اطلبي الطعام لنفسك .

– هل تطلبين مني ألا آكل وأموت من الجوع أو آكل أنا وأترك خالتي وأخواتك وأنت دون طعام ؟ كيف يمكنني أن أتناول الطعام في مثل هذا الجو ؟! أنت هنا بائسة ، وهم هناك في حالة مزرية ، هل سآكل التراب ؟ اسمعي هيا لنخرج من هنا .

– لا .. يا أختي ! لا تحرجيني أكثر ، اطلبي الطعام وسوف آكل معك .

– أنت عنيدة جدا يا نعيمة ، سنتناول الطعام ، ماذا في الأمر ؟ إن خرجت من هنا فسوف أعرف قدري عندك ، وإن كانت لي معزة خاصة في قلبك !

– هيا .. خلاص .. لا تسحبيني كالأطفال ، أنا فعلاً أذهب من أجل خاطرك، وإلا فأنت تعرفين نعيمة، فهي في جانب والدنيا في جانب آخر ، وهي لا تسمع لأحد أبداً .

– لا تمني علي بشيء .. الليل مضى أكثره ، والجوع يلوي الأمعاء في البطون ، ماذا تقولين ؟ اسمعي ، تذكري ما قلته لك ، مدي يديك أمام خالتي واعتذري لها .

– حسنا ، حين أصل سأفعل .

خرجت صالحة من عند نعيمة ، واتجهت إلى الناحية الثانية من البيت حيث توجد خالتها، كان معظم من فى البيت قد خلدوا إلى النوم ، بينما كان البعض لا يزال مستيقظا ، وبينما كانت الخالة فهميدة تجلس بمفردها تفكر فيما تفكر فيه ، وتضرب أخماسًا في أسداس ، إذا بصالحة تقترب منها قائلة :

– خالتي العزيزة ! مبارك ! هاتى طعامى وطعام نعيمة .

سمعت الخالة هذه العبارة فانتبهت ، وهبت قائلة :

– صحيح .. أصدقينى القول !

فردت صالحة :

– سترينها بنفسك وهى تتناول الطعام ، وإلا إيه !!

– يا ابنة أختى العزيزة ، لقد فعلت شيئا عجيبا .. كيف أقنعتها ؟ كيف أفهمتها؟ لم يكن عندى ذرة أمل واحدة فى أن ترجع إلى صوابها ، يا ساتر يا رب على غضبها ، كأن عفريتا قد ركبها ، لا أدرى أى علاج سحرى استعملته معها حتى تخرجى هذا العفريت من داخلها . لقد تعبنا معها طول اليوم ، لم تصلح معها الحكمة ، ولم يصلح معها أى تدبير .

– ساتى بها هنا ، ضعى رجلك على رأسها ، لكن ماذا نفعل دخل الليل والجوع يعض الجميع ، خير إن شاء الله ، كله خير ، هيا أخرجى

الطعام ، وأيقظي حميدة أيضًا ، وانتبهي ألا تستعملي معها القوة هي أيضًا !

حين ذهبت الخالة لإعداد الطعام ، توجهت صالحة لتوقظ حميدة ، لم تكن حميدة مستغرقة في النوم ، كانت تضرب يديها ورجليها هنا وهناك ، وما أن سمعت صوت صالحة ، حتى نهضت من الفراش ، قبل أن تفتح عينيها ، وسلمت عليها ! فاحتضنتها صالحة وهي تقول :

- حميدة ! هل تنامين هكذا مبكرًا ؟

فردت حميدة :

- اسألي أمي ، فحين تقول حان الوقت ، عندها أتناول طعام العشاء ثم أنام فورًا .

- هل أكلت شيئًا إذن ؟

شعرت حميدة بالخجل ، ولم تنطق ، فقالت صالحة :

- هل تشعرين بالجوع ؟

فلم ترد حميدة أيضًا ، فقالت صالحة :

- هيا بنا نتناول الطعام معًا .

فقالت حميدة :

- هل تناولت أمي الطعام ؟

- خالتي ستأكل معنا أيضا .

– وأختى نعيمة أيضاً ؟

– أتريدين دعوة الدنيا كلها .. الجوعان سيأكل .

– ماذا ! أختى الكبرى لا تأكل وأنا آكل ؟! بالله حاولى معها ، إنها لم تضع فى معدتها شيئا منذ الصباح ، والطفل المسكين ظل يبكى من الجوع حتى نام ...

ثم انفجرت حميدة فى البكاء ، فأخذت صالحة تطبطب عليها ، وتطلب منها ألا تبكى ، فنعيمة ستأكل أيضاً مع الجميع .

والخلاصة أن الجميع تناول الطعام بعد ما انتصف الليل ، تناولت صالحة الطعام مع نعيمة ، بينما تناول الجميع طعامهم كالمعتاد فى حجرة الطعام، ثم خلدوا للنوم ، بينما لم ينته الحديث بين صالحة ونعيمة ، قالت نعيمة :

– هل أنت مسرورة الآن .. لقد فعلت ما طلبته منى ؟

فردت صالحة :

– سأكون مسرورة إذا ما تم الصلح بين الجميع .

– ماذا ؟ هل بعد هذا صلح ؟! سوف تعود الأمور بالتدريج إلى ما كانت عليه خلال عشرة أيام ، وسوف نتبادل الأحاديث كالعادة.

– إيه ! عشرة أيام !

– ماذا تظنين ؟ ! غدا !!

– منــذ قليـــل أنت بنفســك قــلت كل شيء سيكون على مـا يرام في الغـد .

– أنا لم أقل إنني سأذهب لأجلس وأتحدث معهم غداً ..

– هذا يعني أن الجو لم يصفو بعد .

– الطعـام وأكلت ، وأمي وأكلت وحـمـيـدة أيضــا أكلت ، وهـا أنا أرضـع الطفل ، أي جو أصفى من هذا ؟!

– حسنا ، هذا معناه أنك تناولت لقمة أو لقمتين نتيجة ضغطي عليك ، أنا لا أعتبر هـذا أكلا ، المرأة التي ترضع ، يجب أن تأكل أربعة أرغفة على الأقل ، وأنت لم تأكلي اللحم ، ولم تمدي يدك إلى الأرز ، وبسـبـبك قمت أنا جائعة ، وعلى كل فسنعوض هذا في الصباح ، وإلا فـهمت أنك لم توف بوعدك .

– أقول لك الصدق ، لا أشـعـر أنه يمكنني البقـاء في هذا البـيت ، أشعر بأنه يصعب على فعلا البقاء هنا .

– لماذا ؟ ما هي الأسباب ؟

– ألم أخبرك أنه قبل شهر – تقريبا– تغيرت طبيعة والدي ، وأمي أيضـا لم تعد كما كانت ، وجو البيت كله تغير ، وطرأ على الجميع تغير من نوع عجيب ، ورغم أنهم لم يطلبوا مني أن أصلي وأصوم ، وأي أمل يرجونه مني . على كل ، أنا أنتظر مـا سيفعله أخي الأكبـر ، فـهو رجل وهو الأكبـر ، ثم بفضل الله هـو لا يحتـاج كثيراً إليـهم ، فلو خـرج من

البيت ؛ فسوف يجد رزقه فى أى مكان ، فهو شاعر كبير ، وسوف يجد مكانه لدى أحد أكابر البلد؛ فيغدق عليه، مقابل أشعاره ونظمه الجميل ، أما أنا المنحوسة خائبة الرجاء فسأظل أجلس هنا وراء الحجاب ، كما أننى لا أجيد أية صنعة أو حرفة أكسب منها القليل ، لم أكن أفكر فى اليوم الأسود ، وإلا فقد كانت البنات أمامى يتعلمن بعض الفنون ، فمن تعلم منهن جلس فى البيت كالملك ، لم أكن أفكر فى شىء ، كنت أجلس فى بيت أبى مثلما يجلس الكلب فى الشارع ، إن قدم له أحد لقمة فى سبيل الله أكلها ، وإلا فأى حق لى هنا يمكن أن أدعيه ؟! لم تكن علاقتى بأبى قوية ، فهو ليس معتادا على التحدث مع البنات ، كنت أعتمد على أمى ، تعيننى فى كل أمورى ، لكنها بدأت تمد يدها علىّ ، أدعو الله أن يحبسها عنى ، وإلا ...

– يا بنت خالتى ! ما هذا الجحود ؟! هل الصلاة صعبة لهذه الدرجة حتى تصبح سبب كل المصاعب التى تواجهك ؟

– أنت تعرفين أنا دائما أحب المزاح والضحك ، وأميل إلى السرور والفرح ، لا أميل إلى الحياة الجادة الصارمة ، والشجار حدث اليوم ، وأنا منذ أيام أشعر بالقلق والاضطراب .

– فى النهاية ماذا فكرت ؟

– راودتنى فكرة ، أن أذهب عندكم .

صمتت صالحة عند سماعها هذه العبارة ، وظلت صامتة لمدة ، فقالت نعيمة : لماذا أصابك الذهول حين سمعت ما قلته ، وكأنك صدقت

أننى ذاهبة حقا إلى بيتكم ، لا تخافى ! لقد قلت هذا لأختبر محبتى عندك ، وإلا أنا لن أذهب إلى أى مكان ، أنا على استعداد لتحمل مصائب أكثر دون أن يمن عليّ أحد .

– يبدو أنك تعلمت أسلوب تعامل فريد .. تحاولين إثارتى ، بيتى هو بيتك ، وأنا ابنة أصحاب البيت الذين يعزونك أكثر من ابنتهم ، إن ذهبت فقد ذهبت إلى بيت خالتك ، وإن أحسن أحد إليك فقد أحسنت إليك خالتك ، من أنا حتى آخذك إلى هناك ، ومن أنا حتى أمنعك ؟

– حسنا ، أنا أسأل إن ذهبت فماذا عساها تقول خالتى ؟

– ما أقوله أنا ، وما تقوله أمك ، ستقوله خالتك ، وسيقول كل واحد هناك ما سمعت ، هل خالتك تعيش فى دنيا غير الدنيا أو أنها من عالم آخر ؟!

– ألن تطردنى من البيت ؟!

– هل هناك من يخرجك من البيت هنا ، حتى يخرجك أحد – لا قدر الله – من هناك ؟ ، يا بنت خالتى العزيزة لم أعد أفهم كيف تتكلمين ، تشاجرت مع أمك مرة ، فتظنين الأسرة كلها عدوا لك .

– لكن خالتى المسكينة على قدر حالها ، كيف تتحمل نفقاتى ؟

– ألم تقيمى معها عشرين يوماً أو شهراً من قبل ، هل تضايقت أو ثقلت عليها مؤنتك ؟

– عشرون يوماً أو شهر كيف ، أنا ذاهبة لأعيش طول العمر !

– معاذ الله أن تجلسي طول عمرك ضيفة في بيت خالتك ، حفظك الله في " بيت العدل " مع زوجك وأولادك ، وأراح الله قلب أمك .

– أنا أفكر الآن أن أذهب إلى بيت خالتي وأقيم هناك عدة أيام ، حتى ننسى الشجار الذي دار بيني وبين أمي ، فإذا ما طلبتني رجعت .

– بالنسبة لي ، أنا لا أظن أن ذهابك أمر معيب ، لكن عليك أن تستأذني أمك أولا .

– لماذا أسألها ؟!

– ما العيب في هذا أيضًا ؟ ، اذهبي الآن إليها ، وأخبريها بأنك ذاهبة إلى بيت خالتك ، سوف تقول : حسنا ! لا مانع ..اذهبي .

– اسمعي ، ألا تؤدين عني هذا المهمة ؟

– لا ، لا أفعل هذا نيابة عنك .

– ألست أختي ؟!

– كلا .. هنا لست أختك ، يا سيدة يا محترمة ، ألا تعقلين الأمور ؟!

– أليس عندك مروءة ؟!

– بعض ما عندك !

– حسنا يا أختاه !

– يمكنني أن أسألها لكن ألن تذهبي لوداع خالتي قبل أن نخرج .

- عندها يحلها ألف حلاّل .

- اسمعي يا بنت خالتي ! لو في قلبك شيء حتى الآن فأخبريني ، فأنا أخشى أن أذهب وأسألها ، ثم تخرجين من البيت دون استئذانها أو وداعها ؛ عندها لا يمكن أن أداري خجلي .

- لا .. كنت أعبث معك ، كيف يمكن ألا أودعها قبل ذهابي ، اذهبي واطلبي منها الإذن .

- تأخر الوقت كثيراً ، سوف أصلي الفجر معها ، عندئذ سأطلب منها الإذن .

- حسنًا .. إذن اطلبي العربة التي ستحملنا حتى تكون في انتظارنا ، وإلا لما وجدنا وسيلة ركوب .

- إن لم نجد سنطلب من عند بيتنا .

- سوف يستغرق هذا وقتا .

- ماذا ؟! هل نحن ذاهبون إلى فرح ، وسنتأخر على حفل زفاف العروس ؟

- لا ، إن كنا سنذهب فلنذهب قبل طلوع النهار ، فالطفل يخاف العربة ؛ ومن الأفضل أن يكون نائمًا .

- حسنا ، سنطلبها في ذلك الوقت .

استغرقت نعيمة وصالحة فى النوم ، وعند بزوغ الفجر نهضت صالحة كعادتها للصلاة ، بينما كانت نعيمة مستغرقة تماما في النوم ، بعد الانتهاء من الصلاة قالت صالحة لخالتها :

- يا خالة ! أنا عائدة الآن .

فردت عليها خالتها :

- هكذا ! بسرعة .. أو كما يقول الشاعر

" أجئت تشعل الدار نارا يا لهذا المجيء ، ويا لهذا الذهاب " .

- سوف أزورك خلال عشرة أو خمسة عشر يوماً .

- هل تحسنت حالة نعيمة ؟ هل هدأت ؟!

- قالت نعيمة إنها سترافقني .

- قولى الصدق !

- وطلبت مني أيضا أن أستأذن منك .

- هل كان هذا برغبتها أو كانت مشورتك ؟

- لا ، كان هذا بمحض إرادتها .

- حسنًا ! هل قالت كم يوما ستبقى عندكم ؟

- لم تخبرني بعدد الأيام .

- حسنًا ، إذا كان الأمر كذلك فلا أكثر من ثمانية أيام ، أنا أعرف ظروف أختي ، لا أريد أن أتعبها .

- على كل حال ،لنترك الأمر لها .

- أتمنى أن تنصحيها يا ابنتي إلى ما فيه خيرها.

- سوف أبذل كل ما أستطيع لإفهامها، وأحاول أن آخذها معي لتسمع الدروس والوعظ ، وكلي أمل في الله أن يؤثر ذلك عليها .

بعدها طلبت نعيمة من الخادم أن تذهب لترى العربة التي ستحملهما إلى بيتها ، فعرفت أنها وصلت ، فذهبت صالحة إلى نعيمة ، لتوقظها وتسمعها خبر موافقة الأم ، لكنها لم تجد نعيمة على السرير ، فظنت أنها ذهبت إلى الحمام لتغسل وجهها ، لكنها لم تجدها أيضا هناك . ثم عرفت أن نعيمة خرجت من الجانب الآخر من المنزل ، بينما كانت صالحة تحدث خالتها ، وجلست نعيمة في العربة ، وهكذا خرجت دون أن تودع أمها ؛ وهكذا ودعت صالحة خالتها وحدها، فقالت الخالة :

- كيف تذهبين هكذا ؟ لا بد أن تتناولي طعام الفطور ، أيقظي نعيمة تأكل معك ثم اذهبا .

فقالت صالحة :

- لقد خرجت نعيمة حالاً .

- متى ؟!

- بعد الصلاة وبينما كنت أتحدث معك ،كانت قد ركبت العربة .

- كيف خرجت هكذا .. لا حس ولا خبر .. لدرجة أنني لم أرها وهي تخرج ؟!

- لقد خرجت من النافذة !!

- آه .. لعلك رأيت يا صالحة كيفية غضبها ! كيف حاولت أن تليني من دماغها الناشف ! لقد كنت أستمع إلى حديثك كله من خلف النافذة ، لكنها رغم ذلك ذهبت دون أن تودعني ، هل يحدث هذا ؟ هل يمكن أن تخرج البنت من بيت أمها هكذا ، لو آخذتها على كلامها لما رأيت شكلها مدى الحياة ، لكن ماذا أفعل ، قلبي لا يطاوعني . إنها لا تعير مشاعرنا أي انتباه ، ولا تبالي بشيء ، لنرى . المكتوب لها لا بد أن يصيبها ، لقد أرهقني الحزن من أجلها ، خلاص ، انتهيت تماما مما عانيت بسببها !

- لا تحزني ، وشد حيلك يا خالتي ، لقد فكرت الآن في الطريق الصحيح ، وإن شاء الله ستصلح جميع الأمور ، والحياة هكذا مرة فوق ومرة تحت .

(لنترك نعيمة الآن حيث هي ، وسنعرض فيما بعد لما حدث لها وما تعرضت له ..) .

الفصل التاسع

(ترك كليم المنزل غاضبا من أبيه ، وقام نصوح بإتلاف غرفة كليم وحرق مكتبته التى تضم كتبا غير مفيدة ومفسدة)

* * *

خرجت نعيمة من البيت في الصباح الباكر ، بينما كان كليم قد هجر البيت ليلاً فى جنح الظلام ، فحين وصلت صالحة إلى بيت خالتها ونزلت من العربة ، انشغل أهل البيت بالترحيب بها ، وهكذا خرج كليم من البيت فى غفلة من الجميع ، ولم ينتبه أحد إلى خروجه لأنه لم يحاول أن يغلق الباب حتى لا يصدر صوتًا ، وحين انتهى الجميع من تناول الطعام ، وجاءت فهميده إلى مكان النوم ، لاحظت أن الباب الخارجي مفتوح ، أخذت تفتش على كليم هنا وهناك ، فلم تجد له أى أثر ؛ ففهمت أنه انتهز الفرصة وخرج من البيت ، لكن في ذلك الوقت لم يصدر عن كليم ما يشير إلى أنه ذاهب بلا عودة ، ولم تظن أمه أيضا أنه سيفعل ذلك ، ولما كان الليل قد فات أكثره ، لم تشأ أن تخبر أحدا فى البيت ، حتى ينام الجميع مطمئنين .

وبينما كان نصوح عائداً من المسجد بعد صلاة الفجر ، رأى نعيمة خارجة وصالحة عند العربة ، كان الغضب قد تملكه طوال الليل نتيجة عصيان كليم لأوامره ، وظل مترددا هل يتخذ قراره فى الحال أو ينتظر

حتى الصباح ؟ وبينما كان يضرب أخماسا في أسداس ، رأى أن يتجرع سم الغضب ، ويكظم غيظه ، ويصمت ، محاولاً إقناع نفسه بضرورة انتظار الرد على الرسالة الشفهية والرسالة التحريرية ، على أن يخاطبه ويناقشه مرة وجها لوجه ، فإن لم يفهم ، عامله بشده ؛ وهكذا انتظر نصوح في قسم الرجال ، وأخذ يتطلع هنا وهناك فلم يجد أثرا لكليم !! عندئذ سأل الخدم ، لكن أحدا لم يعطه الجواب الشافي على سؤاله ؛ عندئذ غضب منهم ، وقال لهم إنه لا فائدة من عملهم في هذا البيت ، لأنهم لا يعرفون مكان ولده ، قال :

– إنكم تظنون أن سلوككم هذا في صالحه ، لكني أقول لكم – وأنا جاد في هذا الأمر – إن إخفاءكم أمر هذا التعس عني ليس في صالحه ، كما أنه لن يكون في صالحكم أيضًا ، أنا أعرف أنه ليس من عادته الاستيقاظ مبكرًا، لا بد أنكم أيقظتموه ، لقد وظفتكم هنا من أجل راحتي ، فلو اختل نظام بيتي بسببكم ، فإنكم لستم من اليوم خدمي ، بل أعدائي ، لا تتمنون لي الخير بل تتمنون لي الشر، ولو أنني اعتبرت هذا الحقير ولدًا عاقًا ؛ فسوف أنهي خدماتكم جميعًا ، مع طرده من البيت .

سمع الخدم كلام نصوح ؛ فأصيبوا جميعا – من أكبرهم إلى أصغر – بالخوف الشديد ، وكان من بينهم أحد الخدم الأذكياء ، مد يده تجاه نصوح في احترام شديد وقال :

– إن عتاب صاحب المعالي على عين ورأس جميع الخدم ، لكن في الليل ، كان البيت كله مملوءا بالنساء ؛ ولهذا طلبنا الإذن بالذهاب ،

فى ذلك الوقت كان نجلكم المحترم فى البيت ، وهؤلاء الخدم التعساء حين جاءوا في الصباح لم يشاهدوا طلعته ، فاسأل معاليك السيدة حرمكم ، لعلها تعرف مكانه ، فلا يوجد بين هؤلاء الخدم من يخون العيش والملح ، فيخفى عنكم أى أمر .

دلف نصوح إلى الداخل ، وحسب العادة التف الجميع من حوله ليلقى عليهم السلام ، ويحييهم تحية الصباح ، كانت فهميده لا تزال تقرأ القرآن ، وحين انتهت بعد قليل ؛ قال لها نصوح :

- يا محترمة ! هل ذهبت صالحة ؟

فردت فهميده قائلة :

- ذهبت متى ! ربما تكون قد وصلت الآن إلى بيتها .

- والعربة الثانية كانت لمن ؟

- لابنتك الكبرى .

- هل ذهبت راضية أو مغاضبة ؟ .

- بين هذا وذاك !

- ماذا تقصدين ؟

- صالحة جزاها الله خيراً ، ظلت معظم الليل تنصح فيها ؛ حتى أعادتها لعقلها ، فجعلتها تتناول الطعام بعد صيامها الطويل ، كما أنها أرضعت الطفل ، لكنها في الصباح ذهبت دون أن تودعنى ، ذهبت

وركبت العربة ، بينما كنت أتحدث مع صالحة ، لدرجة أننى لم أرها ، وهى تخرج من البيت .

– حسنا ! خلصنى الله من أحد الأعباء ، والآن أخبرنى أين ولدك المعزز ؟

عندئذ وضع الجميع يده على قلبه ، وقالوا لا ندرى عنه شيئًا ، فسألهم نصوح :

– منذ متى اختفى ؟

فردت الزوجة :

– بعد المغرب تقريبًا كان يجلس معى ، وكنت أناقشه ، وجاءته رسالتك ؛ فقرأها، ثم عندها جاءت صالحة ؛ انشغلت فى الحديث معها ، ثم أشرفت على إعداد الطعام ، وكان قد مضى من الليل أكثره ، وعند النوم وجدت مكانه خاليا .

– الحمد لله ! راح وأخذ الشر معه ، لكنى أسألك من أخطأ أنا أو هو ؟

– من الواضح أنه أخطأ ، وقد حاولت أن أبين له خطأ ما يفعل بعد أن طلبته ثم أرسلت له الرسالة ، وقد بلغ السيل مداه ، حاول عليم أن يقنعه ، وحاولت بدورى أن أقنعه ، فلم يكن يسمع غير صوت أشعاره ، ولما شعرت أنه لا ينوى الذهاب إليك ، رأيت أن أشد عليه بعد تناول الطعام ؛ ولهذا وضعت الحجاب ، وذهبت إلى قسم الرجال ، لكنه كان قد غادر المكان . ماذا كان على أن أفعل ، قسمتنا ونصيبنا ..

- إن تصرفه معي لا يساوي عشر ما فعلته نعيمة معك .

بعد ذلك قال نصوح لابنه الأوسط نعيم :

- حاول أن تبحث في فراشه أو كتبه ، فلعله كتب رسالة وتركها هناك ، للأسف إن عناده وصلابة رأسه أثرت على سلوكه لدرجة أنه رفض أن يأتي إليَّ ، وإلا قمت بسماع جميع أعذاره ، وإجابته عليها بما يقنعه ويعيده إلى صوابه ، فأنا هنا لإفهامه وإقناعه .

- لم يخطر هذا على بالي يا أبي، لكني رأيت الآن حاجياته ومتاعه، ومع هذا لا أمل في أن يكون قد كتب شيئًا قبل أن يذهب ، فلو كانت عنده نية للكتابة لكتب ردا على رسالتك ، والأمر الثاني أنه لم يكن لديه وقت للكتابة ، وقد عرف خبر قدوم صالحة ، وأنا أرى أنه خرج عند قدومها وانشغال من في البيت بالترحيب بها .

- لكني مع هذا أريد أن أتم عليه الحجة ، فاذهب وانظر إلى أمتعته من باب الاحتياط على الأقل .. هيا سأساعدك في هذا .

ومع أن عليًا لم يكن يرى أن من اللائق أن يقوم والده بالتفتيش في أمتعة وأشياء أخيه ، لكنه لم يكن ليقدر على منع أبيه . وفي النهاية خرج نصوح من قسم الرجال ليسأل الخدم :

- هل بقي مكان خاص بأمتعة نعيم أو حاجياته ؟

فرد أحد الخدم :

– هناك حجرتان خاصتان بنجلكم : حجرة أطلق عليها اسم " بيت المتعة " يجلس فيها مع أصدقائه يلهون ويلعبون ويتسامرون ، والحجرة الثانية سماها " دار الخلوة " وفيها كتبه ودفاتره .

فزع نصوح حين سمع هذه الأسماء "بيت المتعة" و"دار الخلوة " ، فأمر الخدم بفتح " بيت المتعة " ، وحين فتحوا الحجرة ، وجدوها مزخرفة بزينات كثيرة : وسط الحجرة طاولة رائعة حولها كراس جميلة ، مع ثريات جميلة معلقة من السقف ، مع " أوبليكات " بارزة من جدران الغرفة ، تلك الجدران المغطاة بستائر مزركشة ، مع مروحة جميلة تتدلى من السقف ، وهي مروحة للزينة فقط ، والسقف مزخرف بالصور الملونة للشمس والقمر والنجوم وكأنه سماء ، وكانت الزخارف على الجدران تتناسب مع زخارف السقف .

وقف نصوح يتطلع إلى كل هذا وقد طرأ عليه سكوت عجيب ، أما بعدها خرجت منه آهة ، ثم قال: يا للأسف على ضياع هذه الثروة التي وهبنا الله إياها ، في مثل هذه الزينات والزخارف ، ألم يكن من الأفضل إنفاق هذا المال لمساعدة الفقراء والمحتاجين ؟

بعد ذلك اتجه إلى صدر المجلس في الغرفة ، فوجد طاولتين على إحداهما وضعت اللعب المختلفة مثل "الشطرنج" و"الكوتشينة " و"الدومينو" وغيرها ، بالإضافة إلى العود والناي وآلات موسيقية أخرى ، وعلى الطاولة الثانية زجاجات العطر مع المزهريات ، مع كتاب ضخم مجلد بجلد مطلي بالذهب ، ففتح نصوح الكتاب بشوق شديد لمعرفة ما فيه ، فوجد أنه مجرد " ألبوم " يحوي صوراً ، لكنها ليست صور عالم أو فقيه

أو حتى شاعر بل هى صور للاعبين ، ومصارعين ، وموسيقيين ، ومغنيين ومن على شاكلتهم ، لم يكن نصوح قد رأى الصور المعلقة على الحائط حتى الآن ، لكنه بعد مشاهدته لهذه الصور فى الألبوم ؛ خلع نظارته ، وأخذ ينظر إلى حائط الغرفة ، فوجد صوراً - معاذ الله - تحمل دلالات ومعان تتعارض مع الدين ، وتتنافى مع العقيدة ، فحمل نصوح إحدى هذه الصور ، وبدأ فى تحطيمها ، وتحطيم كل الصور ، وكل أدوات اللهو واللعب ، وما تبقى دون تحطيم حمله إلى صحن البيت وأشعل فيه النار ، ثم أمر الخدم بفتح " دار الخلوة " .

وهنا أيضًا شاهد الأثاث الغالى الثمين ، بالإضافة إلى خزانة الكتب ، فرأى مجلدات يحتاج الإنسان إلى يوم كامل أو أكثر لإعداد فهرسها، كتب بالأردية وأخرى بالفارسية، لكنها جميعها من نوع واحد ، قصص قصيرة ، وكلام فارغ ، فيها فحش ، وعبارات تخدش الحياء ، وأمور بعيدة عن الأخلاق السوية . كان نصوح ينظر دائمًا إلى هذه الكتب وإلى التجليد الفاخر لهذه الكتب ، وورقها الغالى الثمين ، وطباعتها الممتازة ، ثم عباراتها المنسقة وأسلوبها الجذاب ؛ فيظن أن مكتبة كليم تتضمن ذخيرة فريدة من الكتب ، لكن محتوى كل مجلد من هذه الكتب محتوى لا يساوى غير التمزيق والحرق ، ظل يفكر قلقا حتى الظهر، وقد طلبوه ليتناول الطعام أكثر من مرة ، لكنه لم يكن لديه وقت ، فقد ظل يقلب الكتب ، يشاهد ما فيها ثم يعيدها إلى الأرفف ، وأخيراً استقر رأيه على أن إحراقها أفضل وأحسن ؛ وهكذا حمل خزانة الكتب بكل ما فيها وأشعل فيها النار .

رأى الجميع ما فعله نصوح ، فإذا البيت كله يرتجف من الخوف ، جاء عليم مهرولاً ، أخذ من بين الكتب ديوان الشاعر آتش ، وديوان الأديب شرر ، وطلب من أبيه السماح له بأخذهما ، ففتح الوالد الكتابين وقال له :

– مع أن فيهما شطحات لكني – بفضل الله – مطمئن إليك، فاحتفظ بكتابيك ، رغم أنني أرى أن قراءتهما لا تخلو من المعصية .

فقال عليم :

– إذا لم يكن الكتابان يستحقان المطالعة ، فما فائدة الاحتفاظ بهما ، فبهما بالضرورة خطر ؛ من الأفضل أن يحرقا أيضاً .

فقال له الوالد :

– ربما تقول هذا الكلام من أجلي ، بينما أنت حزين من داخلك .

– لا ، لست بحزين ، ولا آسف عليهما ، بل أنا مسرور ، لقد أحرق أخي الكتاب الذي أخذته من القس ، واحتفظ بمثل هذه الكتب ، أرى أن ما يحدث لكتبه الآن هو ذنب الكتاب الذي أحرقه لي من قبل ، يا لها من عبرة .

– لكن ما شأن كتابيك وما يحدث الآن ؟

– من الأفضل أن يحرقا .

– على رسلك ، هيا نبدأ باسم الله .

بدأ عليم يلقى بمجموعة الشاعر "آتش " الشعرية فى النار ، ويرمى بديوان " شرر" وسط اللهب ، وجاء سليم بعد أن رأى ما يفعله عليم وقد أحضر أيضا الكتاب الذى يتضمن أشعار ذكريات الأديب " أمانت" وسلمه لأبيه قائلا : لقد أحضره أحد باعة الكتب ، وعرض على أخى الأكبر كتبًا كثيرة مثل "الحكايات العجيبة "، و "قصة كل بكاؤلى" ، و" زينة المحفل "، و"مثنوى مير حسن "، و". مضحكات نعمت خان عالى " ، ومنتخب "غزليات تشركين " ، و "هزليات جعفر زتلى " ، و"هجويات مرزا رفيع سودا" و "ديوان جان" ، و" ربيع العلم " المصور ، و"مسرحية اندر سبها" وكتاب " بحر اللطافة " والمجموعة الشعرية للشاعر " رند " وغيرها من الكتب ، وكنت جالسا فطلب منى أن أختار بعض الكتب ، فطلبت منه أن يختار لى فقال : أى كتاب أختاره لك لا يصلح ، فهذه الكتب أشتريها لمزاجى ولمتعتى ، ولن تعجبك .

فأعطانى البائع هذين الكتابين " واسوخت أمانت " وهو يتضمن أشعار ذكريات حيات الأديب أمانت ، وديوان " نظير أكبر آبادى " ، ولما كان أخى الأكبر قد امتدح ديوان نظير ؛ فقد أخذته ، لكنى حين بدأت مطالعته لم يعجبنى !فرميت الكتابين بعيداً ، لكن أخى أصر على أن أحتفظ بكتاب "واسوخت أمانت " ، وذات مرة شاهده معى أحفاد حضرة بى ، فقال لى أحدهم :

– ماذا أصابك ؟

فقلت له :

– لماذا ؟

فقال :

– هل تقرأ مثل هذه الكتب ؟

– أعطاه لي أخي لماذا ؟ هل هو كتاب سيئ ؟

– أنا لا أعرف إن كان جيداً أو سيئا ، لكن لو شاهدته جدتي معك فربما تمنعنا من مجالستك ، لماذا تقرأ مثل هذه الكتب القذرة ؟

ومن يومها ألقيت بهذا الكتاب في مخزن النفايات ، واليوم تذكرت ، فقلت إذن ليكن مصيره مثل بقية الكتب .

وحين احترق جميع ما يخص كليم من وسائل اللهو واللعب ، وصارت جميعها ترابا ، سألته زوجته :

– هل وجدت الورقة التي تبحث عنها ؟

– لا ، لم أجد الورقة التي أبحث عنها ، لكني حققت ما أصبو إليه !

– وما هذا الذي كنت تصبو إليه ؟

– كنت أبحث على ما يدلني على ما يخفيه كليم من أفكار داخل قلبه وفؤاده ، ويجعله يتجنب إلى هذا الحد لقائي ، وقد عرفت السبب الآن .

– ما هو السبب الذي اكتشفته ؟

– لقد اكتشفت السبب ، وعرفت حقيقته كاملة ، ولو واجهته ربما لم أتمكن من معرفة ما وقفت عليه الآن من حقائق .

– لكن أخبرني بشيء ..

– لقد شاهدت بيت متعته ، ودار خلوته ، وتمشيت في مكتبته واطلعت على محتوياتها .

– بيت المتعة ، ودار الخلوة ، كيف هذا ؟

– لقد كنت أجهل مني بجميع أموره ، ألم تعرفي حتى اليوم أنه خصص لنفسه في البيت حجرتين ، سمى إحداهما : بيت المتعة ، وسمى الأخرى دار الخلوة ، فالحجرة التي يجتمع فيها بشياطين الإنس هي بيت المتعة ، والحجرة التي يستريح فيها سماها " دار الخلوة " ، وفي دار الخلوة هذه وضع مكتبته .

– كل ما أعرفه أن لكليم حجرتين ، يستخدمهما لنفسه ، لكن لم أسمع حتى اليوم ببيت المتعة أو دار الخلوة .

– هل رأيت هاتين الحجرتين من الداخل ؟

– لا ، لم أذهب إلى قسم الرجال ، وقد ذهبت بالأمس مرتدية الحجاب بناء على إصرار عليم .

– حسنا إنك لم تشاهدي هاتين الحجرتين .

– لماذا ؟

– لماذا أخبرك عن الفضيحة ، أكتفي بما قاله مولانا جلال الدين الرومي :

قبر الكافر من الخارج مزخرف بالزينات

لكنه من الداخل مملوء بقهر الله وغضبه

وكأن مولانا رومي يعبر بهذا عن حال هاتين الحجرتين ؛ ففي الظاهر عمار ، وفي الباطن خراب ودمار .

- أيمكن أن تغضب فتحرق المجلس الخاص بنا أيضًا ؟!

- لا شك أن أي مكان ترتكب فيه الذنوب يستحق الحرق ، لكني لم أضرم النار في أي مكان .

- لكن كان هناك دخان يتصاعد من ناحية قسم الرجال .

- كانت عدة كتب ، رأيت أنها تتضمن أفكارا سيئة فأحرقتها .

- حفظنا الله من مثل هذا الغضب .

- لا يوجد حرج في أن يغضب الإنسان .

- أليس حرق الكتب كان بسبب الغضب ، أهو من العقل في شيء؟ لقد سمعت أن حرق الورق ذنب فما بالك بحرق كتاب ، والناس إن وجدوا ورقة ممزقة حملوها معهم، وربما قبلوها أيضا ثم احتفظوا بها .

- صدقت ! لكن هذا أمر مبالغ فيه ، فالورق مثله مثل القماش لا روح فيه ، والكتاب إذا تضمن معلومات مفيدة ، وقضايا دينية مهمة ، وإذا كان ما فيه يدعو إلى عبادة الله ، وعمل الخير ؛ فهو كتاب جدير بالاحترام .

– ليكن كما تقول لكن الكتاب شيء يستحق الاحترام لا الحرق ؟!

– الكتب التي أحرقتها تتضمن كفريات وشركيات ، وفيها أدب فاحش ، لا حياء فيه ، ويتضمن كلاما بذيئا، ومملوءا بالخرافات والأكاذيب .

– هل يوجد في الكتب أيضا مثل هذه الأمور المعيبة ؟

– الكتب من تأليف الإنسان ،وهو الذي يقوم بطباعتها ، وهو مخلوق عنيد ، يريد أن ينشر الشر والعصيان في جميع أنحاء العالم ، ألم تعرفي الشعر والشعراء ؟!

– يتم لا ؟ فالكتب في معظمها تتضمن أشعارًا ، وأنا لا أرى في ذلك أي شر ، كما أنني أستمع إلى الشعر ، وكليم عنده شوق عظيم لقرض الشعر أيضًا ، وهو مشهور بذلك بين الرجال ، والكل يمتدح شعره .

– الشعر بذاته ليس سيئًا ، ولكنه يعتبر مصدرًا من مصادر اللغة التي يعتمد عليها ؛ ولهذا يستحق الثناء ، لكن الناس جعلوا من المتعارف عليه الآن أن يستخدموا هذا المصدر للتعبير عن أفكار سيئة ، وموضوعات هدامة ؛ ولهذا يرى بعض المتمسكين بالدين أن الشعر من هذه الناحية ذنب وعيب ، وقد صار الشعر اسمًا لنمط يدعى الهجاء ، ويدخل هذا في باب الغيبة والنميمة، أو أن الشعر صار ينظم في المدح ، وهكذا اتصف بالكذب والتملق ، أو أنه صار يتضمن موضوعات في العشق ، يعبر عنها بأفكار خبيثة ، مما يجعله يتعارض والشريعة ،

أو أن الشعر صار ينظم فى السخرية برجال الدين أو بقضايا الدين ، وهكذا يؤدى بصاحبه إلى الكفر والمعصية .

- اليوم عرفت فقط أن هناك من الناس من يفسدون عن طريق الكتابة والتأليف .

- ألا تذكرى مطالعتك لكتاب "الكلستان" .

- لِمَ لا أذكر ، أذكر أننى بدأت قراءة كتاب " الكلستان " فى اليوم التالى بعد فطامى حميدة .

- حسنًا ، أتتذكرين أيضًا أننى قبل تدريسك كل درس كنت أشطب على بعض السطور ، بل وعلى فقرات كاملة ، بل كنت ألصق بعض الأوراق على بعض الصفحات ، محاولا إخفاء ما فيها .

- نعم ، أذكر هذا جيداً ، فقد اختصرت ربع الكتاب .

- لقد كنت أنت التى تقرئين ولهذا اختصرته إلى الربع ، ولو أن امرأة أخرى أو إحدى البنات ، كانت تقرأه لاختصرته إلى النصف ، إن ما كنت أشطب عليه ، أو أخفيه كان يتضمن هذا الكلام السيئ .

- صحيح ! كنت أظن أنك تحذف العبارات الصعبة عمداً .

- كان من الصعب أن أقرأ أمامك عبارات الفحش والخلاعة ، ثم إن هذا الكتاب كان كتاب نصيحة ، ويعلم الأخلاق ، ومؤلفه أديب عالم ، ليس بأقل من أى عالم مسلم آخر ، يلقبه الناس بحضرة فلان ، ويختمون اسمه بعبارات رحمة الله عليه ، وقدس الله سره العزيز ، أى أنه مثل أولياء الله ،

وعلى كل حال ، فالكتب التي أحرقتها كانت تتضمن فحشًا وشتائم وهزلا وقباحة وخرافات وهذيان وغيرها ، ولا أدرى ماذا يمكنني أن أطلق عليها من أسماء تليق بمحتواها .

– لكن لماذا لزم حرقها ، كان من الممكن أن تغلق عليها وتتركها أو تبيعها ، فقد يكون لها ثمن .

– ربما كان ذلك في الصيف تذكرين حين خرج علينا ثعبان ، رآه الجميع صغارًا وكبارًا ؛ فشعروا بالخوف والرعب ، لدرجة أنهم تركوا الجلوس في صحن المنزل ، وكان من الضروري الإمساك بالثعبان والقضاء عليه . لم تقولي لا تقتل الثعبان الكبير ، لعل أحد الحواة يحتاج إليه فيشتريه بثمن ما ، إن هذه الكتب أكثر أذى من الثعبان ، وقيمتها حرام ، وهي مثل المال المسروق .

– والآن هل هناك ترياق لهذا السم ، وتعويذة تقضي على هذا السحر ؟

– لِمَ لا ؟ كتب الدين والأخلاق ، لكنها تحتاج إلى من يطالعها ، وإلا قمنا دائمًا كل يوم بالبحث عن ثعبان جديد ، وعن ترياق جديد ...

الفصل العاشر

(ذهب كليم فى البداية إلى بيت صديقه مرزا ظاهر دار بيك ، ثم إلى بيت أحد أقاربه ، وفى المرتين تم القبض عليه وإيداعه السجن ، وفى النهاية تم الإفراج عنه بكفالة والده) .

* * *

نريد أن نقص ما حدث لكليم وأخته نعيمة ، وماذا حدث لهما بعد خروجهما من بيت أبيهما ، ولأن كليما كان أول من خرج لهذا نبدأ بحكايته .

حاول أبوه استدعاءه عدة مرات ، حتى إذا ما أصابه اليأس كتب له رسالة ، وحاولت الأم أن تفهمه ، وتجعله يمتثل لأوامر أبيه ، وظل أخوه معه يحاوره ويجادله ، لكنه لم ينصت لأحد ، ولم يذهب عند أبيه ، وحين رأى أن والدته مشغولة باستقبال صالحة ؛ خرج من البيت فى الخفاء دون سلام أو كلام ، وكأنه ليس واحدا من أهل البيت ، ولا تربطه بهم علاقة أو قرابة ، ربما لأنه ظن أنه خارج من البيت دون عودة ، كما أنه لن يقدر مدى الحياة على أن يرى أقاربه وأحبابه الذين كان يفارقهم بصورة مؤقتة أحيانًا .

لم يكن هذا الخروج خروجًا جديداً عليه ، بل هى عادة ، وخصلة دائمة ، فقد تدرب كثيراً على ترك البيت بهذا الشكل ، وكم من مرة هرب

من البيت مدعيا أنه غاضب ، وعندئذ يبدأ الخدم في البحث عنه هنا وهناك ، بل كان نصوح نفسه يقوم بالبحث عنه ، فإذا تأخر في ذلك قامت فهميده نفسها بهذه المهمة .

هذه المرة كان كليم يتوقع أنه إذا خرج من البيت ، فسوف يهرع الخدم من خلفه ، وعلى أمل أن يحدث هذا انطلق إلى بيت صديقه مرزا ظاهر دار بيك، وكان يتلفت خلفه مرات عديدة كلما مشى عدة خطوات ، لكن الواقع أثبت أنه أساء الفهم هذه المرة ، فالآن - كما قالت نعيمة - تغير جميع الناس في البيت ، لم يعد نصوح هو الأب السابق، ولم تعد الأم هي الأم التى كانت من قبل ، فلماذا يهرع الخدم ؟! ولماذا يجدون في البحث عنه ؟! كما أن كليما لم يكن يجهل أيضا أن الأمور هذه المرة سيئة جداً ، كان يعرف أن الشعور الديني ، والتمسك بشعائر الدين يجد قبولاً لدى كل من في البيت ، وعلى خلاف المتوقع نالت نعيمة صفعة . ولما كان سليم وحميدة هما أصغر من في البيت ؛ لهذا كانا خاضعين لأوامر كليم ونعيمة ، وهما الآن من المحبوبين المدللين لدى والديهما ، أي من كان يمتلك العزة صار ذليلاً ، ومن لم يكن له شأن صار عظيمًا ، وقبل ذلك حين كان كليم يخرج من البيت غاضبا ، كان ذلك بسبب شجار مع الأم أو الأخوة والأخوات على الطعام أو الملابس أو أمور مالية ، لكن السبب هذه المرة كان بسبب البحث في أمور الدين ، وليس في أمور الأخذ والعطاء اليومية ، وكان مع أبيه ، وليس مع أخوته وأخواته ، ولو أن كليما استعمل عقله وفهمه ؛ لما واتته الجرأة ليخرج من البيت هكذا هذه المرة ، لكن هذا كان اقتراح والده نصوح ؛ ومن هنا

أخذته العزة بالإثم ، وشعر بالزهو ، فهو شاعر كبير مشهور، والجميع يمدحونه ويثنون عليه ؛ وهكذا تأصل لديه شعور بالكبر والغرور، وحب النفس .

لابد أن نعترف بأن كليما كان ممتازًا في الأدب : شعره ونثره ، وقد برز في شعر الغزل وخاصة في الأشعار الخاصة بالمحبوب ، كما برع في تضمينه لأشعار الآخرين في شعره ، وأبدع في ترتيب الألفاظ ، كما أن قصائده مقبولة ، وهو يميل إلى شعر الطبيعة ، وهو مبدع في فن المثنوى أما في فن الرباعى فلا يُعلى عليه ، وهو يصل إلى درجة الأديب المؤمن وهو من الأدباء المتأخرين ، وخاصة حين يختم قصائده بالمقطع الذى يشير فيه إلى تخلصه الشعرى أى اسمه الأدبي ، وهو يلتزم دون تكلف بالمحسنات اللفظية ، والتشبيب في قصائده – أي بداية قصائده – من الروعة ؛ بحيث يجعله يأتي مباشرة في منزلة تالية للشاعر الكبير سودا ، وقد أكمل في ست سنوات ديوانين ، وهذا أمر يجعله عرضة للحساد دائمًا ، وقد اشتهرت أشعاره في المدينة لدرجة أن أكثر من مائتي غزلية شعرية له تنتشر على ألسنة الناس ، الحقيقة إن شهرة الشاعر هبة من الله . والخلاصة أن مكانة كليم في الشعر تضعه مع العظماء ، لكنه لم يكن قد اعتاد على أن يفكر في أمور الدنيا ويدقق في شئونها ؛ ولهذا كانت آراؤه دائما غير صائبة .

وهكذا خرج من البيت فاتجه مباشرة – ودون أدنى تفكير – إلى بيت مرزا ظاهر دار بيك ، مثله مثل حصان مطلق العنان اتجه إلى مربطه ، وكان مرزا يخدعه ، ويظهر له أنه عنده أعز عليه من أمه وأبيه ، وأخته وأخيه ، وأقاربه وذويه ، وأنه الصديق الأعز ؛ وهكذا اعتمد على مرزا

دون أن يختبره أو يمتحنه مرة واحدة ، والإنسان العاقل قد لا يقدر على أن يثق في أى صديق إذا ما جربه مرة بعد أخرى . والحقيقة أن كليما كان يفتقر إلى معرفة نفسية الناس وطباعهم ، وهكذا قدر علاقته بمرزا تقديراً خاطئًا ، كما أنه كان يقدر نفسه أيضاً تقديراً خاطئًا .

كان يعتقد أنه سيجد بسهولة وظيفة محترمة ، رغم أن الكثير من المتعلمين في البلد لا يجدون وظائف على الإطلاق ، وكأن المسئولين في الهند يتمنون قدومه إليهم ، حتى يقومون بخدمته وتوظيفه ، هكذا كان يظن حين خرج من بيته خالي الوفاض ، فقد اعتقد أنه سيصبح مالك خزائن الأرض ، ولم يكن له من عمل قبلاً سوى اللف والدوران هنا وهناك ، لكنه الآن يفكر في أنه سيركب الفيل المقدس على هودج صنع من الذهب ، مع أنه خرج من بيته بملابس النوم ليس إلا ، ومع هذا كان يحلم بأن يرتدى خلعة ملكية .

وخلاصة القول إنه وصل وهو يحلم بالمهلبية إلى بيت صديقه مرزا ، ورغم أن الليل كان في أوله ، لكن مرزًا الخبيث الذى لا يحمل للدنيا همًّا كان قد نام ، وهكذا حين قرع كليم الباب ؛ لم يلق جوابًا من أحد ..

وهنا نتوقف لنتحدث قليلا عن مرزًا .

لم يكن جده لأمه جدا حقيقيًا ! وكان قد عمل مقاولاً لأحد كبار الموظفين بمقر شركة الهند الشرقية في دهلى ، وكان هذا الرجل يستغل عمله في خدمة الموظف الإنجليزى ؛ فيأخذ الرشوة، ويأكل حقوق الناس ،

حتى جمع ثروة كبيرة جعلته من عداد أثرياء دهلي ، وقد ترملت والدة مرزا في مقتبل عمرها ؛ فكفلها هذا المقاول احتسابًا لله ، وطالما كان المقاول على قيد الحياة لم يذكر أحد أن مرزا كان يتيمًا ، أو أن أمه كانت أرملة ، لكن بعد وفاته ؛ تم تقسيم ثروته الطائلة على ورثته ، وكانوا كثيرين ، ولم يهتموا بمرزا وأمه ، رغم أن المقاول كتب عدة وصايا قبل وفاته ، ورغم هذا فقد تنازل ورثته - بصعوبة كبيرة - عن مكان صغير بجوار القصر الكبير ليسكن فيه مرزا مع أمه وزوجته ، وكتبوا باسم مرزا محلين يدر إيجارهما مبلغ سبع روبيات في الشهر ، كان هذا هو حال مرزا ، وأمه ، وزوجته ، ثلاثة أشخاص وسبع روبيات ، هي كل ما لديهم في الدنيا ، ومن الأمور المضحكة ، ومن السخرية المرة أن يحاول مرزا مساواة نفسه بأولاد المقاول ، الذين يصل دخلهم الشهرى الثابت مئات الروبيات ، ورغم أنهم لا يعيرونه أى انتباه ، لكنه يدس أنفه دائمًا في شئونهم ، ويحاول أن يتقرب دائما منهم دون شعور بخجل أو حياء ، فينادى على أحدهم : يا خالي ، وعلى الآخر يا عمى ، وعلى الثالث يا أخي ، وهؤلاء الناس يتضايقون من محاولته ربط نسبه بهم ، وحاول أن يجلس دائمًا مع علية القوم ، فإذا ما رأيته وجدته يحاول تقليد الأمراء والأشراف ، لكنه ليس منهم ، لكنه يوهم الناس بذلك فيرتدى حذاء مذهبًا ، ويضع على رأسه طاقية غالية الثمن ، ويرتدى ملابس مخملية رقيقة ، وصديرى بنصف كم ، وأحيانًا يرتدى معطفا من الحرير ، مطرزًا بخيوط فضية أو ذهبية ، وكانت ملابسه في العادة ضيقة تلتصق بجسمه وكأنها منه ، وكان يضع إزارا يعلق فيه مفاتيح لا أقفال لها ! ويمضي وهو على هذه الحال في الأسواق ، ويتسكع على النواصي يستعرض نفسه .

تعرف كليم على مرزا في إحدى حفلات الشعر ، وبالتدريج بدأ مرزا يأتي إلى بيت كليم ، وتوطدت العلاقة بينهما حتى صارا روحا واحدة في جسدين ، ولم يحدث أن زار كليم مرزًا في بيته ، لكن مرزًا لم يكن يأت إلى بيت كليم في المساء إلا لماما ، لأنه كان يأتي دائما في الصباح ، فيقضي اليوم كله في بيت كليم ، ولم يسمح مرزا لكليم بمعرفة أصله وفصله ، وفهم كليم أن مرزًا ورث جميع أملاك المقاول ، وأن قصر المقاول هو قصر مرزا ، وأن الديوان الكبير الخاص بالمقاول هو ديوان مرزا ، وأن خدم أبناء وأحفاد وعائلة المقاول هم خدم مرزا ، ونتيجة لسوء الفهم هذا ، اتجه كليم حين غادر بيته مغاضبًا إلى قصر المقاول ، وبعد نداءات وصياح رأى خادمتين قادمتين تحمل إحداهما مصباحًا ، فسألته :

– من أنت يا سيد ؟ وما وراءك وقد دخل الليل ؟

– أذهبي ونادي مرزًا !!

– مرزا من ؟!

– مرزا ظاهر دار بيك صاحب هذا البيت ، من يكون مرزا !!

– لا يوجد هنا أحد بهذا الاسم .

بعد هذا الحديث بدأت الخادم تغلق البوابة فقال كليم :

– لماذا ! أليس هذا بقصر المقاول ؟

– نعم ، لماذا ؟

– إذن لماذا قلت إنه لا يوجد هنا شخص باسم ظاهر دار بيك ، أليس هو من ورثة المقاول .

– حفظ الله ورثة المقاول ، لكن من هو ظاهر دار بيك الذى تقول إنه من ورثة المقاول ؟

فقالت الخادمه الثانية :

– أوه .. لعله يسأل عن التعيس ابن مرزا فهو ينسب نفسه إلى المقاول ، ويقول في كل مكان إنه ابنه .

ثم تطلعت إلى كليم وقالت :

– أليس كذلك يا سيد ! آه إنه هو ظاهر دار بيك ، صاحب البشرة المصفرة ، والعيون الغائرة ، القصير ، النحيف ، الذى يزهو بنفسه متصنعا العظمة .

– نعم ، نعم ، هو بعينه ظاهر دار بيك .

– إذن يا سيدى .. خلف هذا المبنى ..هناك .. تجد بيتا صغيراً من الطوب اللبن ، هناك يعيش ظاهر دار بيك .

فذهب سليم إلى حيث وصفت الخادم ، ونادى على ظاهر دار ، وبعد مدة خرج مرزا شبه عار إلا من سروال صغير ضيق ، وقد أصابه الخجل حين رأى كليما فقال :

– آه .. أهو أنت ؟ فكرت أن هناك شخصًا آخر غيرك ، لم أتعود النوم بالملابس ، سوف أرتدى ملابسى وأتبعك !!

– إلى أين تتبعنى ؟ ! لقد أتيت إليك .

– إذن انتظر قليلاً ، حتى أفسح لك الطريق .

– لقد جئت لأقضى معك الليلة هنا فى بيتك .

– إذن ! بسم الله ! هيا إلى ذلك المسجد ! فيه مكان فسيح ، سوف آتى حالاً .

وصل كليم إلى المسجد ، فوجده مسجداً صغيرا يبدو من مبانيه أنه شُيد منذ سنوات بعيدة ، ويبدو أنه أيضًا مسجد ضرار ، فهو خرب موحش ، مفروش بحصير متهالك ، ليس فيه من يقرأ القرآن ، ولا من يقيم الصلاة ، وليس فيه طالب علم ، ولا مسافر يقضى فيه ليله ثم يتابع سفره ، تسكنه آلاف الخفافيش .

لم يكن هناك من مفر أمام كليم سوى انتظار مرزا فى ذلك المسجد ، وجاء مرزا بعد مدة طويلة ، شعر كليم خلالها باليـأس من مجيئه ، وقبل أن ينطق سليم بكلمة شكـوى ، سبقه مرزا بالحـديث ؛ ليقطع عليه الطريق :

– إن زوجتى بالبيت داهمـها المرض منذ عدة أيام ، وقد أصيبت بخفقان القلب ، ثم اختلاجه ، وحين خرجت إليك ، ثم رجعت إليـها وجدتها مغشياً عليها ؛ ولهذا تأخرت عليك .. لكن أخبرنى أولاً ما سبب مجيئك فى هذا الوقت بالذات .

فقص عليه كليم حكايته مع والده ، كيف طلبه أبوه ، ورفضه الذهاب لأبيه ، ورجاء أخيه له بطاعة أبيه ، وإصرار أمه على أن يذهب لأبيه ، وكل ما تبع ذلك من أحداث ، فقال مرزا :

– ماذا تنوى الآن ؟

– ليس أمامى الآن سوى البقاء خارج البيت وعدم العودة إليه ، وما تشير عليَّ به ؟

– حسنًا .. يجب الانتظار حتى الصباح فنوايا الليل حرام ، استرح ، وخذ راحتك كما تشاء ، سوف أذهب وأرسل إليك غطاء ووسادة ، واسمح لى أن أرعى المريضة فى البيت ؛ فقد اشتد عليها المرض اليوم .

– ماذا حدث ؟ لقد كنت تقول إنك تملك هذا القصر ، وإن عندك مجالس ودواوين ودور ضيافة على أحدث طراز ، وحدائق وبساتين ، وحمامات سباحة ، ناهيك عن المحلات التجارية والبيوت الفخمة ، لكنى وجدت أنك لا تملك شيئًا مما ذكرت ، أو أنك حتى لا تجد مكانا صغيرا عندك أقيم فيه ليلة واحدة ، فما سمعته منك من قبل كان يعنى أنك ورثت كل تركة المقاول ، وأنك تتصرف فيها كما يحلو لك ، لكنى لم أر ذرة واحدة من ذلك الجاه والثراء .

– ربما تتعجب كثيراً معتقداً أننى كنت أصطنع مثل هذا الكلام ، لقد استمرت صداقتنا واستمرت صحبتنا مدة طويلة ، لكن للأسف لم تعرف طبيعتى ولا عاداتى ، إن اختلاف الوضع الماثل أمامك الآن سببه

أن المقاول كان قد تبني العبد الفقير الجالس أمامك ؛ فكانت تركته من نصيبي وجميع أعيان المدينة ورؤساؤها يعرفون هذا الأمر ، لكن بعد وفاته ، عقد هؤلاء النية على القضاء على للانفراد بالتركة ؛ وهكذا اضطررت إلى الهرب بعيدا، واعتزال الجميع ، لكن البعض الآن يحاول الوصول إلى حل ، ويحاول هؤلاء بدورهم إرضائي بطريقة أو بأخرى .

– لكنك لم تذكر لي هذا الأمر على الإطلاق ؟

– لو أطلعتك أو أطلعت أي شخص آخر على هذا الأمر ؛ لفقدت ما أملك من عزة ، والآن أراك متعبًا من الوقوف ، اسمح لي أن أذهب وأرسل إليك فراشا ، وأتولى رعاية المريضة .

– حسنًا ، ليس أمامي سوى الموافقة ، لكن قبل كل شيء أرسل مصباحا لأنني أستوحش هذه الظلمة الحالكة .

– مصباح ! كيف ؟ لقد أردت أن أضيء " اللمبة " لكن حرارة الجو بالإضافة إلى تجمع الفراشات يثير القلق ، بالإضافة إلى وجود الحشرات الطائرة هنا ، التي ستبدأ بالسقوط عليك إن رأت النور ، فيصعب عليك البقاء هنا ، اصبر قليلا حتى تطلع الشمس .

حين خرج كليم من بيته كان الطعام جاهزا ، لكنه كان منفعلا جدا لدرجة أنه لم يفكر أبدا في تناول الطعام ، فخرج من بيته جوعان ، وبعد لقائه بمرزا ، كان يتوقع أن يسأله مرزا عما إذا كان يريد أن يتناول الطعام ، لأنهم كانوا في بداية الليل ، كما أن مرزا عرف أن كليما خرج من بيته غاضبًا ، والأمر الثالث أن علاقتهما معًا كانت متينة جداً

فلم تكن بينهما كلفة ، لكن مرزا لم يذكر عمداً شيئًا عن الطعام ، بينما كان كليم يعانى من الجوع الشديد ، وكانت أمعاؤه تتقاتل مع بعضها حتى قبل أن يتوجه إلى المسجد ، وحين رأى أن مرزا لا يذكر شيئًا عن الطعام ، وأن الليل كله سيمضي عليه وهو فى هذا الضنك ، تغلب على خجله وقال : اسمع يا صديقي أنا لم أتناول الطعام أيضًا .

– صحيح ! ألا تكذب ؟

– أقسم برأسك أنا جوعان .

– يا رجل ! لماذا لم تخبرنى حتى الآن ، لقد مضى من الليل أكثره والمحلات كلها مغلقة الآن ، المفتوح منها ليس فيه إلا بقايا طعام ، الجوع أهون على الإنسان من تناوله ، ونحن اليوم لم نطبخ شيئًا ، ولكنى أفكر فى مخرج ، سوف أذهب لأحضر بعض الحمص الساخن ، سأحضر ما يعينك على جوع هذه الليلة .

وقبل أن يجد كليم فرصة لينطق بكلمة ، انطلق مرزا ، وفي غمضة عين جاء بالحمص ، لم تكن الكمية بكافية ربما سقط الحمص منه . على كل حال لم يكن في الإمكان أبدع مما كان ، قال مرزا :

– يا صديقى ، أنت محظوظ ، شم هذه الرائحة الطيبة ، يصعب التعبير عنها ، من العجيب أن الناس يستخرجون العطر من القش والشوك ، ومع هذا لم ينتبهوا إلى ما يمكن استخراجه من الحمص، انظر رغم مرور معظم الليل ، إلا أن الناس لا زالوا يتجمعون حول بائع الحمص ، وقد سمعت أنك كثيراً ما تذهب إلى بائع الحمص ،

والآن فهمت كيف يعد هذا الحمص اللذيذ ، فهو حمص جميل ، ولذيذ ، هل رأيت مثله من قبل ؟ لا توجد فيه حبة مكسورة أو مخدوشة ، وانظر إلى لون حبة الحمص ، لون جميل ، ورغم أن هناك حبوبا كثيرة تنبت في الأرض لكن لا يوجد مثل الحمص في لذة الطعم ، هل أخبرك بحكاية مشوقة ؟!

– تفضل .. احكي !!

– ذهب الحمص ذات يوم إلى ميكائيل الذي يقسم أرزاق العباد يشكو له حاله ويقول :

يا ميكائيل ! ما ذنبي حتى أتعرض للظلم منذ أخرج من بطن هذه الأرض ؟ هناك كثير من المأكولات ، لكن الظلم الذي أتعرض له لا ينال أيًا منها ، فحين أنمو وأكبر ، أتعرض للقطع والحصاد ، ثم أحمل فيصنع مني الإنسان الإدام بعد طبخي على النار، أو يأكلني دون طهي ، وحين يمر على وقت ؛ يقدمني بنو آدم إلى الخراف والماعز ، وقد أنجو ؛ فيتم زرعي ثانية ، وحين أنمو يقدمون سيقاني طعاما للبقر والجاموس ، أما الحبوب فيقدمونها للخيل أو ما شابه ذلك ، وقد يطحنونها أيضًا ، ويذيبونها في الماء ويطبخونها . والخلاصة أنه منذ البداية حتى النهاية ، والمصائب تنزل علي متتالية دون انقطاع ، وحين سمع الحضور ما قاله الحمص في حضرة ميكائيل ؛ غضبوا من ثرثرة الحمص ، لدرجة أن كل واحد منهم أسرع لقضم الحمص ، وهكذا فر الحمص دون سماع الحكم النهائي .. فيا سيدي ! هذا هو الحمص الذي اشتهته أسنان الملائكة ، ويؤسفني ألا يوجد الآن ملح وفلفل وإلا فهذا الحمص أشهى من الكباب !!

والخلاصة أن مرزا أطعم صديقه كليما هذا الحمص بعد أن أسمعه قصة الحمص العجيبة ، كان كليم جائعا ، فأكل الحمص ، وهو يشعر أنه بالفعل حمص لذيذ وشهي ، ووصل مرزا إلى البيت ، فأرسل إلى كليم فراشا وسخا مع وسادة قديمة ، وخلال ساعتين من الزمان تغيرت حال كليم ، وصارت عبرة لمن يعتبر ، فشتّان ما بين بيت المتعة ، أو دار الخلوة ، وبين هذا الوضع فى هذا المسجد الذى وصفنا حالته قبلاً ، وشتان ما بين نعيم البيت وألوان الطعام المتوفرة فيه ، وبين حبات الحمص ، حيث لا مصباح ولا سرير ، ولا أخ ، ولا أخت ، ولا أنيس أو مواس ، ولا خادم أو معين . كان كليم يجلس في المسجد كأنه سجين ارتكب ذنبا في حق الحاكم ، أو كأنه طائر حبيس فى قفص ، ومهما كان فقد كانت هذه الحالة بمثابة تنبيه له ، حتى يتوب عن أعماله ، ويستغفر الله على ذنوبه وأفعاله ، وإن لم يكن الآن ، فقد كان عليه أن يذهب مع بزوغ نور الفجر ليؤدى الصلاة مع أبيه ، لكنه كان يفكر في أمر آخر، ففي الليل أعد قصيدة فى هجاء المسجد ، وكتب مثنويا عن صديقه مرزا.

فتح عينيه مع طلوع الصباح ، فلم يدر هل مرزا أو أحد أوباش الحي سلبه طاقيته وحذاءه ومنديله ، وحتى الوسادة والغطاء ، أى كل ما يمكن أن ينفصل عن جسده ، ونهض كليم من نومه ، وكان قد نام فى وقت متأخر ، وبعد أن استيقظ فى وضح النهار ، وجد نفسه ملقى على حصير المسجد، وقد غطاه التراب والغبار والتصق به زراق الخفافيش ، فأصابته الحيرة ، لعله صار عفريتا صغيراً . ظل يبحث عن مرزا ،

ويتطلع هنا وهناك ، يريد أن يتحرك ، لكن المسجد كان خربًا ، فأتى له بالماء ؟ فجلس صابرا لعل أحدا يمر من هنا ، فيرسله لينادى مرزا ، أو يساعده في إيجاد وسيلة يغسل بها وجهه ، ويذهب بنفسه إلى مرزا ، حتى حان الظهر عليه ، وهو على هذه الحال ، وفجأة رأى صبيا يلعب ، فأراد كليم أن يخاطبه ، لكن الصبى خاف حين شاهد وضع كليم وفر هاربا ، والله يعلم ربما ظنه عفريتا ، أو شبحًا ، وحاول كليم أن ينادى عليه ، لكن الصبى انطلق وغاب عن الأنظار .

ومر كليم المسكين بمصائب عدة حتى حل عليه المساء ، وحين عم الظلام خرج مثل البومة ، وذهب مباشرة إلى بيت مرزا ، ونادى عليه ، فجاءه رد من داخل البيت ، يفيد بأنه خرج منذ الصباح الباكر، وذهب إلى منطقة مزار خواجه قطب الدين بختيار كاكى ، فى أطراف دهلى، فأراد كليم أن يعرف بنفسه ؛ فلعل من بالبيت يسمحوا له بأن يغسل وجهه ، وأن يستعير بعض ثياب مرزا وحذاءه القديم ، وطاقيته القديمة حتى يتمكن من السير في الشارع ، فقال :

– يا سيدتى ألا تعرفينى ؟

فجاءه صوت من داخل البيت :

– أنا لا أعرف صوتك ، أخبرنى باسمك حتى أعرف من أنت .

– اسمى كليم ، تجمعنى صداقة حميدة مع مرزا ظاهر دار بيك ، بل بقيت الليل بطوله فى المسجد من أجل مرزا .

عندئذ جاءه الصوت مرة أخرى يسأله :

– أين الوسادة والغطاء الذى أرسل إليك في الليل ؟

اضطرب سليم حين سمع كلمة الغطاء والوسادة ، وظل يفكر في الرد ، حين سمع صوتا من الداخل يقول :

– أرأيت يا مرزا زبردت بيك ! الحق بهذا الرجل ! امسك به حتى لا يهرب ، خذ منه الغطاء والوسادة .

سمع كليم هذا ففر هاربا ، ولم يكد يصل إلى نهاية الحارة حتى لحقه مرزا زبردت بيك ، وهو يصيح : حرامي ! حرامي ! ومهما حاول كليم أن يثبت للناس علاقته بمرزا ظاهر دار بيك ، لكن أحدا لم يصدقه .

أمسكوا به وأخذوه إلى قسم الشرطة ، فاستجوبه الضابط، وسأله عن حسبه ونسبه ، وحاول كليم أن يتهرب من ذكر عنوانه ، لكنه في النهاية اضطر إلى أن يذكر عنوانه للضابط ، لكن حالته المتردية ، ومظهره الرث يجعل أى إنسان يعتقد أن كلامه الصادق مجرد كذب وهذيان .

فقال له الضابط :

– إن السيد نصوح الذى تدعى أنك ابنه معروف لدى جيدا ، وأنا أيضاً أعرف جيداً أن اسم ابنه الأكبر كليم ، وهو الاسم الذى تدعيه أنت أيضا ، واسم الحي وعنوان البيت الذى أخبرتنا به صحيح ، لا لبس فى ذلك ، لكن كليما رجل معروف ومشهور ، وشعره اليوم على لسان الناس فى المدينة كلها ، وأنا حين أراك هكذا حافى القدمين عارى الرأس ،

جسمك مغطى بالقانورات ؛ لا أجد في نفسى همة لأصدقك ، الآن دخل الليل ، والذنب ليس بالهين ، سوف نرسلك للحجز ، وفى الصباح نستدعي والدك ليصدق على ما قلته .

حين سمع كليم هذه العبارة انخرط باكيا وقال :

– أنا هذا الإنسان التعيس الذى سمعت عن شهرته فى قول الشعر ، إن لم تصدقني ، فدعني أسمعك آخر أشعارى التى كتبتها عن المسجد وعن مرزا .

وبعد أن استمع الضابط إلى أشعار كليم ، تغيرت معاملته له ، وأمر شرطيين باصطحاب كليم ، وتسليمه إلى السيد نصوح ، فإن أقر بأنه ولده ، تركوه ، وإلا عادوا به ، ووضعوه فى الحجز .

ظهرت على وجه كليم علامات القلق والاضطراب الشديد ، فكيف يمثل أمام أبيه بهذه الصورة ، لكن ماذا عساه يفعل ، سحبه الشرطي ومضى ، وكان مسجد الحي الذى يصلي فيه نصوح قريبا جداً من بيته ، وكان في صحن المسجد خميلة جميلة ، في وسطها مجلس مرتفع فيه أرائك مريحة ، مكان رائع للترويح عن النفس ، كثيراً ما كان نصوح يأتي فيجلس فيه بعد صلاة العشاء ، خاصة في الليالى المقمرة ، فيتفكر في خلق الله ، ويراه المصلون فيقبلون عليه ؛ فيجدها فرصة للتحدث معهم ووعظهم ، وتقديم النصح لهم .

وبينما كان نصوح ومن يستمعون إليه مجتمعين معا ، إذا بالشرطيين يصلان مصطحبان كليما ، وكان هذا من تقدير رب العالمين ،

فالناس الذين يعتبرهم كليم أذلاء ، لأنهم يعبدون الله أو لأنهم يسعون للرزق الحلال لإطعام أولادهم ، يرونه الآن ذليلاً ، وقد تمرغت كرامته في التراب ، وهو الآن يقف بين من كان ينعتهم بالمتمشيخين ، وغسالي الموتى ، وشحاذي القبور ، ذليلاً يمسك برقبته الشرطيان كأنهما منكر ونكير ، عاري الرأس ، حافي القدمين ، يبدو من هيئته أنه لم يتناول طعامه منذ مدة ، وقد اتسعت حدقتا عينيه ، وتشققت شفتاه ، أما لباسه المشين فهو خرق بالية، وربما كان شكله أفضل لو كان عاريا .

حين وقعت عينا نصوح على ابنه ، شعر كأن سهما أصابه في مقتل ، لو أنه كان نصوحا السابق ، فربما لطم خده مثل النساء وظل يبكي ، أو وضع التراب على رأسه ، أو هرع وأخذ ابنه في حضنه ، أو اندفع يستخلصه من يد الشرطة ، أو لعنه يرتكب أية حماقة من حماقات الجهلة ، لكنه الآن إنسان مختلف فهو يعلم الدين ، ويعلم العبادة ؛ ولهذا فحركاته وسكناته مطابقة لشخصيته هذه .

أخذ نفسًا عميقًا ، وصدرت عنه آهة ،ثم قال : " إنا لله وإنا إليه راجعون " ، ولم يتأفف ، وحين سأله الشرطيان عن كليم ، وهل هو ابنه حقًا ؛ طأطأ رأسه وقال : إذا كان نوح عليه السلام ظل ينادي ابنه قائلاً " يا بني " حتى ساعة الغرق ، فلا يمكنني بدوري أن أنكر أنه ابني .

سمع الشرطيان هذه العبارة فتركا كليمًا ، وذهبا إلى حال سبيلهما ، فأمسك أحد أصحاب نصوح بيد كليم ، وأجلسه بجواره ، فنظر نصوح إلى كليم وقال له :

- لماذا يا كليم ؟ أى خطأ صدر منى حتى تخرج من البيت دون أن ترى وجهى ؟ إنك لا تستطيع أن تنكر أن حب الأولاد والعطف عليهم أمر كامن فى قلوب الوالدين ، الحب والشفقة التى تجعلنى أخلصك من قيد الشرطى ، فتنجو من الحبس ، الحب والشفقة التى تجبرنى وستجبرنى على ألا أتركك تمضى فى الطريق التى تؤدى بك إلى الهلاك الأبدى والدمار الدائم ، هل قلت لك اسع من أجلى ، واتعب من أجل راحتى ، ولو طلبت هذا منك ، فلأنه من حقى ، ولأنه من مسئوليتى أن أطلبه ، والكسب الذى حدثتك عنه سوف يعود بالنفع عليك ، وما تبذل من سعى وجهد سيتعبك ويرهقك ، لكنه سوف يهبك الراحة ، لو أن المريض يفر من طبيبه الرحيم ، ولو أن سائحًا يهرب من مرشده ، لحق لك أن تنفر منى ، لماذا يا كليم ؟! ألم أحرص دائمًا على أن أجعلك سعيداً مسروراً، ألم أحرص دائمًا على أن تكون راضيًا ؟ فلماذا اعتبرتنى عدوا لك ، هل هناك ما يستوجب هذه العداوة ؟

لقد سمعت أنك تعتبرنى مجنونًا ، ومخبولاً ، ومختل الحواس ، ومع هذا لم أطعن فى تشخيصك هذا ، ولم أشكك فى فراستك هذه ، ولكن إذا كان هناك مجنون أو مخبول يرشدك إلى الشوك المنثور فى طريقك حتى تنجو من خطره ، فهل عدم الاستماع إلى كلامه ، وعدم الاستجابة إلى نصيحته ، وعدم الاهتمام بندائه عليك من شيم العقلاء ؟ ثم كان عليك أيضًا أن تفكر : هل أنا وحدى الذى ابتليت بهذا الجنون أو هناك من يوافقنى الرأى من عباد الله ؟!

كليم إننى أقول لك الصدق ، إن جميع عظماء الدين الأتقياء المطهرين - عليهم رحمة الله - وجميع الناس الطيبين الموجودين الآن -

بارك الله لهم في حياتهم - لا يخلون من هذا الجنون الذي تتحدث عنه ، بل كلما زاد جنونهم - بمفهومك - زادت مكانتهم عند ربهم .

هل الإقرار بأننا عبيد الله جنون ؟ وأن له علينا حقوقًا ، خلقنا من أجل أدائها ، فهو الذي يرزقنا ، وهو الذي يحيينا ، وهو الذي يميتنا ، وهو الذي ينزل لنا المطر ، وينبت لنا من الأرض ما نقتات به ، وهو الذي يجري المياه العذبة جداول في الأرض ، وينبت الشجر الأخضر والورد والرياحين فتسعد بها أرواحنا ونفوسنا ، وهو الذي خلق لنا الهواء العليل نتنفسه ؛ فنبقى على قيد الحياة ، وبحكمه تشرق الشمس من مشارقها وتغرب في مغاربها ، وهكذا خلق النهار للسعي والليل للراحة ، وهو الذي سخر لنا الأنعام لنمتطيها ، ونحمل عليها أمتعتنا ، وجعل لنا فيها طعامًا لذيذًا ، وشرابًا من لبن ، وهو الذي أعطى الإنسان القدرة على البيان ، ليعبر عما في نفسه لبني جنسه ، والذي أعطى الإنسان الضعيف قوة العقل ، وطاقة العلم ليكون حاكمًا على هذه الأرض ، وهو الذي أوجد المخلوقات ، وجعل لكل منها ما يتناسب مع حالتها ، فلو جعلت أشجار الدنيا أقلامًا ، وبحار الدنيا مدادًا ، واجتمع علماء العالم من بدء الخليقة حتى يوم القيامة ، ليحمدوه ويثنوا عليه ، ويعددوا فضائله وإحسانه ونعمه ، ويسجلوها لأصابهم التعب والوهن ، وما تمكنوا من أداء حقه الواجب ، سبحانه وتعالى .

يا كليم ! الفناء أمر بديهي لا يمكن لأحد في هذه الدنيا أن ينكره ، إن وباء مثل وباء الكوليرا لم تمض عليه سنوات ، وأنت بنفسك شاهدت كيف أن الناس الصحيح والقوي ، القادر والعاجز ، الغني والفقير ،

العالم والجاهل كل الناس دون تمييز ،مئات بل آلاف كانوا هدفا لسهم القضاء ، والله هو الباقي ، لكن الوباء كان سببًا ، فالموت حق علينا جميعا : العاقل والجاهل ، الذكي والغبي ، واسأل من شئت عن حل لهذا اللغز .

يا كليم ! إن الله خلق الإنسان بشكل خاص ، ليكون عاقلا حتى يتحمل المسئولية المنوطة به، فلو كان الله قد خلقه ليملأ بطنه، وينام ليله ، ويحمي نفسه من برد الشتاء وحر الصيف ، لما لزمه أن يكون له عقل ، ولما لزمه أن يتميز بالتفكير ، فالحيوان قادر بشكل طيب على تربية جسمه الضخم ، رغم أنه لا نصيب له من العقل والفكر والعلم ؛ وهكذا فإن إدراك هذه المسئولية هي شرط الإنسانية .

سمع المجتمعون وعظ نصوح فتجددت في قلوبهم عاطفة الخضوع لرب العالمين ، ولم يكن من بينهم سوى كليم الذي لم تطرأ على قلبه ذرة من رقة أو إحساس ، فهو كما يقول سعدي الشيرازي :

" ما فائدة الوعظ أمام أسود القلب

مثله مثل مسمار حديد لا يدخل في الحجر "

كان صامتًا ، رأسه متجهة إلى الأرض ، وربما كان سكوته ناتجًا عن أن نصوحا لم يترك له الفرصة للكلام ، لأنه استمر في حديثه دون انقطاع أو لأنه كان يفكر في خطة أخرى ، وكانت رأسه المتدلية ناحية قدميه لا تعبر عن ندم أو شعور بالذنب ، وحين رأى نصوح بأن كليما وكأنه ليس معه ، أو كأنه لم يقل شيئا ، انفعل قليلاً وقال :

– إن أمرك محرج ، فأنا لم أعرف ما فى نيتك ، ففى البداية تهربت من مواجهتي ، والآن واجهتني ، لكن دون فائدة ترجى !

لم ينطق كليم بلفظ حتى الآن ، إلا أن الناس الملتفين حول نصوح كانوا على علم بأحوال كليم ، وكانوا يعرفون أيضا أنه خرج من البيت بسبب حرص أبيه على أن يؤدى فرائض الدين ، فقالوا : يا حضرة ! السيد كليم ما شاء الله رجل ذكي وعاقل وقد فهم تماماً ما قلته ، وسوف يستوعبه ، ونظراً لمروره بمرحلة الشباب فهو يهتم باللهو واللعب ، لكن سترى ، سوف يصبح شاباً صالحاً مستقيمًا على طريق الدين ، وسوف يكون أنموذجًا طيبًا لمن هم في مثل عمره ، تفضل الآن إلى بيتك ، وسوف يذهب معك ، سيغير ملابسه ، ويعمل طبقا لنصائحك، التى فيها ما ينفعه في الدنيا والآخرة .

بعدها توجه نصوح إلى كليم وقال له :

– لماذا يا سيد ؟ ألا تتكلم ؟ ألا تخبرنا عما في قلبك ؟

فقال كليم :

– أرجو أن تسمح لي بأن آخذ بعض حاجياتى الضرورية من البيت .

– يا للأسف ! إنك تهتم ببعض ضروريات الحياة اليومية والدنيوية ولا تهتم بضروريات الدين :

"احزن واحمل الهم والغم من أجل الدين

فهذا هو الغم الحقيقي

فجميع غم الدنيا وحزنها لا يساوي ذرة من هذا الغم *

ما معنى أخذ بعض الأشياء الضرورية، أذهب إن شئت إلى البيت ، فأنت تقيم في البيت أكثر مما أقيم أنا فيه ، لماذا صار هذا البيت من مسئولياتي ، أمك على أحر من الجمر ، وأخوتك الصغار كلهم قلقون ، وإصابة الآخرين بجرمي ليس من الإنصاف .

– أنا أعرف أنك من عدة أيام تريد أن تقيم في البيت دستورا جديداً ، وطريقة جديدة باسم عبادة الله ، والحفاظ على الدين ، وأنا لا أجهل اهتماماتك واتجاهاتك الرامية إلى إقامة هذا الدستور الجديد ، وكل شخص يعرف أنه لا مكان له في هذا البيت ، دون الخضوع لهذا الدستور الجديد ، وهكذا رأيت أنه لا ضرورة لمواجهتك وبيان معارضتي لك ، وحاولت ذلك بكل ما أستطيع ، لكن إصرارك أجبرني ؛ وهكذا أجد نفسي الآن مضطراً لأن أقول لك إنني أعارض هذا الدستور منذ البداية ، وهروبي هذا تعبير صريح وكاف لإبداء رأيي ، أنا لا أستطيع أن أغير طريقة حياتي قدر شعرة ، وإذا أجبرت بالقوة ، وبالخوف على ألا أتمسك بحرية رأي ، فاللعنة على همتي ، واللعنة على غيرتي وحميتي ، وأنا ليس لي كلام معك ، فأنت حر في أن تغير طريقة الحياة في بيتك كما تشاء ، لكن يمكن أن يلتزم بهذا النظام القهري أولئك الناس الذين يعترفون بوجوب التسليم به ، أو أولئك الذين لا يملكون القدرة على المعارضة ، ونظراً لأنني خارج النوعين معاً ، فقد رأيت أن مصلحتي تكمن في خروجي من البيت ، ومع أنه ليس من اللائق الآن وأنا في حالتي هذه ،

لكن دعني أترك دهلي ، وسوف ترى ، وسوف يرى الجميع ماذا كنت ، وماذا صرت ، فالمثل يقول : لا كرامة لنبي في وطنه ، ويقولون أيضًا مغني الحي لا يطرب ، وكما ثبت لك الآن أنني لن ألجأ إلى التسول بعد خروجي من البيت، لكني أقول إن ابنك هذا العاق سوف يصاحب أميراً ، أو أحد وزراء إحدى الولايات ، وأنا لست بأحمق حتى أتهمك بالقسوة ، أو عدم الشفقة ، إنك تقول ما ترى أنه في صالحي ، ولكن معذرة لوقاحتي أنا لا أعتبر نفسي بحاجة إلى تعليم أو إرشاد ، ويبقى شأن البيت ، فيمكنني العودة بشرط واحد ، وهو أن تعدني بأن لا تناقشني فيما هو خير وشر من أعمالي ، أو ما هو في مصلحتي أو ضد مصلحتي .

– هذا يعني أنك سلبتني منصب الأبوة ؟

– لا ليس الأمر كذلك ، أنت الذي وصمتني بالعقوق والعصيان .

بعد ذلك عقد نصوح النية على العودة إلى البيت ، وأراد أن يأخذ معه كليما بأي شكل ، طوعا أو كرها ، لكن كيف عرف كليم بما في ذهن أبيه ، فلم يكد والده ينهض من مقعده حتى كان كليم قد غادر المكان ، ورآه الناس يفر ويصل حتي قلب السوق .

رأى نصوح ما حدث وهو ينظر أمامه مشدوها لا يصدق ما حدث ، وكما قال حين رأى ابنه مقيدا في يد الشرطة "إنا لله وإنا إليه راجعون"، قال العبارة نفسها حين هرب ابنه منه الآن : " إنا لله وإنا إليه راجعون " ، ثم لاذ بالصمت .

وهكذا لم يذهب كليم إلى البيت ، كما لم يكن له نصيب من أى شيء يحضره من البيت ، وهكذا عاد أدراجه من حيث أتى ، وحين وصل نصوح إلى البيت كان خبر ما حدث قد سبقه إلى هناك ، فجلست النسوة يولولن، بينما وقفت الأم على أحر من الجمر، تنتظر عند الباب ، وكادت أن تكشف حجابها حين وصل نصوح ، فسألها وهو يبدى حيرته من وقوفها هكذا :

- خير ! لماذا تقفين هكذا ؟

دلفت فهميده إلى الداخل بعد أن رأت زوجها وسألته :

- أين ولدى كليم ؟

- ماذا تقولين " ولدى كليم " ؟ لو أنه ولدك لكان الآن فى بيتك ، ولما ترك البيت ومضى دون أن يخبر أحداً ، رغم توسلاتك ومحاولاتك ، ورغم محاولاتى ومحاولات أخيه ، ورغم كل ما بذلناه ، فقد ذهب حتى دون أن يكتب ورقة صغيرة ، ودون أن ينطق بكلمة واحدة .

- بالله عليك ، أريد أن أرى وجهه ، لقد سمعت أنه كان عارى الرأس حافي القدمين ، إنه لم يطأ الأرض حافى القدمين فى حياته . من ذلك الشرطي الذى قبض على ابنى ؟ قطع الله اليد التى تمتد إليه ، حطم الله مركز الشرطة الذى حبسوه فيه ، هل تبدو على ولدى سمات اللصوص ؟!

- ما هذا الكلام الفارغ ؟ هيا إلى الداخل واستريحى ، صوتك يصل إلى الشارع ، إن محبتك الزائدة هذه أضاعت الأولاد فى الدنيا والآخرة ، انظرى ماذا يمكن أن تعملى ؟

– حسنا ، لقد ذهب كليم ، فأين تراه قد ذهب ؟

– ذهب .. كيف أعرف إلى أين ذهب ، حتى تسألينى ، لقد أخجلنى أمام الناس ، يصعب على الآن أن أرى وجهى للناس فى المدينة ، فإما أن يهديه الله ، وإما أن أدعو عليه .

– كيف صبر قلبك على هذا ، وبأى عين رأيت فيها ولدك وهو على تلك الحال ؟

– صبرت كما صبرت على قلة أدبه ، فقد دعوته أكثر من مرة ، فلم يأت ، وهكذا صبرت حين رأيت حالته ، ورأيته العين نفسها التى رأت دار الخلوة، وبيت المتعة، وفضيحة مكتبته وما فيها ، رأيته عارى الرأس ، حافى القدمين ، مقبوضا عليه بتهمة السرقة ، فى حراسة الشرطة ، وكما قال الشاعر :

" رأيت ما كتب الله على أن أراه " .

– ألم تستطع أن تأتى به حتى باب الدار ؟!

– إن لم أستطع أن آتى به إليك ، فأنت لم تستطيعى من قبل أن تأتى به إلى ، كما أنك لم تستطيعى أن تمنعيه من الخروج من البيت .

– أنت رجل ، وأنا امرأة !

– هل يرضيك أن أتعارك معه ؟ كفى ، أرجو أن تعذرينى .

والخلاصة أن نصوحا أقنع زوجته بالدخول إلى البيت ، وأقنعها أيضاً بأنه لا فائدة من البكاء ، لكن عليها أن تدعو له الله بأن يرجعه إلى البيت وقد اهتدى إلى الطريق القويم .

من ناحية أخرى فكر كليم فى الذهاب إلى بيت خالته ، لكنه لم يكن يعرف حتي ذلك الوقت حال نعيمة ، لو أنها ذهبت عند خالتها ؛ لكان فيه خيرا له ، فهي متعاطفة معه ، لكنه فكر أيضا فى ظروف بيت خالته ، حيث الأسرة كلها متمسكة بأصول الدين ، وربما كانت هذه فرصة حتي يأنس كليم بأفكار نصوح ، لكن وبال عصيان الله وعقوق الوالدين كان مقدراً له ، وكان من نصيبه ، فحين خرج من الحارة التقى بالسيد/ فطرت ، والسيد/ فطرت أحد أبناء عم نصوح ، كان بينه وبين نصوح عداوة موروثة ، كما هو الحال فى جميع الأسر ، ونظرا للروابط الأسرية لم تكن أخبار أحدهم بخافية عن الآخر ، وكان فطرت قد سمع أن نصوحا أصيب بلوثة جديدة من التقوى والورع ، وضعت الأسرة كلها فى جو من القلق والاضطراب ، وكان فطرت على علم تام بجميع المشاكل التى واجهها نصوح فى محاولته إصلاح حال الأسرة ، وكان يسخر مما يحدث ومن سلوك نصوح ، كما أنه كان على دراية كاملة بعادات كليم ، وكان فطرت دائمًا يردد القول بأن السيد نصوح لا حق له فى أن يدعو الآخرين إلى التقوى والتمسك بالدين ، بينما هو غير قادر على أن يهدى ابنه الأكبر ، وهكذا حين رأى فطرت كليما عارى الرأس حافي القدمين سأله وهو يستثيره :

– يا سيد كليم ، هل وضعت إحرام الحج من الآن ؟

فرد كليم :

– لا .. ليس بإحرام الحج بل إحرام الهجرة .

– هكذا الأمر ! فقد استبعدت تماما أن تكون بطبيعتك المعروفة وبعلمك الغزير قد بدأت تقليد شيخ زمانه .

– لا ، إنك أدرى بإرادة الشعراء تجاه الشيوخ .

– انظر ! كيف تعامل أخي نصوح مع أولاده ، ومعك أنت خاصة من بين جميع أولاده ، وأنت – ما شاء الله – هذه الأيام فخر الأسرة ، بالنسبة لنا قد يختلف الأمر ، فقد يعتبرنا من خارج الأسرة وأجانب عليكم، لكن يجب قول الحق، ما له ولنا ، لماذا يتعارك معنا على طعامنا ، وعلى ملبسنا ، والعجيب أنه كلما كبر في العمر كلما زاد فيه حماس الشباب .

– أحسنت أمك كثيراً ، كيف تعاملت مع هذا الرجل صاحب المزاج الحاد ، ليس عنده مروءة ، لكنها طبيعة المرأة ، وكما يقولون في الأمثال القط يحب من يخنقه ، وأنت تعرفه ، لقد اضطررنا إلى البعد عنه ، ولم نعد نزوره ، حتى السلام لم نعد نلقيه عليه .. لكن إلى أين أنت ذاهب وأنت على هذه الحال ؟

– أنوى الذهاب إلى بيت خالتى .

– لكنها قد لا تسمح لك بالقيام عندها خوفا من أبيك .

– لا ، لا أتوقع منها ذلك .

– لكنه قد يطلب منها ذلك .

– قد يحدث هذا .

– لا يمكنني أن أقول ذلك ، لكني أعرف الظروف أيضاً ، ومعاذ الله أنا لست عدوا لأخي نصوح ، ولست عدوا لك ، نحن أيضا أقارب مهما حدث ، ولا نشكو للغير ، فما يصيبكم يصيبنا ، وما يصيبنا يصيبكم ، والخالة لا يمكن أن تكون مثل العم ، حين أصيب أخي نصوح في وباء الكوليرا ، يشهد الله أنني كنت آتي في اليوم مرتين لأطمئن عليه ، وأمي كانت دائماً تحمل الطعام وتأتي للسؤال عن أحوالكم ، وأنا لا يمكن أن أتحمل ما قد يصيبني من خجل إذا ذهبت إلى بيت خالتك هكذا ، على الأقل تعال معي حتى المساء ، وفي الصباح يمكن أن تذهب إلى خالتك . خذ ، ضع هذا على رأسك ، الناس يمرون بنا ، هيا دعنا نمضي من هنا .

والخلاصة أن فطرت تمكن من أن يقنع كليما بالذهاب معه إلى البيت وظل ينتقد سلوك نصوح بشكل لا يمكن لفرد من الأسرة أن يفعله، وحين سمع كليم قضايا ومسائل الدين والتدين ؛ ظل يتكلم ضد أمه وأبيه وأخوته والجميع ، وكان فطرت يحاول استرضاءه بمجاراته فيما يقول ، مؤمنا على كل كلمة ينطقها ، ناعتا نصوحا بالجنون ، وخراب المزاج والتشدد ، وهذا الأحمق كليم لم يفهم أن فطرت وأهل بيته لا يريدون له الخير ، فالخلاف بين أبيه وبينه – حتى الآن – هو خلاف في الرأي ، وما حدث بينه وبين أبيه – حتى الآن – هو نفور وعداوة ، إلا أن فطرت حاول أن يقنع كليما بأنه ليس التدين هو الذي جعل نصوحا يتصادم مع أولاده ، بل والده اتخذ من التدين حيلة وذريعة ، وإلا فالأب كان يركز على إخراجه من البيت ليس إلا .

وهكذا وجد كليم نفسه في صراع بين أمرين مختلفين : فأبوه يرشده إلى الطريق القويم ، بينما يوجهه فطرت إلى الضياع والضلال ، لكن الكفة كانت تميل ناحية فطرت ، لأسباب منها أن كليما بطبعه يميل إلى ما يوجهه إليه فطرت ، بالإضافة إلى أن نصوحا كان يرشده إلى طريق جديد غير مأنوس ، مملوء بالمصاعب والمتاعب مثل الزهد والتقوى وكبح جماح النفس والتواضع وخوف العاقبة وغيرها ، وكان من الصعب على كليم أن يجد لنفسه رفيقًا يمضي معه على هذه الطريق، وعلى العكس من هذا ؛فطبيعته تميل إلى التحرر ، وإلى حياة الدعة والخمول والمتعة واللهو والكبر واللامبالاة ؛ مما جعله يميل إلى التنقل والترحال لمشاهدة المهرجانات والاحتفالات .

والخلاصة أن كليما اندمج مع فطرت مثلما يمتزج السكر بالحليب ، وحين سمع نصوح هذا الخبر ، تأسف كثيرًا لأنه كان بينه وبين فطرت عداوة ، والعداوة في نظر الدين ذنب عظيم ، ولا يمكن أن يرتكب نصوح هذا الذنب ، لكن خوفه لم يكن في غير محله ، فقد لا يحاول فطرت الإصلاح ، أما كليم فلم يكن يعاني من شيء في بيت فطرت ، لكنه لا يجد هنا ما يعجبه من كتب ، ومن هنا قال لفطرت :

– إنني أشعر بالملل وأنا جالس هكذا طول اليوم فارغًا ، لقد فكرت في أن أنظم مثنويا عن حالتي هذه في مائة بيت أو أكثر لكنني أحتاج إلى بعض الكتب ، فإن وافقتني الرأي ؛ أرسلت في طلب بعض كتبي من البيت .

فقال له فطرت :

– أنا لا أتوقع من أخي نصوح أن يسمح لك بذلك وخاصة أنك هنا في بيتي ، وأعتقد أن وجودك عندي يكفي عنده لاتهامك بالكفر ، لكن يمكن أن ترسل وتطلب ذلك من والدتك ، فهي لن تمانع في ذلك .

ظل سليم قلقًا ومترددًا .. كيف السبيل لطلب كتبه ، لكن فطرت بمكره ودهائه يحاول أن يثبت له أنه يساعده فقال له :

– هذا ليس بالأمر الصعب ! لك أن تأمرني وساعتها يمكن أن آتيك حتي بفراش أخي نصوح دون أن تعرف ملائكته .

وهكذا ذهب فطرت إلى بيت نصوح ، وعلم كل ما دار في البيت ، بما في ذلك قيام نصوح بحرق كتب كليم ، فعاد فطرت ليثير مشاعر كليم ، وينقل إليه هذا الخبر ، ويصف له حالة الخراب التي عمت البيت ؛ وهكذا ترك خبر حرق الوالد للمكتبة علي كليم أثرًا ، يشبه أثر جبل الطور علي موسى ، فقد ارتعد كليم عند سماعه هذا الخبر ، كأنه أصيب بماس كهربائي ، ولو كان والده أمامه في ذلك الوقت لتعارك معه ، وتشاجر معه ، ووجه إليه أعنف كلام ، لكنه وجد نفسه يصفر ويخضر ، ويقف صامتا ، كأنه يفكر في وسيلة للانتقام من أبيه .

حين عرض علي فطرت ما يفكر فيه ؛ أجابه فطرت بأن هذه كلها حماقات ، أنت أكبر أبنائه ، سوف أخبرك باقتراح تحقق به النفع والانتقام فسأله كليم :

– ما هو ؟

– إن أباك كتب أراضى " العزبة " باسمك ، فلماذا لا تستولى عليها .

فرد عليه كليم متمثلا قول الشاعر :

" هذا خيال وجنون ومحال "

فإن له عدد من المزارعين والتابعين والخدم ، يقيمون هناك طول الوقت .

– " العزبة " ملكك ؛ إذن الخدم والمزارعون وغيرهم معك وليسوا معه .

– لكن اسمى فقط مجرد حبر على ورق لا أكثر .

– وهذا هو إثبات ملكيتك للأرض .

– الإثبات فى يده ومعه ، وبأمواله تم شراء العزبة .

– إن الإثبات الذى فى يده هو إثبات بملكيتك أنت ، والأموال التى اشترى بها "العزبة" هى بمثابة أموالك ، فالبائع أعطى إيصالا باسمك ، و"العزبة" مسجلة باسمك ، كما أن ضريبة الأطيان الزراعية تحصل أيضا باسمك .

– إذا كان كل شىء قائم على مجرد استخدام اسمى فقط ، فإن هذا لا يفيد فى إثبات حقى .

– لكن إذا تم إنكار اسمك الفرضى هذا ، فإن إنكار ملكيتك للعزبة ليس بالأمر السهل .

- لا يمكنني أن أفهم هذا الأمر ، لكن الوقائع تكذبه .

- اسمع هذا ليس بشعر ، هذه أمور تتعلق بالدنيا ، وهي تحتاج إلى طبيعة خاصة .

- يفهم من هذا أن هذا الاقتراح غير ممكن ، عليك أن تفكر في أمر آخر .

- إذا كنت لا تستطيع أن تقوم بهذا العمل السهل ، فإن خروجك من البيت كان خطأ ، إن هذا الاسم الفرضي يكفي تمامًا للحصول على الحق .

- افرض أنك حصلت على هذا الحق .

- لماذا تفرض ؟ مثلما اسمك اسم فرضي ، فيمكن أن تكتب لي مبايعة فرضية باسمي ، وهكذا يمكن أن يكون الأمر كله فرضيًا .

- لو أن الملكية ممكنة بمبايعة فرضية ، فما حقيقة "العزبة" إذن ، أنا على استعداد أن أبيعك الإمبراطورية الرومانية ، وآخذ منك ما أخذه الشاعر حين قال :

" أبيعها بخارا وسمرقند مقابل

خالها الهندي - الذي يزين وجهها "

- أخبرني أولا بكم تبيع " العزبة " بما فيها ؟

- بقيمة فرضية !

– من الأفضل أن تقدر قيمتها .. بكم ؟

– افرض أنني بعتك إياها بمائة روبية .

– إذن خذ مني ألف روبية نقدا .

– أتقول الصدق ؟!

– نعم ، أقول الصدق .

– أقسم إني بعتك إياها .

– وأنا أقسم إني اشتريتها منك .

لم يعط كليم لقسم فطرت أى اعتبار ، إلا أن فطرت دخل البيت وأحضر "رزمة " بألف روبية ، وضعها أمام كليم ، وبينما كانت الروبيات تعد وتحصى ، كان عقد البيع يكتب ويجهز للتوقيع .

فكر كليم فى أنه عقد صفقة ، وأنه نال غنيمة دون أى تعب ، لقد تم البيع وتم الشراء ، وأعطاه فطرت الثمن ، ومن الأفضل أن يمضى من هنا قبل أن يرجع فطرت فى الصفقة ، وهكذا حمل كليم الروبيات تحت إبطه ، واستأذن ووصل إلى " ميدان تشاندنى " ، وفى فندق " محل دار خان " وجد جناحا خاليا فحجزه ليقيم فيه .

وهكذا فى مدينة مثل دهلى ، وإنسان مثل كليم لا يفكر فى عواقب الأمور ، إنسان مسرف ومبذر ، يمتلك أموالاً ، جاءته من الهواء ، أو سقطت عليه من السماء ، توفرت كل سبل اللهو والمتعة .

لم يضع كليم الوقت ، فانطلق فى اليوم التالى ليشترك فى حفلة مطارحة شعرية ، وبعدها حضر حفلة رقص ، وكان قد بعث لجميع أصدقائه بطاقات يدعوهم لمشاركته حفلاته تلك ، وهكذا تجمع شياطين الإنسان من رفاق كليم ، لدرجة أن مرزا ظاهر دار بيك الذى لا جبلة عنده ولا غيرة ، جاء مهرولا بعد سماع الخبر ، وكليم الأحمق بلع الطعم الذى قدمه له صديقه المخادع ، وصفت الأمور بينهما ، وكأن شيئا لم يكن .

من الأفضل ألا نذكر كيف قضى كليم الشهرين ، فقد بلغ قمة فساده ورعونته ، وهكذا لم يكد الشهر الثالث يبدأ حتى كانت الروبيات الألف قد طارت ، وهناك حساب الخياط والقماش ، وحساب محل الحلويات ، ومحل الكباب ، والمطاعم ومحلات الفاكهة ، وغيرها ، بالإضافة إلى أجور الخدم ، ثم بدأ الآن يقترض ثمن الخبز والعدس ! وبالتدريج بدأ كل من له حساب يطالب بحسابه .

صحا سليم من غفلته حين وجد أنه لا يستطيع أن يشترى حاجيات يومه ، لكن هذه اليقظة لم تكن مفيدة الآن ، فقد انفض عنه جميع خلانه وأصدقاؤه ، ولم يعد أحد منهم يزوره أو يقترب من مكانه أما الخدم فجلسوا كما هم ، لكنهم فى أسف شديد ، لأنهم لا ينالون أجورهم ؛ وهكذا جلسوا يحاولون أن يجمعوا لأنفسهم كل ما فى المكان ، مقابل أجورهم المتأخرة ، وكلما حاول سليم أن يتسلل هارباً ، فشل فى محاولته ، فالخدم من حوله يراقبونه ، وحين انتصف الليل حاول أن يتسلل متخفياً فى زى الخدم ، إلا أنه سقط فى يد شرطة محكمة الأموال ، واكتشف كليم أنه أثناء غفلته هذه ، قيدت ضده فى المحكمة عدة قضايا .

تم القبض على سليم فى تلك الليلة ، وعانى معاناة شديدة ، جعلته يتذكر في حسرة تلك الليلة التي قضاها - معتكفًا - في مسجد ظاهر دار بيك ، وفي اليوم التالي أخذ سليم إلى المحكمة، حيث مَثُلَ أمام القاضي، وكان نصوح قد وصل عند المحكمة قبل وصول كليم ، وحين رأى كليم أباه انخرط في البكاء رغما عنه، لكنه لم ينطق بكلمة؛ خوفًا من الشرطة ، وخجلاً وندما على ما ارتكبه ، وكان حضور نصوح إلى المحكمة بسبب ما ارتكبه كليم أيضًا ، فقد قام فطرت بمحاولة تسجيل عقد البيع الذي وقعه مع كليم ، وأحضر بعض " البلطجية " والأوباش المأجورين ، وبعض المزارعين في محاولة للاستيلاء على العزبة بالقوة ؛ وهكذا جاء دور المحكمة ، ورفعت قضية لإثبات ملكيته " للعزبة " التي اشتراها من كليم وخسر نصوح خمسة آلاف روبية .

حضر نصوح للمحكمة لأن كليما سيرسل للحبس ، لم يتبادل الأب مع ابنه سلامًا أو كلامًا ، لكن كلا منهما كان يعرف ما يدور في خلد الآخر ، فبينما كان الوالد يخرج من باب المحكمة ، كان الابن يرسل إلى السجن ، ومهما حاول كليم أن يقنع السجانين بأنه شاعر متين ، وأنه من أسرة شريفة ، وصاحب حسب ونسب ، لكن السجانين لم يهتموا بما يقول ، ووصل التعب به إلى درجة كبيرة جعلته يتذكر أباه ، رغم أنه كان يائسًا من مساعدته ؛ نظرا لارتكابه تلك الجرائم ، ومع هذا فالغريق يتشبث بقشة ؛ وهكذا كتب رسالة إلى أبيه جاء فيها :

" إنني في حيرة ، من أنا ؟! ولمن أكتب هذه الرسالة ؟! وأنا على يقين من أنك ستكون أكثر مني حيرة ، حين تصلك هذه الرسالة ،

هل يمكنني أن أقول شيئا بعد كل ما صدر عنى من عقوق وعصيان ، وقلة أدب ، وعدم احترام ، وما سببته لكم من عار وخزى ؟

ليس لى الحق فى أن أنتسب إليك ، فلست جديرا بأن أكون ابنا لك ، وهكذا فهذه الرسالة ليست رسالة ، كما أنها ليست من ابن ، وليست إلى أب ، ولكنها " كتاب اعتذار " وهى" وثيقة اعتراف" ، و "وثيقة توبة "، و"سند استغفار" ، و"إقرار بالندم " ، و"تعبير عن الاحتياج " ، من طرف كليم المذنب ، أسود الوجه ، الخجلان ، الظالم إلى صاحب الكرم الشامل ، والخلق العظيم ، الحليم الرءوف بأهله الرحيم بهم ، المحسن إليهم ، وولى نعمتهم ..

منذ أن طردت بعد أن ارتددت ، والمصائب تنزل على ، وتحل بى ، والذل يطوقنى ، والعار يركبنى ، ومع هذا اعتبرت أن مقولة " نحصد ما نزرع " مقولة غير صحيحة ، وهكذا لم أتورع عن ارتكاب الخطأ تلو الخطأ ، ولم أتراجع عما كنت فيه من غى ، ومهما اعتذرت ، ومهما عبرت عما بداخلى ، فليست هناك عبارات تكفى ، لكنى أنا نفسى لا أطمئن إلى توبتى وإلى ندمى ؛ ذلك لأنها توبة جاءت متأخرة ، كما أن الندم جاء وأنا فى حالة الابتلاء ؛ لهذا لا أعتمد على توبتى ، ولا على ندمى ، لكنى سأفوض أمرى إلى الله الذى أخطأت فى حقه كثيراً ؛ ليكون شفيعًا لى ، وأرجو أن تصفح عنى تمثلاً لقوله تعالى " والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين " .

" يا أيها الملك انظر إلى - أنا الفقير- نظرة كرم

انظر إلى حالتى المتردية ، وفؤادى المكلوم

فإن كنت لا أستحق عفوك وعطاءك

فلا تنظر إلي ، وانظر إلى كرمك "

أتى عليم بكتاب ديني لأحد القساوسة ، وقع نظرى على جملة فيه أعجبتني وهى أن التوبة ممحاة ، والذنب عبارة كتبت بقلم رصاص ، وهكذا فحين تطهر التوبة ذنوبى ، ويمحو الندم سيئاتى ؛ عندها أكون أنا ابنك المطيع ، وتكون أنت والدى المحترم ، وأنا آمل فى عطفك وكرمك، إننى الآن رهينة سبعمائة روبية ، فإن لم تعطها لى صدقة أو زكاة ، فأعطنى إياها قرضا حسنًا ، وثواب فيك قيد السجين ، وتحرير العبد لا يخفى عليك ، إن لم يصلنى المبلغ حتى يوم الغد ؛ فإننى سأتعرض لصعوبات جمة " .

كان كليم شاعرا ، وهو ساحر فى نظم الشعر ، لدرجة أنه يثير بكلامه جميع الحضور ، وقد فكر فى أن يرسل إلى أبيه هذه الرسالة عن التوبة ، لعلها تصل إليه ، ولعل الروبيات لا يتأخر وصولها إليه ، وقد واجهته مشكلة إرسالها إلى أبيه ، وكان هناك أحد العساكر قدم من سجن "هانسى حصار " فى البنجاب ، وهو يستطيع أن يفك الخط ، وهكذا حين تنتهى دورة حراسته يظل يقرأ قصة " ملك الروم وابن العسكرى" ، و " كنز المصلى " ، وغيرها ، يطالع النثر ويقرأ الشعر من خلال قضبان زنزانة كليم ، وقد تمكن كليم من توطيد علاقته بهذا الجندى من خلال الشعر ، وتمكن سليم من إقناعه بإيصال هذه الرسالة

إلى أبيه مقابل أن يكتب كليم عنه ، وعن ولديه عبارات نثرية يستخدم فيها السجع ، وكان الجندى يدعى نتهى خان ، أما ولداه فأحدهما جمنت خان والآخر بدهو خان ، وهكذا ظل كليم يفكر فى أن يستخدم السجع مع هذه الأسماء ، لكن الجندى كان كلما كتب له سليم بعض العبارات يظل يضحك قائلا : يا أخى ما هكذا يكون السجع ، وهكذا استمر كليم يحاول إرضاءه بتبديل العبارات وتغييرها ، حتى تم له ذلك بعد سبعة أيام .

والخلاصة أن الرسالة وصلت إلى والد كليم ، لم يكن الأمر يحتمل تأخيراً ، وهكذا قرأ نصوح الرسالة، وعد المبلغ المطلوب سبعمائة روبية ، ويبدو أن كليما كان لا يزال يفكر بخبث ، فقد كان بحاجة فقط إلى خمسمائة روبية ليفرج عنه ، لكنه طلب سبعمائة روبية ؛ وهكذا دفعت خمسمائة روبية للإفراج عن كليم ، بينما استخدم الباقى فى الإعداد للسفر .

وهكذا أعد كليم العدة للذهاب إلى دولت آباد ..

الفصل الحادي عشر

(ذهب كليم إلى " دولت آباد " للبحث عن عمل ؛ فانضم إلى صفوف الجيش ، وجرح في إحدى المعارك ، وحمل مثل الموتى على حمالة وجيء به إلى دهلي)

* * *

دولت آباد ولاية صغيرة من ولايات الهند ، كان يمكن أن يصل دخلها السنوى إلى مائة أو ستمائة ألف روبية ، لكن كان يتولى رئاستها شاب عديم الخبرة، تجمع حوله جماعة من المنافقين المتملقين الانتهازيين ؛ فجعلوا من دولت آباد مدينة شبيهة بمدينة لكهنو في اللهو واللعب والفساد ، مع الفارق في المساحة فقط ، وكانت طبيعة هؤلاء الناس شبيهة بطبيعة جماعة (فرى ميسن) المنحلة ، وكانوا على علم تام بأحوال "دولت آباد " وكليم كان قد سمع عن أحوالها أيضًا ؛ فاشتاق شوقًا عارمًا إليها ، كشوق الزاهد إلى الجنة .

مضى كليم على الطريق إلى دولت آباد ، فوصلها بعد أن قطع مسافة خمسين ميلاً ، وكان قد تعرف على بعض الناس ، فرتب متاعه ، ثم تمكن من الوصول إلى قصر الحكم ، وكان قد أعد أثناء سفره قصيدة في مدح حاكم دولت آباد ، وكان عليه أن يكمل ما تبقى من أبياتها ، فأكملها بسرعة ، وجعل من هذه القصيدة وسيلة للتقرب من

الحاكم ، ثم نوى الحضور إلى البلاط لإلقاء القصيدة إلا أن أعماله السيئة ، وغضب والده عليه ، لم تمكنه من النجاح فى أية خطة رسمها ، ذلك لأن العرش هنا فى دولت آباد كان قد انقلب قبل وصوله بعدة أيام ، وكانت أخبار سوء الإدارة والفساد قد وصلت إلى الحاكم العام الذى وصل بنفسه إلى دولت آباد ليتقصى الحقائق ، فجرد الوالى من جميع سلطاته ، وفوض أمور الولاية إلى إحدى اللجان التى ضمت بعض المخلصين من موظفى الحكومة القديمة ، الذين تركوا صحبة الوالى بعد أن شاهدوا فساده ولهوه ولعبه ، وفضلوا البقاء فى بيوتهم .

كان رئيس اللجنة هو انتظام الدولة مدبر الملك نواب بيدار خان بهادر حاكم "عافيت نكر" ، وهو من ناحية القرابة خال حاكم دولت آباد المخلوع ، وكانت إدارته الحسنة لمنطقة "عافيت نكر" مضرب المثل ، وقد استمر الحاكم العام يقنعه بالاشتراك فى اللجنة عدة شهور حتى وافق، وكان ينال بصفته رئيسًا للجنة مكافأة قليلة ، وقد قام بتطهير الجهاز الإدارى من الفاسدين واحداً بعد الآخر ؛ والخلاصة هى أن الخطة التى قدم من أجلها كليم باءت بالفشل .

لم يكن كليم يعرف أحداً فى الديوان ؛ لهذا قدم طلبًا للعمل مثله مثل بقية الناس ، وحين نودى عليه ، دخل لإجراء المقابلة مسروراً ، وهو يتوقع أن يجد نفسه أمام أناس على أخر " مودة " ، وفى غاية الهندام ، لكنه حين دخل ، وجد نفسه أمام شيوخ لحاهم طويلة ، يجلسون وقد عقد كل منهم عمامته على رأسه ، يقوم بعضهم بالتدريس ، بينما يقوم

آخرون بمطالعة كتاب ، أو قراءة بعض الأدعية والأوراد ، وحين وضع كليم قدمه في القاعة أنشد مطلع قصيدة يقول :

" ذهبنا نبحث عن بيت الأصنام

فإذا بنا نجد أنفسنا داخل الحرم "

شاهد كليم وجوه الشيوخ ؛ فوقف كأنه يستعد للهروب مثل شيطان لا حول له ولا قوة ، لكنه كان يفكر في الثروة والجاه ، وتعجب لأنه وجد نفسه كأنه في خانقاة لبعض المتصوفين ، ورأى أن يستكشف الأمور ؛ فاقترب من أحد الشيوخ وقال :

- أتشرف بالسلام على جنابكم العالى .

سمع الشيخ هذا الأسلوب في إلقاء التحية فرفع النظارة عن عينيه وبدأ يطالع في وجه كليم ، واستمر مدة ثم رد السلام باللغة العربية هكذا :

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، من أين أنت في أرفالك أحسن الله بحالك ؟

- يا حضرة الشيخ المحترم ! أنا لا أعرف العربية .

- من أين قدمت ؟

- من دهلى .

- مؤهلاتك ؟

- شهادة امتحان الحظ ، مع شهادة اختبار النصيب .

- العلم والعمل ؟

- مدح أرباب الثروات .

- هدفك وغايتك ؟

- تحصيل الجاه والثروة .

عندئذ قام الشيخ بإطلاع كليم على الأحوال ، وقال إنه لا يملك أن يؤدى له أية خدمة ، ثم قال إن الوصول إلى مولانا رئيس الوزراء أمر صعب ، فسأله كليم :

- أين يجلس مولانا رئيس الوزراء ؟

- انظر ! فهو فى مكان ما هنا.

- وكيف أتعرف عليه ؟

فرد عليه الشيخ بالعربية :

- " سيماهم فى وجوههم من أثر السجود " .

- لم أفهم ما قلت .

- عجوز قد تقوس ظهره ، يدرس الطلاب فى الحجرة الشمالية فى الصحن هناك ، أو ربما يكون مشغولاً فى الفصل بين المنازعات .

- كيف أخاطبه ؟

– قل له : مولانا أدام الله فيوضهم نائب الحاكم !

– هل يمكنني أن أذهب إليه ؟

– لا بأس في ذلك .

وخلاصة القول أن كليما ذهب إلى رئيس الوزراء ، فرآه رجلاً عاديًا ، غير ما كان يظن ويعتقد ، فحين وصل عنده وجده شيخًا عجوزًا مثل أولئك الذين يمضون على باب الله ، كان يفتي في قضية ميراث ، ويضرب أرقامًا ، ويجمع ويطرح ، أشار على كليم بالجلوس بعد أن عرف أنه غريب ، وقال له سأتحدث معك بعد أن أفرغ من هؤلاء ، وظل كليم ينصت إلى الحوار الذى كان يدور أثناء انعقاد قضية الميراث ، وأدرك كليم أن هذا الشخص يستحق أن يجلس على كرسى الوزارة ، وحين انتهت القضية توجه رئيس الوزراء إلى كليم قائلاً :

– نعم يا حضرة ! تفضل بالحديث ..

– العبد الذى أمامك غريب الوطن ، سمعت عن جود الحاكم وكرمه ؛ فاشتقت إلى المثول أمامه منذ مدة ، هذه هي الحال والباقي يفهم من صورتي .

– ما سمعته صحيح ، ومع أن الجود والكرم صفة محمودة إلا أن الاعتدال واجب ، فشامة الإسراف ألا يبقى الغنى والثراء ، وقد قام الإنجليز بسلب الحاكم جميع سلطاته ، وتجريده من جميع مناصبه .

– أنا لا أطب كنزًا أنا أسأل منحة ، والشاعر يقول :

" إن أردت الصدف فهل تطلبه من قطرة ماء في اليم

أنا أطفئ ظمئي بندى تفتح البرعم "

قرأ كليم الشعر بصوت رنان ، جعل الحاضرين كلهم يتعجبون لأنهم رأوا أن هذا السلوك يخرج عن سياق الأدب ، فقد كان على هذا الشاب أن يحترم منصب رئيس الوزراء ويحترم علمه وفضله ، ويحفظ عليه هيبته ، أي كان يجب على كليم أن يقدر الموقف الذي هو فيه ، لكنه ظن أن ما فعله هنا يعبر عن سرعة بديهته ، وحضور جوابه ، وقدرته على اللغة ، والاستشهاد بالشعر تكية في كلامه عادة ، فإذا تكلم ؛ تكلم كلاماً مقفى ، وإذا تحدث ؛ تحدث بكلام موزون ، وحديثه العادي يتصف بهذه الصفات أيضاً ، فإذا ما لامه أحد قال :

" الشعر هو شعارنا "

تحير الناس بعد أن رأوا كليما يقرأ الشعر في جرأة أمام رئيس الوزراء ، إلا أن الأمر المحير فعلا أن هيبة رئيس الوزراء لم تمنع كليما أو توقفه عن قول الشعر، ربما كان رئيس الوزراء أكثر حيرة من الناس ، لكنه كان مهذباً لدرجة أنه لم يتطلع حتى إلى كليم ، ولم تظهر عليه علامات الغضب أو عدم الرضى ، لكنه رد على كليم بقوله :

– إن من العبث توقع شيء من الحاكم ، لكن هناك نظامًا جديداً في طور التنفيذ ، فإن رأيت أن من الممكن لمثلك أن يؤدي وظيفة ما ؛ فسوف أطلع مجلس الشورى بذلك ، وهو المجلس الذي يسميه الناس "لجنة إدارة الولاية " ، سيعرض طلبكم ، وفي الغالب ستنال وظيفة ،

لأن هناك عدة وظائف خالية ، وخاصة فى الإدارة العسكرية على حدود الولاية .

قال كليم :

– أتمنى يا سيدى أن أكون ضمن إدارتكم الخاصة ، حتى تظهر مواهب هذا العبد الماثل أمامكم ، عندها أقبل بكامل الطاعة ، ما تشيرون به من وظائف ، حتى لو كانت وظيفة فى الإدارة العسكرية :

" طالب علم أنا شعرى ونظمى علم

فى يدى مثل السهم ينطلق القلم " .

– لقد أعد الإنجليز نظامًا ضيقوا فيه على طالبى الوظائف ، لكنى أود أن أعرف قبل أن أسند إليك أية وظيفة ، ماذا تستطيع أن تعمل ؟

فرد كليم :

– كما يقول غالب :

" اليوم لا يوجد مثلى فى الدنيا ،

شاعر قدير ، وصاحب كلام حلو جميل " .

– لكن طبقًا لنظام الإدارة الجديد ، لا يوجد الآن وظيفة شاغرة تحت بند الشعر .

فرد كليم بهذا الشعر :

" لولا الشعراء لما كان للوطن وجود

وكانت السلطنة مثل عروس

لم تتزين لليوم الموعود "

- لك أن تفهم ما تشاء !

- لكنكم أنتم رئيس الوزراء ، فى يدكم جميع السلطات ، وكما يقول الشاعر :

"بعد الاعتماد على الله القدير ، نضع أملنا فيكم " .

فرد رئيس الوزراء قائلا بالعربية " نعوذ بالله المنان من آفات اللسان " ، ثم قال :

- أنا مجرد رئيس وزراء بالاسم ، ونائب الرئيس بالاسم ، وإلا فأنا فى الحقيقة ذرة لا قيمة لها .

- هذا تواضع شديد منكم ، وكما يقول الشاعر ظهورى :

" وضع رأسه على عتبة الخدمة ، فارتفعت قدماه إلى السماء " .

أنا أيضًا خرجت من ديار بعيدة ، ووصلت إلى هذه البلاد ، وأرى أنكم يا جناب رئيس الوزراء بحاجة إلى شاعر ، يعلن عن خصالكم الطيبة ، وطباعكم السمحة ، وتواضعكم الجم ؛ فيؤكد بذلك على ثقة محبيكم فيكم ، ويرهب حاسديكم والحاقدين عليكم .

- هذا من كرم نفسك وإلا فأنا كما يقولون أعرف قيمة نفسى ، فإن كنت أحتاج لأحد ؛ فأنا بحاجة إلى شخص يكشف لى عن عيوبى وسيئاتى .

– إن كنتم لا ترغبون في شعر المدح ، فإن العبد لله له قدرة على النظم في جميع أنماط الشعر مثل : شعر الوصل ، والهجر والشوق والانتظار ، ونظم الرباعي، والشعر التأريخي، والشعر الحربي ، واستخدام الاستعارة والتشبيه والجناس ، وغير ذلك من موضوعات مختلفة ، ويمكنني أن أميل إلى النمط الذي تميلون إليه .

– أنا لا أشك في فضلك وقدرتك ومهارتك التي لا نظير لها ، لكن يؤسفني أن أخبرك بأني لا أميل إلى هذا الفن .

– يا سيدي إن من سوء حظي ألا يميل عالم كامل مثلك إلى هذا الفن الشريف الذي " هو باعث لذة النفس وغذاء الروح " .

– مع أنني أجد في نفسي كثيراً من أنواع الخبائث ، إلا أنني أشكر الله العلي العظيم ، فالآن أنا احترز من هذه الأمور مراعاة لعمري الحالي ، وأشكر الله الذي جعلني أنفر بشدة من هذه الأمور – بفضله تعالى – منذ أن كنت في عنفوان الشباب .

– ما هو السبب ؟ وما الداعي لذلك ؟

– على حسب فهمي الانشغال بمثل هذه الأمور ليس له نتيجة سوى الغفلة ، والاستخفاف بالمعاصي ، واستحسان اللهو واللعب ، والخوض في الكلام التافه .

– إن الخوض في هذا الشأن يعتبر سوء أدب مني ، فليأمر جنابكم بتوظيفي في الجيش .

- لا مانع لدى ! ولكنك تستشيرنى ، وأقول طبقا لمقولة " حكم المستشار مؤتمن " لا يمكنني أن أشير عليك بهذه الوظيفة ، فنظرا لضعف الحكومة ، صار من الصعب التحكم فى عمالها فى المناطق البعيدة ، فهم لا يرسلون الضرائب دون استخدام الشدة والعنف معهم ، ودائمًا ما يتشاجرون مع موظفى الجيش ، فلماذا تقحم نفسك فى مسألة كهذه ، ولماذا تكون بداية عملك فى هذه الوظيفة الخطيرة .

- ماذا يفعل المضطر ؟

- إذا كنت مضطراً فاقبل عشرين روبية فى وظيفة مسجل مصروفات ، وهى وظيفة جديدة ، أظن يمكنك أن تقنع بهذه الوظيفة ، والعشرون روبية فيها الستر والعافية ، هل تفضل الخمسين التى تحصل عليها من وظيفة الجيش .

- هذا كرم من جنابك ، لكن أعفنى من هذه الوظيفة ، فكما يقول الشاعر :

" خلق كل إنسان لما يستطيع أن يقوم به "

وأنا لا أصلح للعمل المكتبى .

- وأنا - إتماما للحجة - أقول لك إن الوظيفة التى ترغب فيها ، هى فى هذا الوقت بالذات وظيفة خطيرة .

- أتمثل قول الشاعر :

"إن أصحاب الهمم العالية لا يأبهون بالمخاطر ."

- حسنًا ! فكر فى الأمر جليًا ، ولنرى !

غادر كليم مجلس رئيس الوزراء ، وعاد إلى محل إقامته ، لكنه شعر باليأس ، وصعوبة أن ينال مرامه ، كما لم تعجبه طريقة رئيس الوزراء ، وهنا فى مقر إقامته سأله بعض الناس عن لقائه برئيس الوزراء، فقال باحتقار شديد : إنه لا يتذوق الشعر، وهو جسد بلا روح ، جماد بلا حس ، ولا أدرى ما هذا الإنقلاب ، هل هذا ديوان للوزارة أو مدرسة مسجد فتح بورى ؟

ورغم أن كليما أصيب بالإحباط ، فلم يعد يرغب فى العمل فى دولت آباد ، لكنه كان مضطرا ، فلم يكن معه ما يكفيه من مال للذهاب إلى منطقة أخرى ، واضطرته الحاجة إلى الذهاب إلى رئيس الوزراء ، لكن الاختلاف فى الرأى منعه فى العودة إليه ، وهكذا ظل فى حيص بيص مدة عشرة أيام ، حتى حل موعد انعقاد لجنة إدارة الولاية ، لكنه رغم ذلك لم يذهب إلى رئيس الوزراء ، ثم فجأة لم يدر كيف جاءته هذه الفكرة ، ارتدى الزى العسكرى ، و حمل السلاح ، وضبط شاربه ، ثم صار جنديًا ، وكان كليم وجيها ، ومتحدثًا لبقًا ، وهكذا عين فى الجيش برتبة " كابتن " .

من المعروف أن الشعراء فى العادة معتدون بأنفسهم ، لأنهم عادة يكونون تحت أضواء الشهرة ، والمدح والثناء ، وكان كليم أيضًا مصابًا بهذا المرض ، وتعيينه هكذا مرة واحدة فى منصب " كابتن "؛ زاد من هذه النخوة .

وهكذا كان يشاهد ويتجول على ظهر فرسه فى المدينة مع عشرة أو خمسة عشر فارساً .

قضى كليم - بصعوبة كبيرة - أربعة أو خمسة أشهر ، ولأنه كان يريد إثارة فضول أبيه ، كانت خطاباته تصل إلى أصدقائه ومعارفه فى دهلى ، ومضى الحال على هذا المنوال ، حتى جاء يوم لم يدفع فيه " زور آور سنكه" الضرائب المستحقة عليه فى موعدها ، وتمت مطالبته بدفع الضرائب أكثر من مرة ، لكنه كان يماطل فى الدفع ؛ وهكذا تقرر إرسال قوة عسكرية إليه من دولت آباد ، فكان كليم ضمن هذه القوة العسكرية .

وكليم ، شاب فى عمر الشباب ، فى وظيفة جديدة تماماً ، التهور فى طبعه ؛ والشجاعة من سماته ؛ وهكذا أصيب كليم فى القتال بطلقة فى فخذه ، فوق الركبة ؛ تهتكت على أثرها الشرايين والأعصاب .

وطبقًا لقواعد الجيش تمت إعادته من ميدان المعركة ، وإرساله إلى المستشفى ، وحين رأى الأطباء الجرح ، وجدوا من الضرورى بتر الرجل فورا ، ورغم أن الأطباء اقترحوا تعويضاً عن الإصابة ، لكن المسكين لم يكن بقادر على تحمل هذه الصدمة ، وساءت حالته يوماً بعد يوم بعد أن أصيب بالحمى ، وتعفنت جروحه لدرجة أنه لم يكن بقادر على الحركة رغم أنه كان فى عز شبابه ؛ فوضعوه على فراش ، وحين يئس الأطباء من بقائه على قيد الحياة مثلما يئسوا من علاج رجله قبلاً ؛ اقترحوا إرساله إلى دهلى ، على أمل أن تتحسن حالته النفسية إذا ما غير الجو الذى يعيش فيه ، وكان وسط أهله فى بيته ؛ وبالتالى يقوى قلبه ،

وتحسن صحته ، وقد تكفل رئيس الوزراء بالمصروفات احتسابًا لله ، وحُمل كليم من دولت آباد إلى دهلى مثلما يحمل البريد .

وصل كليم إلى دهلى ، وفى الطريق كانت حالته قد تحسنت قليلاً لكنه كان من الضعف والوهن لدرجة أنه قضى معظم الوقت فاقدًا الوعى ، مغشيًا عليه ، وحين أُنزلت الحمالة التى يرقد عليها كليم عند باب البيت ، أغمى على كليم ، وفقد وعيه تمامًا .

كان والده نصوح فى الطابق العلوى مشغولاً بالذكر والدعاء ، وصل الخبر أولا إلى قسم النساء ؛ فوجدت فهميده نفسها منفعلة لدرجة أنها خرجت إلى الشارع دون أن تضع الحجاب على وجهها ، وحين كشفوا الغطاء عن الحمالة ؛ وجدت فلذة كبدها راقدًا ؛ فاندفعت إليه ، وهى فى حزن ووله ، بشكل يصعب التعبير عنه ، وتجمع الناس فى الحى بعد أن سمعوا بكاء الأم وصراخها من جراء رؤيتها لابنها المريض ، وهو بحالته تلك .

ورغم سماع نصوح للبكاء والعويل ، إلا أنه كان رجلا قوى الأعصاب ، يتحكم فى مشاعره ، فاستمر يرتل الآيات التى كان يرتلها دون انقطاع حتى انتهى ، ثم نزل إلى الطابق السفلى ، واقترب من الحمالة التى يرقد عليها كليم ، وعندما سمع بكاء فهميده ، ورأى حالة ولده المتردية ؛ دمعت عيناه رغمًا عنه ؛ ولم يتمالك نفسه ؛ فزادت دقات قلبه ، وتسارعت أنفاسه ، ووقف لم ينطق بكلمة ، ولم يتفوه بلفظ لمدة نصف ساعة كاملة ، بعدها مسح دموعه وقال :

– " إنا لله وإنا إليه راجعون ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، اللهم افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا ، اللهم هون عليه سكراته وكفر عنه سيئاته " .

ثم خاطب زوجته قائلاً :

– لا أمنعك من الحزن ، فالحزن من مقتضيات الفطرة ، ولا خيار للإنسان في هـــذا ، لكني أرى حـــالتك ، فأخشى أن تجـــرك أفكارك إلى الكفران ، فلو أوجد الإنسان في قلبه – معاذ الله – بذور عدم الرضا وعدم الاعتماد على الله ؛ فقد " خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبـين " .

هل نحن دون غيرنا من الناس نواجه مثل هذه المصيبة ؟ وهل هذه مصيبة فريدة لم تنزل على أحد غيرنا ؟ إن عباد الله الأتقياء تعرضوا لمصائب أكثر من هذه : فقدوا أرواحهم ، وتعرضوا للحرق بالنيران، ولضرب الحديد على رءوسهم ، والقتل والسجن ، والتعذيب بكافة أشكاله والضرب والشتم ، والإذلال ، لكن الله جزاهم خـيراً ، كم من الصادقين لم يفلت من يدهم حبل الرضا والتسليم المتين ، فهم يشكرون الله على ما أصابهم ، ويأملون مقابل ذلك في نيل رضا الله ، ورغم ما تعرضوا له من إيذاء فهم يشكرون الله لأنه اختبرهم، ورحم ضعفهم ، فجعل اختباره لهم يسيرا ، فإن كان العبد راضياً شاكراً الله في حالة اليسر فقط ، وشاكيا لله في حالة الشدة ، فهذا العبد ليس بعبد الله ، لكنه عبد لمصلحته فقط ، وعبد انتهازي . فيا زوجتي ، احزني لكن مع الصبر ، وابكي على المصيبة ، لكن تذكري شأن العبودية ، فجميع ما يصيبنا في هذه الدنيا من مصائب وإيذاء هو جزاء الذنوب ، وهو وبال المعاصي ،

ومن هنا كتبت التوبة والاستغفار حتى يسهل الله للمذنب مشاكله ويخفف عليه مصائبه . وأفضل وسيلة للتعاطف مع مثل هذا الشخص ، هو أن ندعو الله أن يغفر له ذنوبه ويكفر عنه سيئاته ، وأود أن أخبرك بأن رحمة الدنيا كلها لا تساوى ذرة أمام رحمة الله بعباده ، ومع أننا نراه فى حالة متردية ، لكن ليس هناك من هو أحسن منه نصيبًا لو فهمت هذه المعاناة ، على أنها - عند الله - كفارة له على ذنوبه .

كان وعظ نصوح مثل السحر الحلال ، لا يمكن لمن يسمعه إلا أن يتأثر به ؛ فاعتدلت فهميده على الفور ، ومسحت وجهها ، وبدأ الزوج وزوجته يفكران معا فيما يجب عمله ، فقال نصوح :

- يجب أن نرسله إلى مستشفى الحى، فسوف يكون تحت إشراف الأطباء طوال الوقت ، والمكان هناك واسع وفسيح ، وسوف تتحسن حالته النفسية هناك .

- ماذا ماذا ؟ وهل يقدر قلبى على الصبر ؟!

- كلامك واجب ، لكن فى حالته هذه يجب ألا يفارقه الطبيب .

- الحكيم سيأتى هنا عن طيب خاطر ، وأنا سأجلس بجواره من خلف ستارة .

- علاج الجروح يقوم به الأطباء ، ويفهمون فيه أكثر من أصحاب الطب اليونانى ، الذين يجهلون أمور الجراحة ، كما أن الجراح تحتاج إلى تطبيب ومراهم وما إلى ذلك ، من الأفضل أن نأخذه إلى بيت نعيمة فهو قريب من المستشفى الحكومى ، وميان عيسى لا مثيل له اليوم بين أطباء الهند ، وبيته كما تعلمين قريب جداً ، الباب فى الباب .

أعجبت فهميده بهذه الفكرة ، وبدأت تجهيز الملابس والحاجات الضرورية ، وحمل كليم على الحمالة ، بينما طلب عدد من العربات ، وهكذا انتقل كليم إلى بيت نعيمة .

ونذكر أن نعيمة كانت قد خرجت من بيت أبيها غاضبة من أمها ، دون أن تودع أمها ، فذهبت مع صالحة إلى بيت خالتها ، ومكثت هناك أربعة أشهر ، ونتيجة لإقامتها عند أناس أتقياء طيبين ؛ تأثرت بهم وهداها الله ؛ وصارت سيدة طيبة .

وكما يقول سعدى شيرازى :

" كلب أصحاب الكهف بقي معهم عدة أيام

من صحبتهم صار مهذبا مثل الإنسان "

بعد أن صلح حالها ، لم تكن تتحمل أن يكون والداها غير راضيين عنها ؛ وهكذا اعتذرت لأمها ، وأرضت أباها ، ووفقها الله في الحياة مع زوجها في بيتها ، وكان قد مضى على عودتها إلى بيت زوجها شهران ، حين حُمل كليم على حمالة ، وجيء به إلى بيتها .

وهكذا فمن المناسب أن نقص حكاية نعيمة ، بعد أن نعرف ما حدث لكليم ، الذى يعيش الآن لأيام معدودات ضيفا فى هذا الدنيا ..

لنرى !

الفصل الثاني عشر

(صلحت أحوال نعيمة من تلقاء نفسها بعد أن أقامت في بيت خالتها ؛ فطلبت العفو من أبيها وأمها ، ووفقها الله في أن تعود إلى بيت زوجها الذي هجرته مدة . يتوفى نعيم في بيت أخته ، وتنتهي القصة)

* * *

كان هناك تشابه بين حياة كل من نعيمة وكليم ، فقد رسخت العادات في طبعهما؛ نظرا لتقدمهما في السن ، وهما متزوجان ، كما أنهما أصحاب أولاد ، لم يكن سليم يأنس لزوجته ، وكانت نعيمة دائمة الشجار مع زوجها ، ومع أن نعيمة لم تكن مثل كليم الكل في الكل ، لكنها كانت رغم ذلك البنت الكبرى ، لكن إذا كان كليم فولاذاً فقد كانت نعيمة مثل الرصاص ، وكليم رجل ، قاسي القلب ، ونعيمة امرأة ، رقيقة القلب ، كان كليم يعشق اللف والدوران هنا وهناك ، يعرف مئات بل آلاف الناس، أما نعيمة المسكينة فهي قابعة في بيتها، ملتزمة بالحجاب ، فإذا ما أرادت الاختلاط بأحد ، فهو اختلاط ناتج عن ألفة ومحبة ، وهو اختلاط بأمها وأختها ، وخالتها وجدتها ، ونساء من أفراد عائلتها ، وهن أيضا بعدد أصابع اليد ، كان في قلب كل منهما مرض ، لكن في قلب كليم بالإضافة إلى مرض حب الذات مئات الأمراض التي يمكن أن نسميها بالأمراض المعدية؛ أي تنتقل من شخص إلى آخر . وهكذا كان

فى طبع كليم عدة مساوئ ، انتقلت إليه عن طريق رفقاء السوء ، وصحبة الأشرار ، أما ما فى نعيمة من مساوئ فقد كان نتاج محبة الوالدين الزائدة لها ، وتدليلهما إياها ، بالإضافة إلى جهلها وافتقارها إلى التعليم ، و قلة العقل ، كان كليم جسوراً وماكراً وخبيثًا ، بينما كانت نعيمة حمقاء ، وبليدة ، ومستهترة ، وكان هناك بلاء شديد مسلط على ذهن كليم ، وهم جلساؤه ورفاقه، أما نعيمة فكانت بعيدة عن هذا البلاء ، وكانت فى نعيم تلك العيوب المتعددة التى تشاهد اليوم بكثرة بين شباب الأسر الشريفة : أي حبهم للتزين مثل النساء ، ثم ميلهم إلى الكسل والاستيقاظ من النوم فى الضحى ، بعدها يبدءون فى التطلع فى المرآة حتى الظهر، ونتيجة لأنهم ناموا فى الليل، وقد عصبوا أعينهم بالمناديل ، ووضعوا الوسائد على رءوسهم اتقاء نور المصابيح ، فإنهم فى الصباح ، يشاهدون شعورهم منفوشة منكوشة ، فيبدءون فى تسويتها تمشيطها ، ويستغرق هذا وقتا طويلاً ، وإذا ما أرادوا قص الشعر ؛ فهم يريدون قصه بشكل خاص ، كما يريدون تهذيب الشارب أيضا بطريقة معينة ، وعادة لا يقتنعون بما يفعله الحلاق فى لحيتهم أو شاربهم ، ويكون يوم الحلاق أسود من القار ، فإذا ما انتهى أمر الشعر بدأ أمر تغيير الملابس ، وتأتى الطاقية من القالب ، مكوية تماماً ، فتوضع على الرأس بحيث لا تفسد تسريحة الشعر ، ثم بعد ذلك يأتى دور ارتداء الملابس الضيقة اللاصقة للجسم التى تدخل الجسم بصعوبة ، وكأن نملة تدخل جحرها بل كأن " الجمل يلج فى سم الخياط " ، وتظل محاولات إدخال اليدين والرجلين فى الملابس الضيقة ، ويبدو الجسم كله كأنه وضع فى مكبس .

أما طريقة المشى ، وحركات الجسم ، وصوت النحنحة أو الكحة المفتعلة فهذا أمر آخر ، وإذا ما فكرنا فى أمر اللباس فهو أساساً يحاك بطريقة تريح البدن ، لكن هؤلاء جعلوه متعلقا بالزهو والكبر ، ومن هنا لم يعد يفي بالغرض الأصلى ، بل صار سبباً في إيذاء الجسم بدلا من إراحته ، ولا داعى للاسترسال في الحديث عن هؤلاء ، فالشاعر يقول :

"إن رأيت صورتهم فلا تسأل عن حالهم "

كان كليم يتصف بالصفات السابقة ، يتصف بالكبر ، ويتصف باللامبالاة، وقد أشير من قبل فى صفحات متفرقة إلى عاداته وأطواره ، ومن هذه الناحية كانت نعيمة مثلها مثل بقية بنات الأسر الشريفة "كالدر المكنون " محفوظة ومصونة ، والفرق بينها وبين كليم كالفرق بين الملاك والشيطان دون أدنى مبالغة ، والغرض أن إصلاح نعيمة كان بالضرورة أمراً صعبًا ، لكنه لم يكن محالاً مثلما كانت الحال مع كليم ، وكان صعبًا ، لكنه لم يكن متعذرًا كما كانت الحال مع كليم ..

حين نزلت نعيمة من العربة عند بيت خالتها ، وشاهدت خالتها انخرطت فى البكاء ، وقد جرت العادة عند نساء الريف أنه إذا جاءهم ضيف أو مسافر بعد غياب طويل استقبلوه بالبكاء والعويل ، ذلك لأنهم فى ذلك الوقت يتذكرون ألم الفراق ، وصعوبات الانتظار ، لكن هذه العادة غير موجودة فى دهلى ، فالنساء هنا يبكين إذا مات لأحد الطرفين قريب أو عزيز ، بعيداً عنهم ، وإلا اعتبروا مثل هذا البكاء عند لقاء ضيف أو مسافر فألا سيئًا ، إلا أن نعيمة لم تستطع أن تتمالك مشاعرها حين رأت خالتها ، ولكن أين لنعيمة من عقل تفهم به مثل هذه

الأمور ، وحتى لو فهمت ، فقد كان من الصعب عليها أن تكبح جماح مشاعرها ، وقد تعجبت خالتها كثيرا عندما شاهدتها تبكى ، وهى تعرف عادات ابنة أختها ، فعرفت أنها قادمة من البيت بعد أن تشاجرت مع أمها ، ولهذا فهى تبكي لما حدث ، لكنها أسرعت وأخذت ابنة أختها بين ذراعيها تحتضنها وتقبلها وتطمئنها ، وتحاول أن تهدئها قائلة :

– يحفظك الله صرت صاحبة عيال الآن ! لا ينبغى عليك في هذا العمر أن تبكين مثل الأطفال ، ماذا تقول الجارات لو سمعناك تبكين هكذا ؟ اتركي ما حدث وراء ظهرك ، كفاية .. خلاص .. تمالكى نفسك.. اضبطى مشاعرك ..

فقالت نعيمة وهى تبكى :

– لقد ضربتنى أمى .. أوه ، ها أوه

– ضربتك .. ما فى ذلك شىء .. الأب والأم يُقبّلون أولادهم حبا آلاف المرات ، ماذا لو ضربوهم مرة من أجل تأديبهم ، ضرب الوالدين ليس ضربًا إنه زينة ، جدتك ، أمى – أسكنها الله فسيح جناته – كانت تضربنى ، أقول لك الصدق كم أتمنى الآن أن تكون بيننا وتضربنى ، إن ضرب الوالدين من نصيب كل إنسان ، ومن كتب الله له السعادة ، يتعرض لضرب الوالدين ، ألهذا كنت تبكين ؟ اصحى ! انظرى ، ابنك يضحك على بكائك ..

وتطلعت الخالة ناحية الطفل وقالت :

– إيه ! أليس كذلك يا سيد ! ألم تحاول إفهام أمك الحبيبة ؟

أصدر الطفلِ صوتا :

- أغون !

فقالت له الخالة :

- أغون .. غوتي .. تشرب اللبن ، وتكبر ، وتسمن .. إن شاء الله .

والخلاصة أن الخالة مسحت على دموع نعيمة بكلامها الطيب ، ورغم أن نعيمة ظلت متأثرة لمدة إلا أنها بدأت تضحك وتبتسم ، لم تحاول الخالة أن تسأل ابنة أختها في البداية عن سبب بكائها ، لكنها حين وجدت الفرصة سانحة لذلك ، انفردت بها وسألتها عن الحقيقة كاملة ، وحين علمت أن الشجار كان بسبب الحرص على تطبيق أمور الدين وأداء واجباته ؛ فرحت وعمها السرور ، وصممت على ألا تجعل نعيمة تفارق بيتها قبل أن يصلح دينها ، وتصبح سيدة تقية ورعة .

تغيرت عادات نعيمة السيئة يومًا بعد يوم ، نتيجة إقامتها في بيت خالتها . إن أثر الصحبة الطيبة أفضل من أى تعليم ، فقد كانت هناك بعض الأمور في بيت أمها أثرت سلبًا على إصلاحها، أولها أن نعيمة عاشت مدة طويلة، وهي تشاهد أمها، وجميع أفراد الأسرة لا يتمسكون بتعاليم الدين ، ولا يهتمون بأمور كثيرة هي في الأصل من أساسيات تعاليم الدين ؛ ومن هنا لم يكن من الممكن أن يكون لنصيحة الأم أى أثر عليها ، على عكس ما هو في بيت الخالة .

والأمر الثاني أن نعيمة كانت تشعر أنه من العار عليها أن تغير الطريقة التي عاشت بها ، في بيت أمها ، مع أخوتها وأخواتها والخدم ،

وحتى مع الجيران، ومن تعرفهم من الناس ، الذين كانت تتعامل معهم ، ثم تعيش بأسلوب مختلف عما تعودت عليه .

والأمر الثالث هو أن أمها حاولت أن تجرب معها أسلوب الشدة ، إلا أن هذا الأسلوب لم يكن مناسبا لها ، والأمر الرابع أنها كانت مدللة عند أمها ؛ ولهذا لم تكن تستجيب لكلامها ولنصحها .

لكنها حين جاءت إلى بيت خالتها ؛ لم تشعر بأن هناك من يقول لها إن التدين أمر مهم ، أو إن عبادة الله فرض واجب على الإنسان ، لكنها وجدت الكبير والصغير على وتيرة واحدة ، وبصبغة واحدة " صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة" ، وحركاتهم وسكناتهم ، وجلوسهم وقعودهم ، وسلوكهم وتصرفهم يتماشى مع تعاليم الدين ، وأقوالهم وأفعالهم ، وأحاديثهم ومعاملاتهم، وحتى نزاعاتهم وشجاراتهم، وطعامهم وشرابهم، وسرورهم وأحزانهم ، وأي تصرف ، وأي مسلك هو مسلك فريد يتماشى أيضا مع تعاليم الدين ؛ وهكذا شعرت نعيمة أن بيت خالتها عالم جديد بالنسبة لها . ورغم أنها في البداية كانت تنظر إلى هذا الوضع باحتقار شديد ، لكنها بالتدريج – وبعد أن ألفت هذه الأوضاع – أدركت مدى صحتها وعظمتها ، وثبت لها في النهاية أن الحياة دون تمسك بتعاليم الدين هي حياة يشوبها القلق ، لا اطمئنان فيها ولا سكينة ، فإذا شعرت بالألم والإيذاء ، لم تجد ما يدخل على قلبها الراحة ، ولو أصيبت بمصيبة ؛ ما وجدت الصبر ، وإذا ما أكلت لم تشبع ، ليس هناك عقاب لارتكاب ذنب ، ولا ثواب لعمل خير ، والإنسان بلا دين مثله مثل الجمل بلا خطام ، والثور بلا زمام ، والفرس بلا لجام ، والسفينة دون ملاح ،

والساعة دون بندول ، والمرأة بلا زوج ، والطفل بلا أب ، ومثل الحناء لا لون لها ، والمطر دون طيب ، والمريض بلا طبيب ، أى أنه إن لم يكن هناك لدى الإنسان دين ، فالدنيا وما فيها لا شيء ، عبث وفضول ، ولغو .

بدأت نعيمة من تلقاء نفسها وبالتدريج تقليد خالتها ، كانت قبلاً تنهض من نومها في وقت متأخر ، بعد أن تكون الشمس قد ارتفعت في السماء ، بينما كل من في البيت هنا الكبير والصغير يستيقظون مع طلوع الفجر ؛ لأداء الصلاة ، وهم أيضًا لا يستيقظون للجلوس في الفراش، والتمدد والراحة ، بل ينهض كل منهم يتحرك ، يؤدى عملاً ما ، ورغم أنهم كانوا حريصين على عدم إزعاج نعيمة ، لكنها كانت رغم ذلك تسمع ما يدور حولها ، بعدها تعودت نعيمة على الاستيقاظ مبكرا مع الجميع ، فإذا ما استيقظت كان من الصعب ألا تنتبه لحالتها ، وطفلها قد أصاب ملابسها بالوسخ والنجاسة ، لكنها مع هذا كانت مصابة بالكسل ، بينما الآخرون يتحركون في نشاط وهمة ، يتطهرون بالوضوء ، ويقفون في حضرة الله ، يسجدون له ، ويشكرونه على ما منحهم من أمان وسكينة طوال ليلهم ، ويدعونه أن يهبهم الرزق الحلال في نهارهم ، وألا يضطرهم لمد أيديهم لأحد ، وأن يشفى مرضاهم وأن يهدى من ضل عن سواء السبيل ، وأن يفك قيد المأسورين ، وأن يحفظ طرق المسافرين ، وأن يطعم الجائعين ، وأن يسقى العطاشى ، وأن يوفق كل ذى حاجة إلى حاجته ، وأن يهب الجهال العلم ، ويهب العلماء العمل ، وأن يهب الزهاد الإخلاص ، وأن يوفق الحاكم إلى العدل والإنصاف، والرعية إلى الطاعة ، وأن يعمر البلاد ، ويهدى العباد .

وبمرور الأيام هدى الله نعيمة ، وصارت من الأتقياء ، تحرص على أداء شعائر الدين ، وعلى القيام بكامل العبادات ؛ فالتزمت بالصلاة والصوم، وتأصل في قلبها الهدى والخير، وصار التواضع من خصالها ، وتغيرت طباعها ؛ فصارت تميل إلى الهدوء والمصالحة ، والبعد عن الشجار أو ما يؤدى إليه . ورغم أن نعيمة نشأت في بيت عز ، وكان أبواها يلبيان جميع مطالبها ، ويحرصان على إرضائها ، لكنها الآن ألقت بكل عاداتها القديمة خلف ظهرها ، وكانت قبل ذلك لا تتحمل أي شيء ، فإذا كان الخادم قد عصى لها أمرا بسيطا ناسيا عن غير قصد ، أو زاد في ملح الطعام قليلاً ، أو ترك الطفل يبكي ؛ فإنها تظل تتعارك على مثل هذه الأشياء الصغيرة طــول اليوم ، وإذا ما تعكر مزاجها ، أو تذكرت مشكلتها مع زوجها ؛ نغصت على البيت كله أسابيع وأسابيع ، لكن الوضع الآن اختلف تمامًا ، فهي تشعر الآن براحة فكرية ، وراحة نفسية ، أدخلت الطمأنينة على قلبها ، كانت من قبل تتأذى من أى ألم دنيوى ، لكنها الآن تشعر بالحزن الشديد بسبب عدم رضاء والديها عليها ، وتشعر كأن شوكة تتحرك دوما في قلبها .

في تلك الآونة هيأ الله الأمور لعودة نعيمة إلى بيت زوجها ، كان زوجها رجلاً طيبًا ، ورعًا ، تقيًا ، حين تزوج نعيمة ، كانت آنذاك بعيدة كل البعد عن تعاليم الدين ، ورغم جمال نعيمة ورشاقتها وخفة دمها ، لكن اختلاف العـادات ، واختـلاف المبادئ ؛ وضـع بينهما حجابا ، لم يسمح لهما بالتوافق أبدًا ؛ مما جعل إقامة نعيمة مع أهل زوجها أمرا صعبا إن لم يكن مستحيلاً .

بعد أن صلح حال نعيمة ، كان هناك حفل زواج في بيت عم صالحة ، وكان والدها وزوجها من بين المدعوين لحفل الزواج ، وفي حفل الزواج قضت النساء الليل بطوله في الغناء والرقص والمرح ، بينما انتهت نعيمة من صلاة العشاء ، وبدأت في صلاة التسابيح ، وظلت تصلي حتى انتصف الليل ، وبعد أن نامت قليلاً استيقظت لصلاة التهجد ، ثم صلت الفجر .

حين وصل هذا الخبر إلى زوجها فرح فرحًا شديدًا ، لأن الله قد منّ على زوجته بالهداية ، ورغم أنه كان يزور حماه أحيانًا ، وكان يهتم كثيرا بشأن زوجته ، لكنه لم يكن يجد في نفسه رغبة في أن تكون نعيمة موجودة بين أمه وأخواته البنات ؛ نظرًا لاستهتارها السابق بتعاليم الدين وشعائره ، لكن الأمر اختلف الآن ، ولهذا أسرع إلى بيت حميه لطلب عودة زوجته إليه .

كانت نعيمة تنتظر موافقة أمها على عودتها إلى بيت زوجها على أحر من الجمر ، وفي أثناء حفل الزواج هرعت نعيمة إلى أمها وخرت تمسك بتلابيبها ، لكن الأم ترفعها من على الأرض ، تحتضنها ، تقبلها ، وحين رأت الأم أحوال نعيمة ، وكيف صارت سيدة طيبة تؤدي الصلاة ، وتقيم الليل في خشوع في عبادة الله ؛ لم تغفر لها فقط ما حدث منها من قبل ، لكن حبها زاد في قلبها ، وحين انتهى حفل الزواج شكرت الأم أختها وابنة أختها ، واصطحبت معها نعيمة إلى البيت ، حيث جاءت جميع نسوة الحي للسلام على نعيمة ، بينما جلست نعيمة بينهن تعترف – وهي باسمة – بأخطائها السابقة، وهي تمسك أحيانًا برأس أمها وبقدميها ،

تمسح عليهما، وتأخذ أحيانا حميدة فى حضنها ، تقبلها وتضمها إليها ، فى حب وحنان ، وتقبل جبهتها التى جرحها مسمار السرير فى تلك الليلة الغبراء التى كانت سببا فى إثارة غضب الأم على نعيمة ، وأحيانا تنادى الخادم وتجلسها بجوارها ..

وفى صباح اليوم التالى كانت هناك عربة فى انتظارها، لتحملها إلى بيت زوجها ، وهناك فى بيت زوجها ، اعترف الجميع : الزوج ووالده وأمه وكل من فى البيت بحسن خلقها وجودة طبعها ؛ حتى صارت لهم مثلا فى الطيبة وحسن السيرة .

لم يمض على عودة نعيمة إلى بيتها شهران حين وصل كليم إلى أخته بحالته التي وصفناها من قبل ، وحين رأت الأخت حالة أخيها المتردية ، أصيبت بالذهول ، وطرأت عليها حالة من الحزن والألم ، وهى التقية الورعة ، لا يمكن بيانها ، وأصيبت بصدمة شديدة يعجز القلم عن وصفها، ظل كليم فى بيت أخته على حالته هذه ، وقدم إليه بدل الطبيب طبيبان، مع أشهر الجراحين فى المدينة ، وكانوا جميعًا يحاولون علاجه ، لكن جروحه لم تندمل ، بل تعفنت أكثر وأكثر ، كان يفيق أحيانا فى الصباح والمساء لدقائق معدودات ، ولابد أنه كان يدرك أين هو ، ومن هم أولئك الناس الذين يعالجونه ، وأولئك الذين يمرضونه ، لكن ضعفه الشديد ، وحالة النقاهة التى يمر بها ، لم تكن تسمح له بالتحدث عن أى شيء ، وإذا حدث فيكون قاصراً على طمأنته ، واستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن وصل تعفن الجروح إلى درجة كبيرة ؛ ليدرك الجميع أن أيام حياته المعدودة قد انتهت .

قبل الوفاة ، تحسنت حالته بشكل مفاجئ ، فكان ينهض من تلقاء نفسه ويجلس ، وبناء على طلبه أعدوا له الأرز باللحم ، وأكل كما يأكل الأصحاء ، وظل يتحدث بصوت عال مع أفراد عائلته ، فذكر لهم كل ما جرى له منذ غادر البيت حتى وصل إلى دولت آباد ، وانضمامه للجيش ، وكل ما حدث حتى إصابته في القتال ، وعودته إلى دهلي ، ثم سأل عن حال أخوته وأخواته كل واحد باسمه ، عندئذ كان يتأسف على ما اقترف من ذنوب، وما ارتكب من سيئات ، وتأثر كثيرا حتى غلبه البكاء ، واستمر في البكاء حتى وقع مغشياً عليه .

بعد مدة طالت عاد إلى وعيه ، فخاطب أمه قائلا :

– إن ما تشاهدينه من القوة التي وانتني على غير العادة أدرك أنها آخر ما عندي ، فالدم الذي تدور عليه حياتي قد نفد تماماً من جسمي ، بل إنني أشعر بأن عظامي داخل جسمي ، صارت نخرة ، مع أنكم تطمئنوني وتشدون من أذري ، لكني أعرف أنني لا يمكن أن أقوم من هذا المرض ، وأنا أفضل الموت على هذه الحياة المخجلة التي عشتها ، وقد عشت حياتي عاصياً لوالدي مرتكبا للسيئات والفضائح ، فلو قدر لي ألف ألف حياة ، فلا أمل عندي في أن أعوض ما ارتكبت من ذنوب في هذه الحياة التي وصلت فيها لقمة السوء والفساد .

لكن هناك ثلاثة أمور تجعلني أطمئن ، وأنا راحل عن هذه الحياة: أولها أنني أموت وأنا تائب ، ونادم ، وخجل ، وأسف على كل ما اقترفت من ذنوب وسيئات ، والثاني هو أنني أبدأ سفر العاقبة وأنا بين أناس يعرفون الآن إلى أين وصلت ، وهم متعاطفون معي ، يشفقون علي ،

ويترحمون على حالى ، والأمر الثالث والأخير هو أن حياتى هذه ستكون فى الغالب عبرة لمن يعتبر ، وفى هذه الحالة ورغم أننى لم أستفد منها فى حياتى لكن إذا انتفع الآخرون واعتبروا مما أصابنى ، فأنا لا أعتبر حياتى ضاعت هباء دون نفع وكما يقول الشاعر :

" أنا لم أفعل شيئا ولكن عليك أن تحذر "

والآن لا أمل لى فى الدنيا سوى أن يسامحنى أبى على ما ارتكبت من أخطاء .

قال كليم هذه العبارة ، ثم طرأت عليه حالة من الرقة ، فالمسكين فقد قوته وطاقته منذ مدة طويلة ؛ عندئذ بكى وسقط مغشيًا عليه ، وعندها توقفت أنفاسه ، وارتخت يداه وقدماه ، وتوقفت دقات قلبه ..

شاهدت النساء هذا فانخرطن فى البكاء والصراخ ، فقدم نصوح من مجلس الرجال مسرعا ، وأخذ النساء بعيدًا ، ومنعهن من الصراخ والولولة بطريقة غير شرعيه تتنافى مع الدين ، وأخذ يلقن معنى الصبر والرضا بقضاء الله ، ثم جلس عند رأس ولده ، وبدأ فى قراءة سورة يس ، ووضع قطرات من العصير فى فم ولده ، وأداره ناحية القبلة ، وأسمعه كلمة الشهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حين نزلت قطرات العصير فى حلق كليم ، فتح كليم عينيه ، ونظر إلى أبيه نظرات ملؤها الحسرة والندم ، وكأنه يطلب منه السماح والعفو، وهكذا فاضت روحه إلى بارئها .

ولو كتب الله لكليم النجاة فلا شك أنه كان سيسبق جميع إخوته وأخواته فى التمسك بتعاليم الدين . لقد غير آراءه بعد أن تعرض للمصائب ،

وتنبه إلى أخطائه بعد أن تعرض للآفات ، لقد كان مجتهدا بينما الآخرون كانوا مقلدين ، كان محققًا وباحثًا بينما الآخرون كانوا مجرد ناقلين ، وهب الله الجميع مثل هذه الخاتمة .

كان موت كليم في شبابه مؤلما ومحزنا لأبيه وأمه ، وكأنهما دخلا معه القبر ، أما إخوته فشعروا أن ساعدهم قد قطع ، أما أخواته البنات فشعرن كأنهن فقدن راعيًا لهن ومشرفًا عليهن ، لكن الدين يأمرهم جميعًا بالصبر الجميل ، وأن يعتبر كل منهم ، ويتخذ مما حدث عبرة . ومع إسدال الستار على حياة كليم ، انتهت محاولات نصوح لإصلاح الأسرة لأن جميع أبنائه صغارًا وكبارًا – سوى المرحوم كليم – قبلوا رأيه .

كان عليم قد نجح في امتحان الالتحاق بالجامعة ، وبعدها حصل على الليسانس ، ونال وظيفة طيبة ، فعمل بالتدريس حتى ينفع أبناء وطنه ، أما سليم فكبر وصار طبيبًا ، وهو اليوم من أطباء دهلي المشهورين ، أما ولية الله حميدة فقد بارك الله فيها منذ ولدتها أمها ، فقد حفظت القرآن الكريم ، وقرأت الحديث النبوي الشريف ، والحقيقة أن نساء المدينة ممن ذاعت شهرتهن ، أو ممن تعلمن القرآن والحديث ، تعلمن على يديها أو على تلميذاتها .

فجزاها الله عنا خير الجزاء .

المؤلف فى سطور :

نذير أحمد الدهلوى

ولد فى «بجنور» بشمال الهند سنة ١٢٤٦هـ = ١٨٣٠م ، درس على يد والده ، ثم فى الكُتّاب على عادة أهل زمانه ، ثم التحق بكلية دهلى ١٢٦٤هـ = ١٨٤٦م ، وفى سنة ١٢٧١هـ = ١٨٥٤م عمل مدرساً فى إحدى مدارس الكجرات ، وبعد سنتين عمل مفتشاً للتعليم ، ولكنه ترك هذه الوظيفة ورحل إلى دهلى .

بدأ حياته الأدبية فى حدود عام ١٢٨٦هـ = ١٨٦٨م حين نال جائزة عن روايته «مرآة العروس» ، ثم جائزة أخرى عن روايته «توبة النصوح»، كما نال لقب شمس العلماء ، ونال درجات علمية من جامعتى أدنبره ، وجامعة البنجاب . كما كتب عدة كتب فى الأخلاق منها : منتخب الحكايات ، وعدة نصائح ، والموعظة الحسنة .

ومن مؤلفاته الدينية : «ترجمة معانى القرآن الكريم» و «الحقوق والفرائض والاجتهاد ، و «أمهات الأمة» ، و «أدعية القرآن» . وفى المنطق كتب «مبادئ الحكمة» ، وفى علم الهيئة «الفلك» كتب «السماوات» ، كما كتب «ما يغنيك فى الصرف» ، و «الصرف الصغير» فى قواعد اللغة العربية ، بالإضافة إلى ترجمته لعدد من كتب القانون ، وله كتاب ضخم بدأه فى آخر عمره بعنوان «مطالب القرآن» ، لكنه لم يكمله .

المترجم فى سطور :

أ.د/ سمير عبد الحميد إبراهيم

تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦٧م ، وعمل بها حتى ١٩٨٢م ، ثم انتقل بعد ذلك للعمل بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود في طوكيو باليابان حتى عام ١٩٨٦م ، ثم انتقل للعمل بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض حتى عام ٢٠٠٢م وقد دعته جامعة دوشيشة اليابانية في كيوتو للعمل أستاذاً زائراً عام ٢٠٠٤م / ٢٠٠٥م .

شارك في العديد من المؤتمرات والندوات الدولية ، وله عدد كبير من المؤلفات والترجمات والبحوث نشرت في باكستان ومصر واليابان والسعودية ، منها : الإسلام والأديان في اليابان ، ياباني في مكة (ترجمة عن اليابانية بالاشتراك) معجم الألفاظ العربية في الأردية ، اللغة العربية وقضية التنمية اللغوية في باكستان ، الجزيرة العربية في أدب الرحلة الأردي .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولي / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت : ماجدة العناني
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصرى
٢٣ - تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة في التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجي / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر ألن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسي سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبري محمد عبد الغني
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	جين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيميتوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرا متى	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقولاي إيقانوف	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولي
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيفال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلي السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : علي عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوي
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : علي إبراهيم علي منوفي
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسي
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جي أنيال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مي التلمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامي الكنوجي	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحي
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومي
١٦١ - من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوي	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - في عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكري محمد عياد
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكري محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكري محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنري ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحي العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	الڤين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمي
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغي	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكي	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللي - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : علي يوسف علي
٢٠٧ - ليل إفريقي	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائي	سنائي الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مسرحة قرم تليلين في رحل عبد القادر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد علي الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيدنز	ت : محمد محمود محي الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغي	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت : علي إبراهيم علي منوفي

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابند	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدراقيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	آرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيميونوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني	نخبة	ت : ڤاروجان كازانجيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد منتوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	ت : علي يوسف علي
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلي	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكي
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سي . باترسون	ت : شوقي جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية في مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود علي مكي
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمساني
٢٧٧ - الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزي
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندي الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوي	ت : جلال الحفناوي
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان رولفو	ت : علي البمبي
٢٨٤ - هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامي	حسن نظامي	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج٢	زين العابدين المراغي	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمي	أنتوني كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائي	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطي
٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغاني	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس جيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليناور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عبد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامي صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراي	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام في بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالي ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب في إيران جـ٣	علي أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازي الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت في الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – التصوف الإسلامي في الأدب التركي جـ١	محمد فؤاد كوبريلي	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامي في الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية في إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقي	ريتشارد جيبسون	ت : صبري محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٢٦٧ – القلم الجريء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادي رضا
٢٦٨ – المصطلح السردي	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٢٦٩ – المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوي	ت : فوزية العشماوي
٢٧٠ – الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٢٧١ – المتصوفة الأولون في الأدب التركي جـ٢	محمد فؤاد كوبريلي	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٢٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٢٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : علي إبراهيم علي منوفي
٢٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٢٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٢٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٢٧٧ – تاريخ الأدب في إيران جـ٤	علي أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٧٩ – ملك في الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٢٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٢٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادي
٢٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٤ – القصص التي يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٢٨٥ – مشتري العشق	محمد علي بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٨٦ – دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٢٨٧ – أغنيات وسوناتات	جون دن	ت : بهاء جاهين
٢٨٨ – مواعظ سعدي الشيرازي	سعدي الشيرازي	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٨٩ – من الأدب الباكستاني المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٢٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشي	ت : منى الدروبي
٢٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دي لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٩٣ – في قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيري
٢٩٤ – القوى الأربع الأساسية في الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٢٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٢٩٦ – السافاك	تقي نجاري راد	ت :محمود سلامة علاوي
٢٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٢٩٨ – سارتر	فيليب تودي	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٢٩٩ – كامي	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهري
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوي	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – رية المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر

٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠ – خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ – همس من الماضى	جينيفر آكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ – أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ – صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ – مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ – سيامات الزمن الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ – العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ – مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ – الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ – رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ – إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ – لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ – من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ – الفلافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ – باندراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ – الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ – هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ – كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ – فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ – ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ – جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدى الجابرى
٤٣٤ – الرومانسية	دونكان هيث وجودين بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ – توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ – تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ – رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ – بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ – موت المرابى	صدر الدين عينى	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ – قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوى

٤٤١ – رب الأشياء الصغيرة	أرونداتي روي	ت : فخري لبيب
٤٤٢ – حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتي
٤٤٣ – اللغة العربية	كيس ترستيغ	ت : محمد الشرقاوي
٤٤٤ – أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علماني
٤٤٥ – حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلري	ت : محمد محمد يونس
٤٤٦ – التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفري سانت كلير	ت : أحمد محمود
٤٤٧ – نظرية الكم	ج. پ. ماك ايفوي	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٨ – علم نفس التطور	ديلان ايفانز – أوسكار زاريت	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٩ – الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيري
٤٥٠ – ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا – ريبيكا رايت	ت : جمال الجزيري
٤٥١ – الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن ڤان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ – لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناتزي / أوسكار زاريت	ت : محي الدين مزيد
٤٥٣ – القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ – خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ – لا تنسني	مريم جعفري	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ – النساء في الفكر السياسي الغربي	سوزان موللر اوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ – الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ – نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ – الفاشية والنازية	ستوارت هود – ليتزا جانسنز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ – لكان	داريان ليدر – جودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ – طه حسين من الأزهر إلي السوربون	عبد الرشيد الصادق محمودي	ت : عبد الرشيد الصادق محمودي
٤٦٣ – الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت : كمال السيد
٤٦٤ – ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتي	ت : حصة منيف
٤٦٥ – قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت : جمال الرفاعي
٤٦٦ – حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ – التفكير السياسي	ستيفين ديلو	ت : ربيع وهبة
٤٦٨ – روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصاري
٤٦٩ – جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت : مجدي عبد الرازق
٤٧٠ – الأراضي والجودة البيئية	نخبة	ت : محمد السيد النة
٤٧١ – رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢	نخبة	ت : عبد الله الرازق إبراهيم
٤٧٢ – دون كيخوتي (القسم الأول)	ميجيل دي ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٣ – دون كيخوتي (القسم الثاني)	ميجيل دي ثربانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٤ – الأدب والنسوية	بام موريس	ت : سهام عبد السلام
٤٧٥ – صوت مصر : أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت : عادل هلال عناني
٤٧٦ – أرض الحبايب بعيدة : بيرم التونسي	ماريلين بوث	ت : سحر توفيق
٤٧٧ – تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت : أشرف كيلاني

٤٧٨ - الصين والولايات المتحدة	ليو شيه تشنج ولي شي دونج	ت : عبد العزيز حمدي
٤٧٩ - المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت : عبد العزيز حمدي
٤٨٠ - تساي ون جي (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت : عبد العزيز حمدي
٤٨١ - عباءة النبي	روى متحدة	ت : رضوان السيد
٤٨٢ - موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت : فاطمة محمود
٤٨٣ - النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت : أحمد الشامي
٤٨٤ - جمالية التلقي	هانسن روبيرت ياوس	ت : رشيد بنحدو
٤٨٥ - التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوي	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧٣٦٠ / ٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة



إن تربية الأولاد - وهو الموضوع الذى تدور حوله هذه الرواية - أمر واجب، بقدر استطاعة كل فرد من أفراد البشر، لإيصال النفع للإنسانية عامة، والتعاطف مع أفراد الجنس البشرى. أما اللامبالاة والإهمال والغفلة وما شابه ذلك من أمور سيطرت على مواطنينا فى هذا البلد - الهند - فهى السبب الرئيسى فى انحطاط هذا البلد: فالناس صاروا يجهلون مفهوم التعاطف، لدرجة أنهم صاروا بحاجة إلى أن يتعلموه مثلهم مثل الأطفال. وهذه الرواية بمثابة أوليات هذا التعليم، وكما يقول المثل الإنجليزى «الخير يبدأ من البيت» لو أن إصلاح الأولاد والأسرة مسئولية واجبة للإنسان: فمن الضرورى أن يكونوا مسئولين عن إصلاح هؤلاء الناس ذوى العلاقة، والذين يخضعون لإشرافهم وسلطتهم، ثم الخدم والعمال، وهكذا الأقرب فالأقرب: أى الجار، ثم أهل الحى، ثم أهل المدينة، ثم أهل الوطن والبلاد، ثم أبناء الجنس البشرى.



الغلاف: سعيد المسيرى